

كتاب الهلال



الملك
والثوار في عربة

فتحي رضوان

العدد ١٠ قروش

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »
شركة مساهمة مصرية

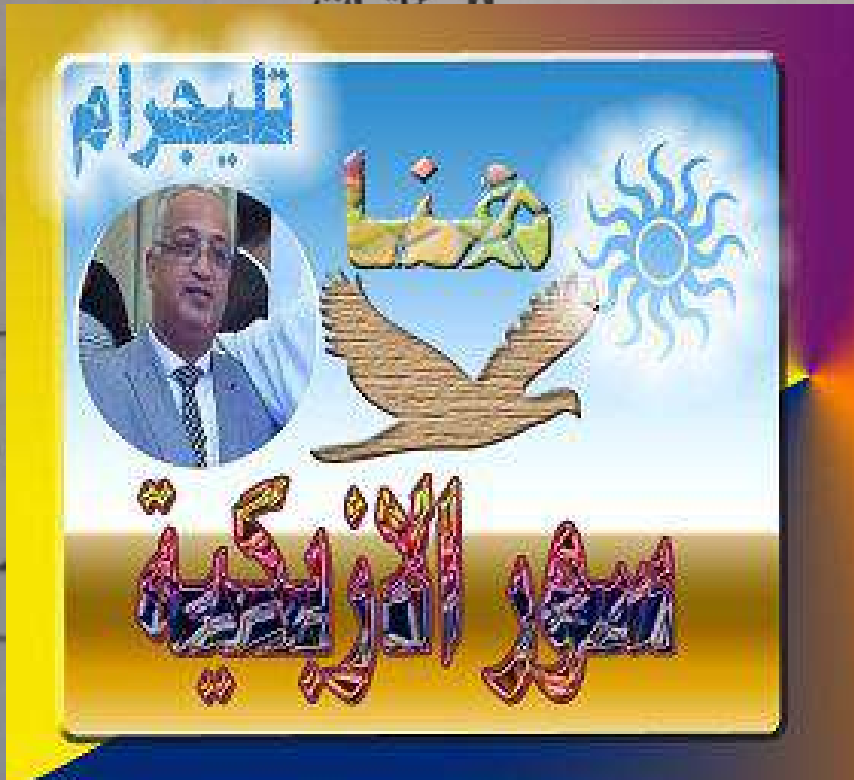
رئيس التحرير : طاهر الطناحي

العدد ١٠٤ جماد أول ١٣٧٩ - نوفمبر ١٩٥٩

No. 104 — November 1959

مركز الإدارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب
(المبتديان سابقا) القاهرة



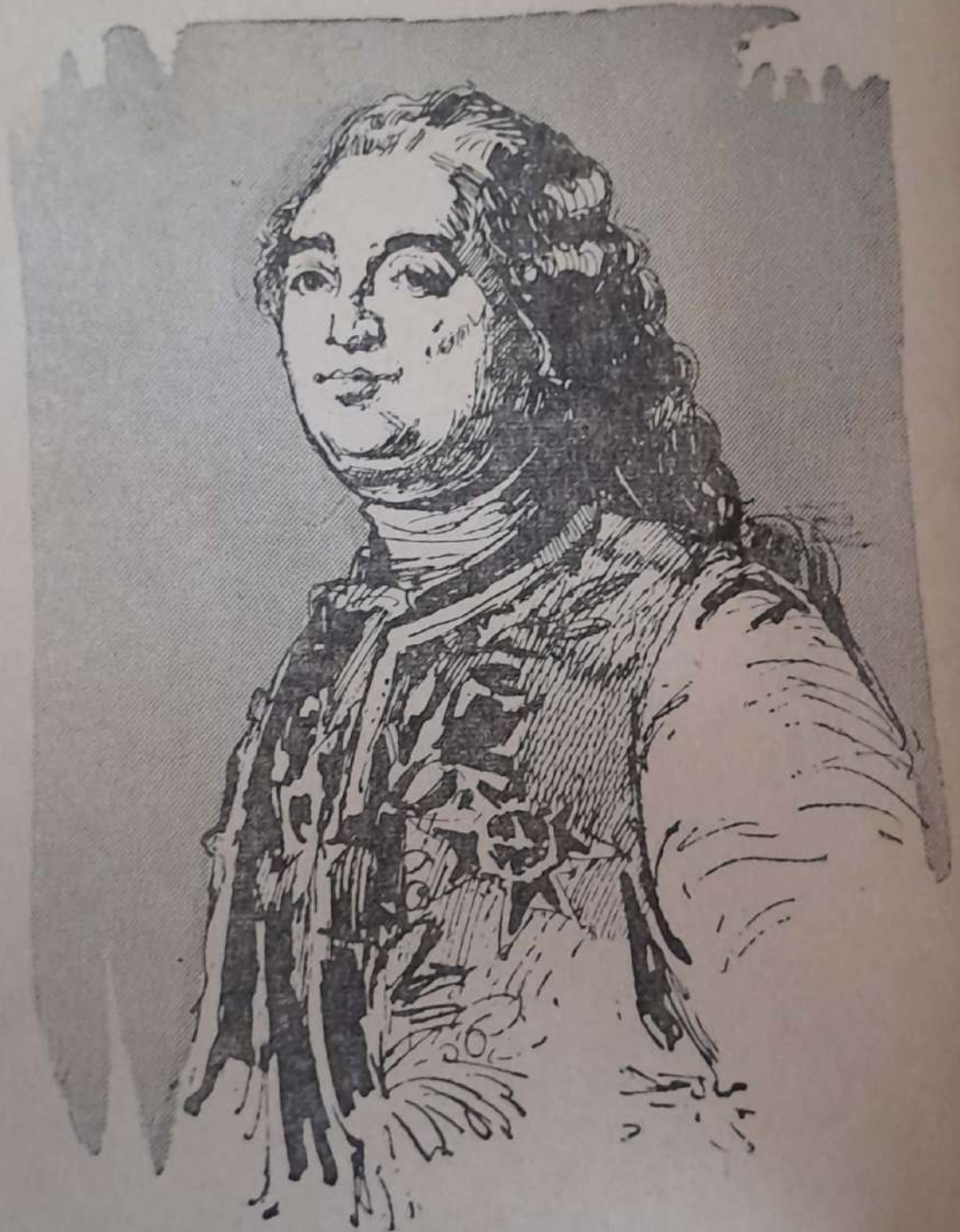
الملک والثوار

فـعـرـبـة

بـقـلـم

فـتـحـیـ ضـوـان

هـقـوـق الطـبـع مـحـفـوظـة لـدار الـمـلـک



لويس السادس عشر



ماری آنطوانیت

الفصل الأول

نحن الآن فى شهر يونية من سنة ١٧٩١
واذا أردت الدقة ، فنحن فى الرابع والعشرين من ذلك الشهر
من تلك السنة

ولكن المشهد الذى سنستفتح به قصتنا ، لا وجود به الزمان
الا نادرا ، فلا شأن له بالساعات ، ولا بالايام ، ولا بالشهور
والسنين . انه مشهد لا تدبره الطبيعة التى حولنا ، من شمس
تقترب من كوكبنا ، فتجعل جونا صيفا ، وتبتعد فتجعله شتاء
وتعتدل ، فلا تبعد كثيرا ، ولا تدنو دنوا كبيرا ، فيكون هذان
الموسمان الجميلان : الربيع والخريف . انه مشهد لا شأن
له كذلك بالكواكب والاقمار والنجوم ولا بالرياح والزوابع
والعواصف ، الا أن تكون رياح وزوابع وعواصف النفوس ،
التى فيها مثل نار الجحيم ، ومثل نسيم الصباح ، والتى تخرج
من اعماقها زلازل وبراكين ، تطوى الناس ، ودور الناس ،
كما لا تطويهم زلازل الارض وبراكينها

المشهد الذى نفتح أعيننا عليه فى هذه القصة ، بطلاه ملك
وملكة ، وذوومما من النساء والاطفال ..

ولكن الملك هنا ، لا يبدو لنا فى حلق الملوك الزاهية ، ولا يخرج حاملا صولجانهم ، بل يظهر كفار مذعور ، وان كان جسمه فى حجم الفيل . والحق أنه كان ضخما مترهلا ، طيبا طيبة الفيل ، ينظر فى الفضاء نظرات الفيل الطويلة العميقة التى يشوبها حزن ، لا تدرى سره

ولا أطيل عليك ، فالملك هو لويس السادس عشر الذى تعرفه ، لطول ما قرأت عنه من سير واخبار ، ومن فصول وكتب . وهو فى هذا المشهد النادر ، فار من الملك ، ومن العرش ، ومن عاصمة الحكم الى قرية على حدود بلاده ، هى « فارن » ، ولكنه لسوء طالع له لم يحسن تدبير الفرار ، فألقى القبض عليه ، وجيء به الى عاصمة الملك التى فر منها والى البلاد التى حكمها ، ثم أراد أن ينجو بجلده من شعبها .

وكانت الى جواره فى المحنة كلها زوجته مارى انطوانيت هذه الفاتنة ، صغيرة الجسم ، رشيقة الخطوة ، حتى ساعة حم القضاء ، وطلب الجلاد رأسها ، وانتظر الناس موتها ، فقد قفزت على درجات المقصلة ، فى حركة خفيفة ، لا تكاد تلمحها العين ورأسها مرفوع ، وشفاتها مطبقتان ، ونظرت الى الجمهور الحاشد الضخم ، الذى اجتمع ليرى خاتمة سلطانها ومجدها وحياتها ، ثم أسلمت رأسها الى القطع ، وكانما تأتى عملا ملكيا

كانت ساحرة تفيض على من حولها ، وما حولها ، حياة دافقة ، وتلهم الشباب والشيوخ احساسا بالحب ، حتى

ليحسبها كل من يدنو منها ، أنها تدعوه اليها ، وأنها منه
أقرب من حبل الوريد ، فقد كان حسنهما ولطفها يوهمان بأنها فى
متناول كل من له يد ، وفى قلبه عاطفة ، وعلى شفثيه كلام
كانت الملكة متألقة برغم تعبها ، مستعدة أن تتكلم لولا
صرامة الموقف ، ومرارة الخيبة ، والوحشة التى تفصلها عن
الذين جمعتهم ظروف المسرحية بها فى عربة واحدة ٠٠ فقد
كانت قمة الارستقراطية ، عدوة الثورة والتطور والشعب ،
وكانوا قمة الديمقراطية والثورية والتطور ٠٠ كانوا ممثلى
الشعب ٠٠ السيدان برناف وبثيون

كيف اجتمع هؤلاء ؟

لا تعجل ٠٠ !

انه اجتماع طريف حقا ، ولكنه لم يكن مقصورا على هؤلاء ،
وحدهم ، كانت هناك شقيقة الملك ، مدام اليزابث ، وكانت
هناك وصيفة الملكة مدام « توريز » ثم كانت ابنة الملك وأخيرا
كان هناك طفل صغير فى السادسة ، هو ولى العهد الذى
كان أبوه يرجو أن يجلس من بعده على العرش ، وكانت أمه
تنظر اليه كما ينظر من غرس شجرة ، وجلس الى جوارها ،
يرقب نموها ، وينتظر أن تؤتى أكلها ، ليبنى منها الكثير

كان الملك ، زوجها ، بعيدا عنها ، منذ اللحظة الاولى ، فقد
كان يقابل التهابها ، وتدفقها ، واقبالها على الحياة ، وفرحها
بها ، وشغفها بمفاتها ، بجمود وبرود وطيبة ، وثقل فى
الحركة ، وتواضع فى الذوق ، وفى المطامع

ولعلها كانت تذكر فى تلك اللحظة ، كيف تركت بلادها
فى النمسا ، وتركت أمها ماريا تريزا فى فيينا ، لتزف الى
ولى عهد فرنسا . فقابلها رجلها فاترا ، مرتبكا ، خجسولا
واستقبلها لويس الخامس عشر جد ولى العهد وكان شيخا
مفتوح الذراعين ، ضاحكا ، تتدفق الدعابات من فمه . ولما
جلس ثلاثتهم فى العربة الملكية ، وكانت جلستها بين الشاب
والشيخ ، كاد الشاب يسلم أجفانه للنوم ، ولم يضع الشيخ
الفرصة ، فقد أخذ يداعبها ، ولم يبق الا القليل ، ليغازلها
لولا أن الرحلة انتهت . . ومع ذلك فقد أحست فى اللمسات
القليلة التى أتاحتها تلك الرحلة من الحدود الى العاصمة ،
بحرارة يد الشيخ ، جد زوجها ، وبحرارة أنفاسه ، بقدر ما
أحست ببرودة يد الشاب ، وبرودة أنفاسه

ما أعجب التاريخ !

انه حقا يعيد نفسه ولو أنه يتغير ويتبدل ولا يبقى أبدا
على حال . . فهى الآن فى رحلة مشابهة ، ورحلة من الحدود
أيضا ، ورحلة تلتصق كتفاها فيها بكتفى زوجها ، وهو أيضا
كما كان منذ أكثر من عشرين عاما ، بعيدا عنها ، بروحه وعقله
مع أنه لا فاصل بينهما من مادة

وقد كانت رحلتها الاولى حاسمة فى حياتها ، اذ نقلتها من
حياة لاهوم فيها ولا أثقال ، الى حياة كلها تكاليف وأعباء .
نقلتها من أمها وعشيرتها الى شعب يكرهها ويعدّها
أجنبية وعدوة ، ومسئولة عن فساد الامر فيه . . ولكنها

حينما جاءت الى فرنسا ، لم يكن شيء من هذا كله قد حدث
ولم تكن الاستار قد رفعت ، والحجب عن بصيرتها قد
انحسرت

ولكنها الآن عرفت كل شيء وخبرت كل الناس ، فذاقت
لذائد السلطان المسكرة ، ومتع السيادة المترعة ، وأمرت ،
وحكمت ، وأقصت وأدنت ، ودان لها الناس بالطاعة ، وتمردوا
على حكمها ، وأحبوها وكرهوها ، وناققوها وأخلصوا لها
وتأمرؤا معها ، واثتمروا بها ، فتعلمت بقدر ما تعذبت ،
واحتملت من المهانات بقدر ما اتسع سلطانها وامتد
نفوذها

لقد سبحت بخيالها وسرحت طويلا ٠٠ ولكن كان لابد من
العودة الى الارض ، فقد كانت فى عربة ، وان كانت فاخرة ،
الا أنها كانت ضيقة ، شئت أو لم تشأ ٠٠ ولم تكن مع
زوجها وابنها وشقيقة زوجها ووصيفتها وحدهم ٠٠ بل كان
معهم ايضا السيدان بشيون وبرناف

أف لهما وللثورة التى يمثلانها ٠٠

ماذا تريد هذه الثورة ؟ وماذا يريد هذان الشابان اللذان
ينظران اليها فى تعال وقرف كأنما ينظران الى حشرة ؟ ...
وهى بدورها لاتكاد تقوى على كتمان الضحك على زيهما ،
وجلافة أسلوبهما ، والارتباك الذى يحاولان اخفائه عبثا ...
انهما مرتبكان خجولان ، يريدان أن يقولوا أن الملكة لا تهمةما
حقا ، الملكة لا تهمةما ٠٠ ؟

قد تكون الملكة بتاجها وصولجانها ، لا تسبب ارتباكاً
لشابين .. ولكن مارى انطوانيت المرأة ، بهذا الظرف الذى
أسبغته الطبيعة ثم صقلته الصناعة ، هل يمكن أن تمر على
شاب ، دون أن تحرك فى بحر حياته دوائر من موجات
الانفعال ؟ أشك ... أما الملكة المرأة ، فقد قطعت لنفسها ، فى
همها وغمها ، فى أحزانها ومخاوفها بان ذلك مستحيل ...
انه حكم الطبيعة القديم ، قضت به يوم خلقت حواء من ضلع
آدم ، فاصبحت أقرب ما تكون اليه ، وأشهى ما تكون عنده
ولكن من قوانين الطبيعة أيضاً أن يغلف الناس ، وان
تغلف الاشياء حقائقها الباطنة بمظاهر .. فليس فى الثمار
التي نأكلها ثمرة واحدة ظاهرة كباطنها فلكل ثمرة غلاف
يقيها عوادي الطبيعة ، وأغلب هذه الاغلفة ، سميك غليظ
خشن ، مع أن باطنها خفيف ، لطيف ، طرى وشهى .. وما
صنعتة الطبيعة مع الفواكه والثمار ، صنعتة مع أبناء آدم ،
وبنات حواء .. لابد من قناع يخفى نفوسنا ، ليحمينا من
عوادي الطبيعة والمجتمع معا

أشاحت الملكة بوجهها ، وجمد الملك فى مكانه كأن الامر
لا يعنيه ، وأغمضت شقيقة الملك ووصيفة الملكة أعينهما ،
لتوفرا على أنفسهما متاعب النظر الى هذين الرقيبين الثقيلين
برناف وبثيون

أما الطفل ولى العهد ، فهو ثمرة من ثمار الانسانية لم
يتكون لها غلاف بعد .. ولا شأن له بما يتظاهر به أبوه ،

وتتظاهر به أمه ..

ما هي الملكية وما هي الثورة ؟ لماذا هو (ولى عهد) يطأطئ
الناس له رؤوسهم ولماذا يقبلون يديه ، ويحترمون ارادة والديه؟
.. ولماذا يفر الى الحدود ، ولماذا يعود الآن ؟ ومن هذان
السيدان ؟ ولماذا يسكت الناس فى العربة ولا يتكلمون ؟ بل
لماذا تكأكات الجماهير فى « فارن » وكادت تفتك بهم ؟ ما هذا
كله ؟ .. أمور يحاول أن يفهمها ، فيفهم بعضها ، ويخطئ
فى فهم أكثرها .. ثم اذا فهم شيئا يوما نسيه يوما آخر ،
فلم يبق عنده الا أن الشعب يكرهه .. والشعب هذا ماذا
يكون ؟

أهو مخلوق يرى ويسمع ؟

فاذا كان كذلك ، فلماذا لم يره حتى اليوم ، ولم يسمعه
حتى اللحظة ؟ .. ثم أين يسكن ؟ وأخيرا لماذا يكره الشعب
أمه وأباه ؟ ولماذا يجب أن يكرهه هو أيضا وهو لم يسئ اليه
ولم يجتمع به ؟ ..

ولكن فى « فارن » رأى أناسا قليل له أنهم الشعب . وهم
الذين أعادوه الى بلاده ، وهم الذين ألزموه أن يركب هذه
العربة مع هذين السيدين

ايكون هؤلاء العمال والفلاحون ، الغاضبون الثائرون ،
الذين يحملون المدى والعصى ، وأحيانا البنادق والخناجير
والسيوف ، هم الشعب ؟

هم اذن كذبوا عليه ، فليس هؤلاء هم الشعب ، بل أنهم

اناس من الفقراء ، تبدو عليهم آثار ضنك شديد ، وبؤس
طاحن ، وعلل كثيرة . انهم يصرخون حقا ، ولكن مع قسوة
اصواتهم ، وعظم حناجرهم ، يكاد بعضهم يسقط اعياء من فرط
الجوع . . . انهم حقيقة أخافوه ، حتى لقد كرههم ، ولكن
لم يصدق أنهم الشعب ، لانهم فى حقيقة الامر آدميون ،
وفرنسيون . كان يرى بعضهم أحيانا عن بعد ، حينما كان
يذهب الى الريف ، ولم يقل أحد فى تلك الايام أنهم الشعب
ولا أنهم مكروهون ، أو أعداء ، أو خطرون

فمن ذا الذى سيكشف له عن كل هذه المعميات الغامضة ؟..
ان أباه على طبيته ووداعته وطول باله واتساع صدره ، لا
ينشط كثيرا للرد على أسئلته الكثيرة ، وهو ان اجاب ،
أجاب بما يزيد الامر غموضا ، فهو لا يقول أبدا كلاما كاملا
. . بل كل كلامه قصير ، مقتضب ، ولكنه مع ذلك يرتاح
له حين يسأله ، ويرتاح اليه حين يجيب عليه
أما أمه ، فأمر آخر

ان عينيها تلمعان فرحا حينما يدير وجهه اليها . وهو لا
يكاد يكمل جملة ، حتى تمسك وجهه الصغير بيديها اللتين
تفوح منهما دائما عطور جميلة ، مسكرة ، فان امسكت يديه
بيديها انتقلت رائحة العطور اليهما ، والتصقت بهما ، فاخذ
يقبلهما بعد أن تدعه أمه ، لا لانها عطور جميلة فحسب ، بل
لانها رائحة أمه التى يحبها حبا جما
ومع ذلك فان الحديث معها لا يطول ، لان صبرها ينفد

سريعا .. حقا انها تجيبه على كل اسئلته ، فى الفاظ تملأ
اذنيه بعبارات الحب له ، والاعجاب به ، حتى ليود ان يدير
وجهها بيديه ، ويقبلها ويقبلها ويقبلها .. ولكنه ابن ملك ، كما
افهموه منذ عرف الكلام ، ومعنى ذلك ، ان عواطفه لا تملك
الحرية فى أن تعبر عن نفسها ، كما يفعل ابناء الشعب ..
الشعب مرة أخرى ! ..

وسأل لماذا يحق لابناء الشعب ان يعبروا عن عواطفهم كما
يريدون ، وحين يريدون ، ولا يحق لابن الملك أن يفعل فعلهم ؟ .
ذلك لانهم شعب ، وهو ملك

ماهو الشعب ؟ .. ما هو الملك ؟

لم يجب عليه أحد حتى أمه التى كان يأنس لها ، والتى
تلتصع عيناها حينما تتكلم معه ، ولكنها حينما تجيب ، تجيب
فى جمل سريعة وان كانت واضحة ، قصيرة وان كانت بسيطة ،
فيشعر انه فهم ، أو انه يجب ألا يفهم لانه صغير حيناً ، ولانه
ابن ملك حيناً ، ولان السؤال أبدي امام أجانب لا يجوز أن يسأل
امامهم ، او لانه سأل قبل اليوم نفس السؤال ، ان كان قد نسى
يجب عليه أن يتذكر ، لان الملوك اذا فقدوا ذاكرتهم ، فقدوا
عروشهم أحيانا ، وفقدوا رؤوسهم أحيانا أخرى

الامر على كل حال صعب ، وليس بالسهولة التى كان يظنها
عندما بدأ حياته ، وبدأ يعرف الذين حوله ، ويعرف كيف
يتكلم ، ويعرف ماذا يقولون

اما هذه اللحظة القاتمة الصامتة ، التى حشر فيها الى

عربة ، استضافت على الرغم من أمه وأبيه ، ضيفين لا يعرفهما ،
وان كان يحس بأن لهما صلة ما بهذا المجهول المخيف الذي
يسمى « الشعب » .. أما هذه اللحظة ، فيبدو أنها لا تصلح
في كثير أو قليل للسؤال عن أى شيء ... فالصمت المطبق هو
الشيء السائد في هذه العربة

ومع ذلك اذا كان الكلام غير ممكن ، فلا أقل من ان ينظر
ويتأمل

أما أمه التي يحبها أعظم الحب ، فهو يعرفها ، فلا حاجة به
الى التأمل فيها .. وأبوه واضح وبسيط ، حتى في هذه
اللحظات الغريبة ، فلا نفع من التأمل في وجهه وجسمه ، اما
وصيفة الملكة ، فهي متعالية حتى عليه ، شديدة حتى معه ،
وهو يكره ان يدخل في نطاق نفوذها ، فالخير كل الخير ان
يبعد عنها .. وينجو منها -

اذن ، وبالاختصار ، الشيء الجديد في العربة ، هو وجود
الشعب معه ، ممثلا في هذين السيدين الشابين ، برناف وبثيون
.. فهي فرصة لن تعوض .. متى سىرى مرة أخرى اثنين
ينتسبان الى الشعب قريبين منه هذا القرب ، بل ومحشورين
معه في مكان واحد ، مكان ضيق غاية الضيق

انها فرصة ثمينة ، وعليه أن ينتفع منها حالا .. وبغريزة
الطفل ، وحيويته ونشاطه ، وبحرارة الطفل وبساطته
واخلاصه ، بدأ الاحتكاك بين طفل ملكى ونائبين من الشعب ..

عجبا .. !

انهما آدميان تماما .. ليس فيهما شيء يخالف ما عرفناه

من الآدميين الذين لا ينتسبون الى الشعب ، ولا يمثلونه ..
انوف عادية ، وأصابع طبيعية ، وقامة لا عوج فيها ولا طول فيها
وبطون لا نتوء يعيبها ، وأصوات لا تصك الاذن ، ولا يتطاير
لها شرر

كانت تلك هى النظرة الاولى

اما النظرة الثانية فكانت نتیجتها أعجب .. !

السيد برناف جميل .. جميل الطلعة .. وهو يتسم ..
وكان من حين الى حين ينظر الى زميله بشيون ، ثم يتبادل كلمات
قلائل معه ، ولكنها تنطق مع ذلك بصوت هادىء .. هل
يستطيع أن يقول لنفسه (لنفسه وحده) أن صوته مثلاً أجمل من
صوت ابيه شخصياً .. لا .. ان ذلك محرم .. وفى هذه
اللحظة ينظر الى امه سريعاً ليرى هل لا حظت أنه فكر فى هذا
الجرم الكبير .. ولم يلاحظ على وجه أمه شيئاً .. انها
لا تزال ترفع وجهها فى ترفع ، متحامية النظر الى شىء أو الى
أحد فى العربة ، وشفتاها مطبقتان فى حزمها الذى عرفت به
حينما تفضب ، أو حينما يعارض أراذتها معارض ، فتبدو
مخيفة ، مع أنها خلقت لتحب ، وخلقت لتضحك
وتلهو .. على الأقل هذا ما كان يفهمه بعقله الصغير ، فهى
اذن فى حالة من حالات الحزم ، فالأولى به ان يشتغل بنفسه
.. ولكنه لم يستطع

فقد تلاقت عيناه بعينى السيد برناف ، يالهول ما حدث .. !

انهما عيناان كبيرتان متسعاً الاحداق ، تفيضان حباً ،

ولهما بريق ، يشبه بريق عيني شخص آخر

من .. من .. ياترى ؟

انها احوال فوق احوال

انه بريق كبريق عيني أمه .. !

كيف يمكن أن يكون ذلك ، وأمه ملكة ، وهذا من الشعب ؟

ولكن هذا ما رآه ، وهذا ما أحسه .. قد يكون مخطئا ..

ولكنه الحق في رأيه

وبعد ان نظر الى الطريق مرة ، ومرة ، عاد ينظر الى الناحية

التي يجلس فيها السيد برناف ، فرأى العينين ، نفس العينين ،

وهما تسلطان عليه بريقا أخاذا ٠٠٠ انهما تضحكان ، انهما

تدعوانه الى أن يقترب ، وان يتكلم ، وان يسأل

والحق أنه يريد ان يقترب ، وان يتكلم ، وان يسأل ..

صحيح انه ابن ملك ، ولكن الاصح أن الرحلة طويلة ، والعربة

ضيقة ، والصمت لم يخلق ليفرض على الاطفال . وأصح من

هذا كله ، أن السيد برناف وبشيون ليسا كريهين الى الحد

الذي يريد جو العربة ان يقوله ، ولو أن جو العربة لا يقول

شيئا ، ولكنه يوحى بأشياء أوضح من الكلام

وبغريزة الطفل ، فهم أن الخطوة التي سيخطوها نحو السيد

« برناف » خطيرة جدا ، وانه لا يدرى عواقبها ، فقرر أن

يتحاشى النظر الى عينييه ، وان ينظر الى شيء آخر

ماذا في العربة يمكن النظر اليه دون التعرض لمخاطر جسيمة

كمخاطر الاقتراب من « الشعب » والتحدث اليه ، والتحدث

أدار الطفل عينيه هنا وهناك ، ووقع بصره على شيء طريف ..
على شارة صغيرة في عروة السيد « برناف » ، شارة يبدو
انها جميلة .. انها جميلة فعلا ، لقد أدرك ذلك من النظرة
الثانية ، وتأكد هذا النظر في المرة الثالثة

آه لو استطاع ان يمد يده فينتزعها ، يعنى يأخذها ، ويقلبها
بين يديه ، ثم يضعها في عروته كما يفعل السيد « برناف »
.. لكن لا بد ان يكون في جو هذه العربة شيء كالسحر ، فان
أصابع السيد « برناف » امتدت الى هذه الشارة ذاتها .. هاهى
ذى أصابعه تعبت بها ، فى خفة ، ثم هاهى ذى تنزلق من فوقها
وذهن السيد ممثل الشعب شارد ، ينظر الى الخارج كأنما
لا يحس بالطفل ، ولا برغبات الطفل ، فارتفاع أصابعه الى
الشارة اذن ، كان عفوا ، ولكنه زاد من اغراء هذه الشارة ،
وزاد من جمالها فى عينى ولى العهد .. ولكنه صمت ، لانه
كان يعلم جيدا ، ان المكان والزمان لا يسمحان أبدا بتحقيق
رغبات خطيرة كهذه الرغبات

ولم يمض وقت طويل ، حتى حدث فى العربة شيء خطير فى
نظر الطفل المسكين ، فان السيد « بشيون » سعل ، ثم عطس ،
وأخرج من جيبه منديلا مسح به أنفه ، كما يفعل هو وكما
يفعل أبوه ، وعندما انتهى من ذلك كله ، تبادل هو و « برناف »
كلمة صغيرة ، ولكنها أضحكت الاثنين

ترى ماذا كانت هذه الكلمة ؟ ولماذا أضحكتهما ؟ ولماذا لم

يستطع أن يسمعها ؟ . ولماذا يتكلمان همسا ؟
احاج فوق احاج .. وهو بينها جميعا ، حائر ومتعب ..
ولكنه مع ذلك لن ينظر مرة أخرى الى وجه السيد « برناف » ،
لانه كلما نظر إليه زاد حبا له ، واذا تحاشى النظر اليه ،
وقعت عيناه على الرغم منه فوق هذه الشارة الخاطفة للابصار
ببريقها الساطع ، وزادت رغبته فيها ، حتى ليحس بأن يده
تمتد من حيث لا يدري ، اليها
يالها من لحظات مؤلمة ..
وزاد من عذابه ، أمر آخر لم يدر كيف يخلص منه



الفصل الثاني

لو علم الطفل الصغير الذي أعد رأسه ليحمل التاج ، ماذا
في رأس والدته الملكة ، لادرك كم ظلمها ... فلم تكن الملكة
مطبقة الشفتين ، متعالية ، وبعيدة عن العربية ، ومن في العربية ،
لاحتقارها رفقاء الطريق فقط ، بل لأنها كانت فوق ذلك تعيد
في رأسها كل ما تعلق بأعداد هذه الرحلة الفاشلة التعسة ..
وفي تأملاتها حزنت أبلغ الحزن ، لأنها لم تكن لها عقلية بنت من
بنات الشعب ، فلقد دبرت الرحلة وفكرت فيها ، بعقل ملكة ،
وفكر لها أصدقاءها معها ، بعقول ملكية أيضا .. ولكن الرحلة
لم تكن انتقالا من حجرة الى حجرة في قصر ملكي ، ولم تكن
انتقالا من قصر الى قصر ، بل كانت فرارا من قصر التويلري ،
الى خارج فرنسا كلها ، فكان من المحتم ان تخترق احشاء
الريف الفرنسي ، وأن تمر بقراه ، وان تلتقي على طول الطريق
بأبناء الشعب .. وكان هذا اللقاء يحتاج الى عقلية شعبية
وانى لها هذه العقلية .. ؟

لقد تذكرت كيف دبر « فرسن » الكونت السويدي ، الذي
احبها اخلص الحب ، هذا الفرار فبذل فيه ماله ووقته ،
وواجه الموت ، فلم يبخل حتى بحياته .. ولكن كان هذا كله

عينا .. فقد كان يفكر في هذا كله ، بعقلية النبلاء الاشراف ،
وكانت الموجة العالية هي موجة الشعب ، فلم يحسن السباحة
في هذا البحر الجديد عليه ، فأغرقها .. لقد اختار للرحلة
عربة فاخرة ، وملاها بفاخر الاطعمة والاشربة ، واعد ادوات
من فضة ، حتى لقضاء حوائج البدن

وكانت هذه العربة بتلك الضخامة تحتاج الى ثمانية جياد
او اثني عشر جوادا ، لجرها ، وكان تغيير هذه الجياد في محطات
الانتقال ، يقتضى وقتا أطول ، وكانت بعد ذلك أبطأ من عربة
خفيفة يجرها جوادان ، ولا تتسع الا لثلاثة أو أربعة أشخاص
ولكن كيف يمكن لعقل أرسطو قراطى ، أن يسمح للملكة فرنسا ونافار
ولملكها ، وللأسرة الملكية ، أن تفر في عربة عادية صغيرة .. !
وقد قضت نفس العقلية ، أن تسافر الاسرة المالكة كلها في
عربة واحدة ، فلم يكن كافيا أن يجتمع الملك والملكة ، وولدهما
وابنتهما في العربة ، فقد ابت المربية « مدام توريز » الا أن
تحافظ على العهد الذى قطعتة على نفسها ، من الا يغيب ولي
العهد واخوته ، عن عينيها لحظة ما دامت على قيد الحياة ..
واحتراما للقسم ونزولا على مقتضى العهد ، أصبحت المربية
عضوا في الجماعة التى ركبت العربة ، ولما كان من غير المعقول
أن تخلع الملكة بيدها ثيابها ، وتبدلها بغيرها دون مساعدة ، كان
لا بد من أن يكون ضمن الهاربين الوصيصة التى قامت بهذه
المهمة منذ جاءت الملكة الى فرنسا ، شابة صغيرة فى الثامنة
عشرة من عمرها

ذكرت الملكة في عربتها ، وهى عائدة الى باريس ، مجللة بالعار
والحبيبة ومفعمة بالتعاسة والحزن ، هذه الاخطا . فهزت
راسها ، ومرت على شفيتها ابتسامة باهتة ، لا يكاد يلمحها
الانسان ، حتى لو اطال النظر اليها

ومع ذلك لم تكن هذه هى الاخطاء كلها ، فان الكونت «فرسن»
ابى عليه حبه ، الا ان يحيطها وهى فى رحلة الفرار بكل ما من
شأنه أن يشى بشخصيتها او يكاد ، فان «السياس» الذين
يجلسون الى جوار السائق ، والسائق نفسه ، لم يخترهم
«فرسن» ممن يحسنون هذه الصنعة ، ويعرفون الطريق ،
بل اختارهم من الاشخاص الذين يثق بهم ، مع أنهم من أكثر
الناس جهلا بالطريق الى «فارن» ، واختار لهم حللا زاهية ،
براقة جديدة تلفت النظر .. لم يكن منهم السائق المحترف ،
ولا السائس المجرب ، بل كانوا فرسانا من حرس الملك ..
ان الحب والسياسة لا يجتمعان .. ان أحدهما يبطل عمل
الآخر ، فكل منهما كثير المطامع ، غيور ، لا يطيق له زميلا او
منافسا

لقد كان الكونت «فرسن» مشغولا بشخص الملكة ، وكانت
رحلة فرارها فى رايه ، فرصة يعبر بها عن حبه ، فكيف يتصور
اذن ان تتم الرحلة دون ان يحسب حساب الملابس التى
سترتديها الملكة ، عند وصولها الى غايتها .. فلا بد من شحن
عربة ثانية ، بصناديق ملائى بالملابس الفاخرة لها ولزوجها
ولما كان من المتفق عليه ان يلتقى جنود الجنرال «بواييه»

وهو من القواد الذين بقوا على ولائهم للملكة ، في نقط معينة
فى الطريق ، بالعربة التى تضم العائلة المالكة ، ليكونوا لها حماية
من غضب الشعب ، اذا ما فطن الى شخصية الفارين .. ولذلك
كان من الواجب أن تسير العربة فى الموعد المحدد ، ليلتقى بها
الجنود ، ولكن تأخر قيام العربة من باريس ، لاحتياطات رآها
العاشق المتفانى لازمة فى اللحظة الأخيرة ، مضافا الى التأخر
الناجم عن كثرة جياد العربة ، وطول الوقت اللازم لاستبدال
تلك الجياد بغيرها .. فطال بذلك انتظار جنود الجنرال
«بواييه» حتى أصبح ظهورهم محلا للتساؤل ، ومثارا للشبهة،
وكانت الحجة التى تدرع بها الجنرال انهم فى انتظار عربة تحمل
نقودا حكومية ، ليتولوا حراستها : أية نقود هذه التى تتجه
من العاصمة شرقا الى الحدود ؟ ! وأية نقود هذه التى تحملها
عربة يكاد يكون كل ما فيها ملكيا ؟ اذا استثنينا شارة الملكية
التي توضع على عربات القصور !

لذلك كان لابد ان يصرف القائد جنوده ، ليسرحوا فى القرى
ويمرحوا ساعة أو ساعات ، حتى يجمعهم عند اللحظة المناسبة،
فاختلط هؤلاء بأهل الريف ، وشربوا معهم وسكروا وتآلفوا مع
أبناء الشعب ، فكادوا يفقدون صفاتهم الملكية ، وولاءهم للملكى
وعادت الابتسامة الباهتة الى شفتى الملكة .. فقد نظرت
الى زوجها ، وتأملت وجهه طويلا ، فلم تر عليه أية من آيسان
الضيق ، ولا علامة من علامات الانزعاج . ولو نظر الى وجهه
فى المرآة لراى نفسه فى ثياب « كبير الخدم » فى احد قصور

النبلاء . فقد وضع على رأسه شعرا مستعارا رخيصا ، مما
يلبسه كبار الخدم ، ولبس حلة جديدة من حللهم ، وهو حفيد
الملك الشمس ، الذى كان يتساءل مستنكرا « الدولة ؟ الدولة ؟
انا . . ! » ، ولكن هذا الملك كان يقول ايضا « بعدى الطوفان » ،
كان قلبه كان يحدثه بما سيكون ، فقد جاء بعده الطوفان حقا ،
وتحققت النبوءة ، وها هو ذا حفيده الضخم يطفو
فوق سطحه الهائج المائج ، كجيفة حيوان ثقيل . ثم نظرت
الملكة الى ثيابها هى ، فرأت نفسها ، فى رداء وصيفة ، وكانت
الوصيفة الحقيقية فى ثياب بارونة ، اختاروا لها اسما مستعارا
هو « البارونة دى كورف »

يا لها من مساخر ، لم تسفر عن خير ، ولم تفض الا الى
الخبية . . !

ابتسمت الملكة فى حزن عميق ثقيل ، وهى تنظر الى اعضاء
الاسرة المالكة ، وقد ارتدوا هذه الثياب ، وكأنما يمثلون مسرحية
« فودفيليه » ، لو أن مؤلفا مسرحيا جرؤ على كتابتها ، لاتهمه
الناس بالمبالغة فى التصوير ، والاسراف فى التطرح مع الخيال
وهى نفسها ، لو قيل لها أنها ستلبس ثوب وصيفة ، وأن
زوجها سيلبس ثوب خادم ، وأن ابنها ولى العهد سيلبس ثوب
فتاة ، لاستفرقت فى ضحك عميق

ولكن فات اوان الضحك ، انها فى هذه الثياب ، لا لتنجو من
الموت ، والمهانة ، وضياع السلطان ، والعيش فى خوف دائم . .
لا . انها فى هذه الثياب ، لتواجه مالا تستطيع التنبؤ به من مخاطر

اخرى
مستقبل مجهول !

وفيما هي تدير هذه المخاطر في رأسها ، وكأنها خيول تركض
في ساحة ضيقة ، فتلهبها بحوافرها ، التقت عينها بعيني هذا
الشاب الذي يجلس بينها وبين الملك ، « برناف » ! انهما عينا
عجيبتان ! هل تستطيع أن تقول انهما عينا بريئتان .. ؟ انها
موشكة أن تقول ذلك .. ولكن هل يحق لها ، هي ملكة فرنسا
ونافار ، وابنة ماريا تريزا ، امبراطورة النمسا ، وشقيقة
الامبراطور ليوبولد ، قمة الارستقراطية ، وعنوان الفلسفة
التي تقول بأن الملوك يرثون العروش من الله خالق الخلق ،
ومبدع السموات والارض ، ليكونوا ظله ، ولينفذوا حكمه ،
ولينشروا بين الناس عدله .. أيقظ لها بعد هذا أن تقول عن
عيني جلف من أجلاف هذا الجنون الطارئ ، الذي أصاب
فرنسا ، والذي يسمى ثورة : عينا بريئتان ، وجميلتان
ومتوددتان ، وداعيتان الى الحديث الوداع الهادي !

بعدا لذلك الخاطر ، وسحقا لاعصابها التي بدأت تخونها ،
وهي التي عرفت عن نفسها طوال هذه المحنة ، التجلد والثبات ،
والمحافظة على مظهر الملكية العتيد

لقد نظرت الى الحقول ، التي تمتد الى غير غاية ، من خلال
النافذة الزجاجية ، حتى لا تدع لهذا الضعف سبيلا الى نفسها ،
وقالت هامسة : مستحيل ! نعم مستحيل ان انظر الى هذين
الوغدين ، الا بالصفة التي تناسبهما .. انهما مجرد ثورين

لا يساويان المقعدين اللذين غطتهما القטיפه الحريرية البيضاء
واللذين يجلسان عليهما فى العربيه

أما بشيون فكان يجلس بين شقيقه الملكة ووصيفه الملكة ،
أى بين سيدتين ، وكان العطر الذى يفوح منهما ، مع انه
اختلف بالعرق ، الا انه لم يفقد قوته ولا سحره ، انه عطر يدبر
الرؤوس ! وعندما كانت شقيقه الملك تخرج منديلا صغيرا
لتمسح به العرق المتصبب من فرط حرارة شمس شهر يونيه ،
كان يتطاير منه عطر نفاذ ، حتى كاد الثورى « بشيون » يمد يده
الى اليد التى تمسك بالمنديل .. ولكن حاشا .. ان هذه
المرأة ، ليست الا الملكية بكل ظلمها وآثامها .. ! ولكن مارى
انطوانيت كانت أمامه ، فكان فى وسعه ان يتأملها دون ان تحس ،
ودون ان يبذل جهدا .. !

وقد رأى شيئا عجبا .. انها حين تصمت ، ثم تحلق فى دنيا
خواطرها وأحلامها ، يسود وجهها هدوء وصفاء وذكاء . ولكن
أتكون هذه مجرد تصورات ؟ انه يعاود النظر اليها ، ثم يحرق
طويلا حتى ينسى نفسه ، فلا يرى شيئا غير الذى رأى . فان
نظره لا يقع على خط واحد من خطوط القسوة او الكبرياء او
الغباء . ومع ذلك فهو موقن تمام اليقين ، مؤمن اعظم الايمان ،
ان هذه السيدة هى رأس الشرور ، ومصدر كل ما حاق بالبلاد
من وبال

واستأنف « بشيون » تأمله فى هذا المخلوق الرقيق الدقيق ،
الذى هو الملكة ، فذكر كم كانت بارعة وذكية ، وكم كان جرس

صوتها حلوا واخاذا ، حينما استوقفوا عربتها ، ليركبوا معها
ومع زوجها ، تنفيذاً لامر الجمعية الوطنية ، ففتحت الباب
لهم ، وكأنهم اصدقاءها المقربون اليها وقالت : « ايها السادة !
أرجو أن تعيروا الامر اهتمامكم ، حتى لا تقع الكوارث على
رءوس الذين صاحبونا فى الرحلة ، فهم لا ذنب لهم »

انه رجاء ، ولكنه رجاء يقطر فى واقع الامر ، كبرياء ، فهى
لا ترجو لنفسها ولا لأولادها شيئاً ، وانما ترجو للصغار الذين
صاحبوها ، فهى بهذا تبدو انسانية ، يهملها مصير الضعاف ،
وهذا مسلك يمس شغاف قلب الثوار . ثم هى ترجو والرجاء
دائماً ، ولو كان مرفوضاً ، يقع من نفس الذى يوجه اليه ،
موقع الارتياح ، لانه يشعره بأنه صاحب أمر ، وأنه معقد أمل ،
وأنه أكبر ممن يرجوه

اذن لابد أن تكون هذه شيطانة ، أتقنت فنها أكبر اتقان ..
وفنّها هو فن خلب الالباب ، بحديثها ومظهرها ، وإدارة
الرءوس بصوتها وعبارتها ، والاقتراب من القلوب بلطفها
ورقتها !

وقطب « بشيون » حاجبيه ، وأشاح بوجهه ، ونظر الى
السيدتين اللتين تجاورانه .. فرأى أن شقيقة الملك قد بدا
التعب يظهر عليها ، وهى تحمل على حجرها ابنة الملك ، وبدت
بهذا احق بالشفقة عليها ، وأدعى الى الطمأنينة اليها . انها
على الاقل ، ليست فى ذكاء هذه النمرة الصغيرة الحجم ، التى
ودت ان تخدعه بما يظهر عليها من طلاء الطيبة ! الطيبة ، انه

ليكونن احمق الحمقى او صدق شيئاً من هذا

اما الطفلة ، ابنة الملك ، التي جلست على حجر عمتها ، فهي مخلوق لا يستوقف النظر ، أنها خجول ، لا تشبه أخاها في كثرة حركته ، ولا في تهيئته للكلام ، ولا في تعلق عينيه بكل ما هنالك .. انها لا تكاد ترفع عينيها من الارض ، وحين يشتد قلقها من هذا الحبس الضيق ، ومن حركة العربة الرتيبة ، ومن شدة حر شهر يونية ، تتساءل عن سر الصمت الذي طال بين سكان هذا الصندوق الجميل ، وعن سر حملها اليه في منتصف الليل في باريس ، وهي شبه نائمة ، دون أن تدري ماذا حدث ، حتى وانتزاعها من فراشها في قصر التويلري ، لتساق سوقاً في حدائق القصر ، في الليل البهيم ، وأما ترتدى ثوباً لم ترها في مثله طوال حياتها .. وكيف يجري كل من حولها متلفتين .. ؟ وتذكرت كيف وقفت فجأة وهي على أبواب قصر التويلري ، مختفية وراء عمود من أعمدة الحديقة ؟ ولماذا أحست أن أمها فزعت غاية الفزع ، كأنها حمامة صغيرة انقض عليها باشق ضخمة ، حينما مرت امامهم عربة تسبقها مشاعل .. لقد همست أمها في صوت خافت غاية الخفوت ، وكأنها تلفظ آخر أنفاسها في الوجود .. « لافاييت » !

اذن « لافاييت » كان هو صاحب هذه العربة .. وماذا كان يحدث لو أنه رأى أمها ، ورآها ؟ ان « لافاييت » ليس عدوها ولا عدو والديها ، فقد كان يحضر كل مساء بانتظام لزيارة أبيها الملك ، فلا يخرج قبل العاشرة .. انها فهمت بغريزتها

أن هذه الزيارة كان القصد منها التأكد من أن العصفور لا يزال
فى القفص .. أن الملك لم يفر من سجنه فى قصر التويلرى ،
بعد أن نقل من قصر فرساي . ولكن ما كانت تسمعه عن لافاييت
قائد الحرس الوطنى ، انه صديق غريب للملكة ، لانه أيضا
صديق لهذا الشئ الجديد الذى لم تكن تسمع عنه كثيرا من
قبل .. الشعب !

انها تعلم أن « لافاييت » لا يظهر حتى يصفق له الشعب ،
ولكن الشعب بدأ يكره الملكة والملك ، والملكة بصفة خاصة ،
ومع ذلك فلافاييت يزور الملك ، ويطيل السهرة معه أحيانا ،
يتحدثان ويلعبان ، ولا يبدو على وجه أبيها أنه يكره هذه
الزيارات .. الا ان يكون وجه أبيها - كما هو فى أغلب
الاحايين - لا يحسن التعبير عما فى نفسه .. لو تكلمت ابنة
الملك ، لسألت أمها أسئلة كثيرة لا تنتهى ، ولكن أنى لها أن
تسأل ، وهى فى حجرة صغيرة ، تجرى على عجل ، وكل من
فيها صامت ، وكل ما يجرى حول هذه العربة ، مخيف جدا ..
بل أكثر من مخيف .. ؟!

ان خارج هذه العربة ، هذا الفول الذى انطلق فجأة من
مكان لا تعرفه ، أشبه شئ بالامكنة التى تخرج منها الغيلان
فى القصص والحواديت ، وهو يكشر عن أنيابه ، مهددا بقبضة
يده ، ليحطمها ويحطم أمها وأباها وأخاها .

انها لا تستطيع أن تلجأ الى حضن أمها لتحميها منه ، لان
أمها تخافه كما تخافه هى .. اذن لانجاة .. واذن فلتصمت ،

ولتلتصق بصدر عمتها التصاقا شديدا ، كلما لاح فى الجو خطر
.. والخطر لا ينفك يطاردهم فى هذه الرحلة الملعونة ، فان هذا
هو الملاذ الوحيد

عجبا للحياة وللدنيا .. !

حينما تدلهم المخاطر ، وتتزاحم المخاوف .. حينما لا ينفع
فى دفع الاذى عن الانسان سلاح ولا مال ، ولا أخوة ولا أعوان ،
يجد الانسان أيا كانت قوته ، وأيا كانت مكانته ، وأيا كانت
سنه ، الامن والحماية فى أحضان صديق عزيز ، قد يكون أما
أو زوجة ، بل قد يكون أحيانا أحضان ابنة صغيرة ، مدعورة
مثله ، خائفة من المستقبل مثل خوفه ، ولكنه مع ذلك يجد فى
هذا الملاذ أمنا وهدوءا وقوة ، ذلك لان هذا الملاذ ، وان لم
يستطع دفع الاذى ، الا أنه يبعث فى النفس الاطمئنان الى
النهاية ، والارتفاع عن الخوف ، والرضا بالمصير . أو أنه يحجب
عن الانسان التفكير فى هذا كله

ولكن أحقا أن هذا الرجل الضخم ، الذى يلبس ثوب الخادم ،
لم يفكر فيما كان ، ولا فيما سيكون .. لقد عرف بأنه رجل
بلا أعصاب .. ولكنه مع ذلك كان يفكر ، غير أن تفكيره كان
له طابعه المميز .. فهو أولا رجل محدود الخيال جدا ، وهو
ثانيا رجل شديد الخجل . وقد كان هذا مصدر شقائه ،
ومصدر راحتـه فى الوقت نفسه : كان مصدر شقائه لانه
لم يكن قادرا على أن يتصور أكثر مما يرى ، فكان يقابل
الاحداث بالتجزئة ، وكانت الاحداث فى حاجة الى رجل يفكر
فيها جملة ، ويعمل على ضوء ما سلف منها ، وما هو واقع

فعلا ، وأن يسبقها فيتصور ماتلد . . وقد كانت الايام والليالى
حبالى . . وكان خجولا أشد الخجل ، فقد ولد وبرجولته نقص
. . ولو كان رجلا عاديا ، لكان هذا النقص شأنه الخاص ،
الا أنه كان وليا للعهد ، وكان زواجه عملا سياسيا ، فكانت
رجولته أمرا دوليا ، يرقبه الملوك من فوق عروشهم بمجاهر ،
ويتحدثون عنه فى المحافل ، ويعلقون عليه فى المؤتمرات ،
ويدخلونه فى حساب خططهم حين يدبرون للحرب ، وحين
يدبرون للسياسة . . فواخجلاه !

لقد كانت الاميرة الصغيرة التى زفت اليه فى الثامنة عشرة
من عمرها ، قطعة من نار الشباب ، وقد اختارت عرش فرنسا
حينما سألتها أمها ، أى العروش احب الى قلبك يا ابنتى ؟
فهتفت على الفور : فرنسا . . وكانت فرنسا بعد أن ارتقى
عرشها لويس الرابع عشر ، الملك الشمس ، وبعد أن سبقه الى
ذلك العرش نفسه ، هنرى الرابع ، وبعد أن حف بهذا العرش
الكردينالان العظيمان ريشيليو ، ومازاران ، كانت فرنسا بعد
هذا كله ، سيدة دول أوروبا ، وكان عرشها ، وتقاليده ،
أجمل العروش ، وكان بلاطها أفخم ، وأروع بلاط فى غرب
الدنيا . . كان فيه الشعراء والقصاصون ، وكان فيه النساء
الجميلات ، والقواد ، والسياسة ، وانتشرت تقاليده فى كل
بلاط ، ونسج على منواله كل ملك ، وتعلم فيه فنون الظرف
والكياسة ، والدهاء والسياسة ، كل أمير طامح الى المستقبل ،
ومؤمل فى المجد

ولكن ولى العهد ، كان يعلم انه لن يرزق البنون ، لا لخطا ارتكبه ، بل لعجز منى به ، الا ان السياسة لم تكن لتعترف بمثل هذه العقبات المادية ، بل اقتحمت على الزوج الصغير ، وزوجه الشابة ، خلوتهما ، وانتهت الى ان هذا العجز الذى يهدد حسن العلاقات بين دولتى النمسا ، وفرنسا ، يمكن علاجه بعملية جراحية ، غير محفوفة ، لحسن الحظ ، بالمخاطر .. وحضر ولى عهد النمسا ، وشقيق الاميرة ماري آنطوانيت ، الى باريس ، وأقنع البلاط الفرنسى بضرورة اجراء هذه العملية ، واجتمع مجلس الوزراء الفرنسى ، وأقر هذه المغامرة ، وأجريت العملية ، ثم كتبت الاميرة الصغيرة ، الى أمها الكبيرة ، ان العملية بدأت تؤتى ثمارها

فلم يكن خجل الرجل الضخم اذن بلا سبب .. فقد كان يتحرك منذ شبابه فى مجتمع يعلم عن خاصة شئونه ما لا يحب ان يكشفه للناس ، وكان هذا المجتمع يعبر عن ذلك العلم بالاسلوب الذى يجرح كل حياء ، وكل آدمى .. على أن مرضه الخاص لم تحسم آثاره بالعملية ، ولم ينته حينما رزق بابنته بعد سبع سنوات من زواجه فى سنة ١٧٧٨ ، ولا بابنه فى سنة ١٧٨١ .. فان الطامعين فى عرش فرنسا بعد وفاته كانوا يعلقون أكبر الآمال على عقمه ، وانعدام الامل فى مجيء عقب له فلما رزق البنون والبنات ، صدمهم ذلك ، ولكنه لم يشن عزمهم ، فقد نسجوا عن مرضه قصصا ، وشائعات ، وجعلوا لها ذيولا واطرافا ، البسوا فيها الاميرة ثم الملكة ، اثوابا من

المجنون والتمرد على الخلق ، قصدوا بها أن يعجلوا باقصراتها
وزوجها عن العرش، فلما كانت الثورة ، انفسح لهؤلاء الميدان ،
وتعددت أسلحة الايذاء فى أيديهم

فخجل الملك ، كان أساسا من أسس الحياة السياسية فى
فرنسا . وقد تذكر الملك فى العربية ، كيف أن زوجته الملكة
لم تتردد فى أول خطاب كتباه معا لامها ، أى حماته ، بعد أن
ارتقيا العرش أن تضيف حاشية تقول فيها بصراحة :

« لم يرض الملك أن أبعث اليك برسالتى دون أن يخط لك
فيها كلمة بنفسه ، وانى لموقنة أنه كان يحب أن يكتب اليك
رسالة كاملة ، ولكنى أرجو أن يكون له بعض العذر نظرا لكثرة
ما يقوم به من الاعمال ، فضلا عما فى طبيعته من الخجل
الشديد »

وقال الملك لنفسه ، دون أن يظهر على وجهه شئ ، لقد
اتهمت دائما بانى بطيء الحركة ، وبأنى لا أحسن التدبير ،
وهاهى ذى الملكة قد دبرت وأحسننت التدبير فى هذه الرحلة ،
فماذا جنينا من التدبير الحسن ، ومن خفة الحركة . وجعل الملك
يحدث نفسه :

لقد كنت زاهدا فى الفرار ، مؤملا أن تتجه الامور اتجاها
ينقذنا من الثورة ، أو يحسن علاقتى بها فيغنيانا عن هذه
المجازفة ، فأرونى مقالا كتبه « مارا » هذا المجنون الذى يعوى
ككلب مسعور فى مجلته « صديق الشعب » يقول فيه : « ان
الفكرة هى نقل الملك الى الاراضى الواطنة ، بحجة ان قضية

الملك ، هى قضية الملوك جميعا . . فهل أنتم بلهاء الى الحد الذى لا تعملون معه شيئا لمنع فرار الاسرة المالكة ؟ »

« أيها الباريسيون ، لقد بلغ بكم الغباء مبلغا أحوجنى أن أكرر عليكم المرة بعد المرة ، بأن الواجب يقضى بوضع الملك وولى العهد فى مكان أمين ، وبأن تودع المرأة النمساوية الحبس ، وشقيق زوجها ، وسائر الاسرة المالكة . اننا ان تأخرنا يوما واحدا ، قد يجر هذا التأخر على الشعب الوبال ، وقد يدفع الى القبور بثلاثة ملايين فرنسى »

ولقد تكهرب الجو حينما نشر هذا المقال ، وصح فى رأى الملكة وصديقها فرسن ، والجنرال بواييه ، والدوق شوازل ، وغيرهم ، وغيرهم من أصدقاء الملكية ، ان الهروب لا مفر منه ولا مندوحة عنه

حسنا ، لنتخذ للفرار عدته ، وأنا الرجل الثقيل البطيء ، مثلت دورى وأحسننت تمثيله . . ففى ليلة الفرار ، طالت زيارة « لافييت » حتى كاد صبرى ينفد ، أنا الذى لا أعرف القلق ، ولم يكد يخرج من قصر التويلرى ، حتى ذهبت الى مخدعى ، وكان على ان أخدع هذا الخادم الذى ينام وبيده حبل ، ينتهى طرفه عندى ، حتى اذا احتجت اليه ، لم أكلف نفسى مثونة النداء ، اذ حسبى جذبة رقيقة للحبل ، ليستيقظ ويسرع الى التلبية . . ولقد ظن الخادم ليلتها أنى استغرقت فى نوم عميق ، بعد أن أسدل ستائر المخدع كعادته ، فخرج من الحجرة ولم يكد يفعل ، حتى قفزت من الفراش ، فى قميص النوم ، حافى

القدمين، وذهبت الى سلالم كان ينتظرني عندها ضابط بملابس
الخدم التي لا ازال ارتديها .. وفي طريقى الى الخارج مارا
بالحديقة، التقيت بجندى من الحرس ، فتظاهرت بان رباط
جوربى قد حل ، فانحنيت أعيده الى مكانه ، حتى لا يقع نظر
الحارس على وجهى .. لقد أحسنت دورى .

لوح الملك بيده فى الهواء ، وهو يحدث نفسه .. ولكن
ماذا كانت النتيجة ؟ لقد قبض علينا الشعب ، وأنا الآن فى
طريقى الى العاصمة التي عرفت أجدادى ، كما يعرف الناس
الآلهة ، أعود اليها فى ثياب خادم .. لم أغيرها منذ ثلاثة أيام
.. فلما اتسخت لم أجد ما أغيرها به ، غير قميص اقترضته من
جندى .. حقا اننى لا أحسن التدبير ، وغيرى يحسنه ..
وحقا اننى بطيء الحركة وغيرى سريع
« لقد تساوت النتائج .. » !



الفصل الثالث

كانت هي أكثر ركاب العربة سخطا ، وأشدّهم تبرما بالمصير الذي انتهوا اليه : شقيقة الملك « مدام اليزابث »

كانت ترى أن شقيقها ، وزوجته الملكة ، مهما أصابهما من هوان ، ومهما حل بساحتهما من متاعب ، فهما بهذا يدفعان ثمن مافعلاه ، أما هي فتساق الى مثل مصيرهما ، بغير جريرة ارتكبتها ، الا أنها شقيقة هذا الرجل الضخم ، الذي تزوج هذه الصغيرة التي تطفر الحياة من كل جارحة فيها .. ولما ذكرت ماكانت فيه من نعيم وسعادة وخلو بال ، وما انتهت اليه من هوان وتحقير ، ومستقبل غير معلوم ، اشتدت في لوم أخيها ، وودت لو استطاعت أن تقوم فتصفعه أو تركله ، ولما نظرت اليه نظرات تتطاير شررا ، ورأته ككومة من اللحم ، راته هادئا كأنه عائد من رحلة صيد وقنص ، هدات بدورها ، لأنها أحست كأن أخاها يتحدى ثورتها برباطة جأش ، أو على الأصح بعدم اكتراث .. وفضلت ان تسترسل في خواطرها ، لتحصى كم استسلم الملك للثورة ، وهو يحسب أنه قادر على أن يعقد معها صلحا ، أو أن يهادنها . فذهب جهده عبثا ، ومضت الثورة تجتاح كل يوم قاعدة من قواعد الحياة المقدسة قبل قيامها

فانه ماكاد يرقى العرش ، حتى عين «ترجو» وزيرا للمالية ، و «ترجو» هو صديق فولتير ، الذي نفخ في أنيران الغضب

على الملوك ، وبشر بالثورة ضدهم . وكان عمل « ترجو » هو فرض التضييق والتقصيف على الحكومة والنبل ، بدعوى ان في الميزانية عجزا بلغ ٢٢ مليوناً من الجنيهات ، فلما ضاق النبل ، والاشراف وكبار رجال الدين بهذه السياسة الصارمة التي تحد من بذخهم واسرافهم ، تمللوا من « ترجو » فأبى الملك الا استمساكا به ، فاضطروا الى أن يزوروا خطابا نسبوه الى « ترجو » يتضمن طعنا في الملك ، فأقصاه ليحل محله وزير لا يقل عنه صلابة ، أو ميلا الى الادخار والاقتصاد هو « نكر » فابتدع في شئون مالية الدولة أمورا لم تكن معروفة من قبل ، اذ نشر ميزانية الدولة ، فأتاح بذلك للعامة الذين لم يكونوا يجرءون على التفكير في غير جيوبهم ، أن يتحدثوا فيما يحويه جيب الدولة من مال ، وأن يعرفوا مصادره وموارده ، وأن يدعوا لانفسهم الحق في أن يقولوا هذا كثير وهذا قليل ... وليس هذا سوى بداية المتاعب والمصاعب

وفعل « نكر » شيئا لا يقل عن ذلك نكرا ، فقد زعم انه لن يجبى ضريبة جديدة ، الا اذا وافق عليها الاهالى .. أو الشعب

الاهالى أو الشعب .. من أين جاءت هذه الاسماء الجديدة ؟ وماذا تعنى ؟ انه والله وباء . لن ينقذ البشر منه ، الا ان يتطهروا ويتوبوا الى الله من هذا الشرك الذى اذاعه ، وزينه للناس ، معتوهون من امثال « روسو » ، والعجيب ان كلا من الوزير « نكر » ، والكاتب « روسو » سويسرى الموطن ، فكان

أحد السويسريين أتم ما بدأه السويسري الآخر

ولكن « نكر » لم ينجح ، فقد اكلت حروب استقلال الولايات المتحدة ، التي اشتركت فيها فرنسا ، ما ظن أنه جمعه ودبره بسخفه ، وضيق فهمه ، فكان الامل ألا يعود الى منصبه كوزير للمالية . ولكن لم تكن هناك فائدة من تركه منصب وزير المالية أو عودته اليه ، فقد انطلق الجان من القمقم ، فلم يعد ممكنا اعادته اليه . لقد نشر «نكر» ميزانية الدولة على العامة ، فاعتبروها ميزانيتهم الخاصة ، ثم قال قولته النكراء : ان الضرائب لا تجبى الا اذا وافق عليها الشعب ، فأدى ذلك الى أن تعقد الجمعية العمومية ، التي لم تكن تدعى للانعقاد منذ سنة ١٦١٤ أى منذ أكثر من مائة وخمس وسبعين من السنين !

لقد بعث الموتى من مراقدهم

ودعيت الامة الى انتخابات ، وفي يوم ٥ من مايو سنة ١٧٨٩ عقدت الجمعية العمومية ، فجلس الاشراف في يسارها ووسطها ورجال الدين في يمينها ، وجلس ممثلو الطبقة الثالثة في المقاعد الخلفية في مواجهة الملك

ولما وصلت مدام اليزابث الى هذا الحد من تصوراتها وخوابرها ، أحست بضيق شديد ، والتمست هواء جديدا ، يخفف عنها ما اجتمع فوق صدرها من ضيق فادح ، وفهم السيد بثيون ، ممثل الجمعية الوطنية ، ماذا تطلب فمد يده الى مفتاح النافذة ليفتحها لها ، ومدت يدها هي أيضا ، لتقوم بذلك لنفسها ، فتلاقت عيناها بعينيه ، ثم تلامست يدها ويده

.. فأى اكتشاف هائل اكتشفته ! .. ان الرجل الذى لم تبين حتى هذه اللحظة ملامحه ، تحاشى ان يلمس يدها ، لا عن زهد ، وانما عن ...

عن ماذا ؟ انها لاتدرى ، ولاتحب أن تدرى . فانها ان فكرت فى هذا الذى حدث ، وجب ان تقول لنفسها أمورا لاتحب ان تقولها . فان اليد التى امتدت نحو مفتاح النافذة كانت يدا شابة ، مضطربة بانفعال ما .. هل يكون المواطن بشيون ، اختلس النظر اليها ؟ وهل تكون راقته ؟ وهل يكون هذا التلاصق الحميم ، طوال هذه الساعات الثقيلة ، قد نقل منها اليه كهرباء سرت فيه دون ان يحس هو ، ودون ان تقصد هى ؟

وودت شقيقة الملك أن تسترسل فى هذه الخواطر ، فهى أمتع وأدعى الى الراحة ، من تتبع تاريخ أخيها من الثورة .. ولكن ماكان يحدث خارج العربية ، كان لا يأذن لها بأن تسلم نفسها لخواطر مبهجة

فلقد كان التراب منعقدا فى الخارج من فعل تزاحم اهل القرى حول العربية ، وتدافعهم نحوها ، ليظفر كل منهم بنظرة من الملك والملكة ، والملكة خصوصا ، وليقول كل منهم كلمة جارحة ، أو نكتة قاسية ، أو يحدث أصواتا بطريقة تضحك زملاءه . وقد كسا هذا التراب الكثيف وجوه ركاب العربية وتعلق بأهداب أعينهم ، وشعورهم ، فكان احدا قد سكب فوقهم كيسا من الدقيق . ولما اشتد صياح الناس فى الخارج ، وزادت قوة العبارات التى كان ركاب العربية يطلقونها ، ارادوا

أن يسدلوا الستائر السوداء ، فدقت الجماهير على الواح
الزجاج بأيديها دقا شديدا لترفع الستائر ، وليبقى الفارون
تحت أنظار شعب فرنسا ، ولينالوا جزاء تفكيرهم فى الفرار
ولما جاء الطعام ، ظنوا أنهم قادرون على أن يتناولوه بعيدا
عن هذه الانظار ، وأن من حقهم أن يسدلوا الستائر ، ولكن
الجماهير عادت تدق، الزجاج ، فأرادت شقيقة الملك أن تستجيب
لهذا الدق العنيف ، الا أن الملكة رفضت وقالت : « يجب ان
نلتزم مسلكا لائقا حتى النهاية » فلما فرغت وفرغ أهلوها من
طعامهم ، فتحوا النافذة ، ورفعوا الستائر ، وألقوا بعظام
الدجاج المحمر الذى كان قد أعده لهم الكونت أليكس فرسن
ولما اشتد الحر ، تمنى الملك أن يعطى قطعة من الاسفنج
يرطب بها وجهه ، وسمع أحد الافراد المتزاحمين حول العربة
هذا الطلب ، فضحك ساخرا ، وقال للملك : « هذا ماجنيته من
فرارك من بلادك »

ولما وقفت العربة بعض الوقت ، وخرج ركابها ليمدوا
سيقانهم التى تصلبت وعادت الملكة الى مكانها فى العربة، اقتربت
قروية من الملكة ، وقالت فى نبوءة قاسية : « أيتها الصغيرة!
انك تصعدين الآن سلم العربة ، وغدا تصعدين سلما آخر »
هذا ما كان يجرى خارج العربة ، ففتح النوافذ ، لاياتى منه
الا التراب ، وكلام اشد ايلاما من الحجارة ، ولكن مدام اليزابث
أحست بأن أنفاسها تكاد تختنق من عنف الحر ، وضيق المكان ،
فجازفت وفتحت النافذة ، فتلامست اليدان ، ثم تلاقت

العينان ، فأحست بحاجتها الى أن تفر الى خواطرها الاولى ،
وأن تتبع فى جلستها تاريخ اخيها مع الثورة

لقد قبل الملك أن تبعث من القبر الجمعية الوطنية ، بعد أن
رقدت فيه نحو قرنين من الزمان ، وقبل أن تجرى الانتخابات
لهذه الجمعية ، فكأنما القى خطبا فى نار هذا الجنون الذى
يسمونه الثورة . ففى هذه الانتخابات تطايرت شعارات
جديدة ، كما تتطاير القذائف الملهبة فى الافق ، وبفضل المزايدة
التي خاضها المرشحون ، أصبح الناس لا يسمعون الا افكارا
متطرفة ، لم يسمعوا بها من قبل ، فأصبحت كلمة الدستور
هى مفتاح كل خطبة ، والحجر الاساسى لكل اجتماع ، ومدار
المنافسة فى كل حلبة سياسية .. الدستور ! الدستور !
الدستور !

وفهم الفلاحون فى الحقول ، والرعاة فى المراعى ، والصناع
فى المعاصر والمغازل ، والعاطلون وأشسباههم فى أزقة باريس
وضواحيها ، أن الدستور هو قانون كبير هائل ، أقوى من الملك
ذاته ، تصدره سلطة مجهولة ، ليقيد الملك والاشراف والنبل
والحاكمين ، بقيود لا تحطمها الوحوش الكواسر .. فمثلا ينص
هذا الدستور على الا تضاف على عاتق الشعب ضريبة جديدة
الا اذا حقق مع الحكومة ، وثبت أنها فى حاجة الى مورد مالى
جديد . وينص كذلك على سيادة الامة ، فهى اعلى من حق
الملك الالهى ، كما ينص على مسئولية الوزراء أمام الشعب
وممثليه ، الذين يحاكمون الوزراء ويسألونهم عن أموال الدولة

كيف انفقوها ، ومصالحها كيف اداروها ؟ فان لم تكن اجابة
الوزراء معقولة ومقنعة ، عزلوا من مناصبهم وعادوا الى بيوتهم
ويتفرع عن هذا كله ان الناس جميعا متساوون امام
القانون ، فيدفعون جميعا الضرائب بقدر طاقتهم ، ويقفون
جميعا امام المحاكم بسبب جرائمهم ، ويتمتعون بصوت واحد
في الانتخابات

نظرت مدام اليزابث الى شقيقها وهو اشعث أغبر ، وقد
احمرت عيناه من طول السهر ، وشدة التعب . وعجبت لنفسها
كيف قبل كل هذا . وذكرت كيف ذهب الملك الى الجمعية
العمومية يوم افتتاحها في الخامس من مايو سنة ١٧٨٩ ، وكيف
سحب وراءه الامراء والنبلاء ، في ابهة ثيابهم ، مزينة صدورهم
وقد لمعت الاوسمة فوقها ، والسيوف الى سيقانهم

قبل الملك كل هذا ، فاستحق ان يدفع الثمن ، فان ذلك
كان ينذر من بدايته بالشر ، فقد كان رجال الطبقة الثالثة
يستحون أن يضعوا قبعاتهم على رؤوسهم في محضر الملك ،
ولكنهم في هذا اليوم ، فعلوا كما فعل الاشراف ورجال الدين
بعد ان حيوا الملك وقوفا ، فقد أعادوا القبعات الى الرؤوس
.. فيا للهول !

وقالت مدام اليزابث وهي تحدث نفسها :

« وبالييت أخى قنع بهذا ، فانه قال يومها كلاما لامعنى له
الا ان يكون أخى هذا قد اخذ على عاتقه ان يهيج هذه الثورة ،
وان يدفعها الى الامام ، او ان يدخل مع نواب الطبقة الثالثة في

منافسة وسباق ، فانه قال فى خطبته لتلك الجمعية المشؤمة :
« هاقد حل ذلك اليوم الذى طال شوقى لحلوله ، وهانذا
أرى حولى نواب تلك الامة التى أرى من مجدى أن اكون حاكما
عليها . لقد طال العهد بآخر مرة انعقدت فيها هذه الجمعية ،
حتى لقد وقع الاعتقاد أنها لن تلتقى ، ولكنى لم أتردد لحظة
واحدة فى العودة الى عرف قد تستمد الدولة منه قوة جديدة ،
ويتحقق به للشعب عنصر جديد من عناصر السيادة ، وانه
مامن مقصد نبيل يرجى منه الخير للمصلحة العامة ، ومامن
واجب يقع على عاتق ملك بوصف كونه الصديق الاول لشعبه ،
الا ولكم ان تطمعوا فيه عندى . وان الامل الذى يملأ قلبى
والامنية الحارة التى تملك على نفسى هى أن أرى هذا المجلس
وقد ساد فيه التفاهم والوفاق ، وأن أرى هذا الاجتماع فاتحة
عصر رخاء وسعادة لهذه البلاد . ان هذا ليكونن لى من الله
خير جزاء على كرم مقاصدى وصدق محبتى لشعبى »

ومن يسمع هذا الكلام من الملك ولا يطمع فى المزيد ؟ وقد
كان . فقد رفض ممثلو الشعب أن يجلسوا وحدهم ، كما
كانت العادة ، على ان يجلس الاشراف فى مكان مخصص لهم ،
ورجال الدين فى مكان ثالث ، حتى تعرض على الطوائف الثلاث
القوانين ، فان أقرتها طائفتان نفذت . رفض الشعب الجديد ،
بعد ان سمع كلام الملك ، الا أن تحسب الاصوات بعدد الافراد ،
لا بعدد الطوائف ، وقالوا اننا نمثل اكثر من ٩٦ فى المائة من
الشعب ، فكيف يكون لنا ثلث الاصوات ، بل كيف لا يكون لنا

صوت مطلقا ، فالاشراف ورجال الكنيسة دائما في جانب واحد ، ونحن في جانب ، وذلك لانهم اصحاب الضياع والاملاك ، والمتمتعون بالامتيازات ، ومنهم يختار الوزراء والسفراء ، ورؤساء المصالح

أما نحن فدافعوا الضرائب وأهل السخرة ٠٠٠ أطل هؤلاء النواب الذين هبطوا على البلاد كما يهبط الجراد ، السنثم على الاشراف والنبلاء والكرادلة وكبار الاحبار ..

ولكن ماذا نقول وأخى الطيب يريد ان يلعب الاسد في القفص وان يخدعه ، فماذا حدث ؟

حدث أن ممثلى الطبقة الثالثة قالوا أنهم النواب ، واجتمعوا وحدهم ، وألفوا منهم لجانا لتنظر في تموين البلاد ، لتحميمها من المجاعة التى زعموها ، وقالوا ان الضرائب المفروضة على الشعب باطلة ، ولكنهم لا ينصحون الناس بالامتناع عن دفعها مادامت الجمعية - أى جمعيتهم - منعقدة

كان يجب على أخى ان يضرب الشر فى بدايته . كان يجب عليه أن يعتبر اجتماع الجمعية العمومية المكونة من الطبقة الثالثة وحدها ، باطلا ، وان يأمر فصيلة من فصائل الجيش لتقذف بهذه الحثالة من مكان الاجتماع الى الخارج ، بالتلويح بالهراوات ، فان لم تجد معهم الهراوات فبكموب البنادق ، والا فقذيفة واحدة فى الهواء ، يهرول بعدها هؤلاء الى بيوتهم . ولقد قال له ذلك الامراء ، وقلناه له ، فماذا فعل ؟ لقد نصح الاشراف ورجال الكنيسة ان ينضموا الى ابناء الشعب لا لشيء

الا لان هؤلاء النواب اجتمعوا في كنيسة سان بنى ، فلما ذهب
كبير الامناء موفدا من الملك ، وطلب اليهم أن ينفضوا ، تصدى
ميرابو له ، وقال له في وقاحة : « يا هذا ! اذهب الى سيدك
وقل له اننا هنا بأمر الشعب ، ولن نبرح مكاننا الا مسوقين
بأسنة الحراب » . فلما قالوا للملك ذلك ، قال في طيبة تنضع
بلاهة : « اذا كانوا لا يريدون مغادرة المكان فدعوهم وشأنهم »
فلما آنس رجال الكنيسة في الملك ضعفا ، وفي ممثلى الطبقة
العاملة قوة ، انضموا الى صف القوى ، وتركوا جانب الضعيف ،
شأن البشر في كل حين وآن ، ومالبت بعض الاشراف أن تبعوا
رجال الكنيسة ، فلما رأى دوق لو كسمبرج أن الملكية تنهار ،
أسرع الى الملك قائلا :

« اننا مستعدون لان نفدى الملك بأرواحنا .. » .. فما كان
من أخى الا أن قال : « انى لا أريد أن يموت أحد من أجلى .. »
حسنا ! فما بالنا نشكو الان ، والشعب الكريم يحصبنا بهذا
السيل الذى لا ينقطع من الشتائم . لو أننا احسنا تأديبه لما
فعل مافعل ، ولما لبس أخى ثوب خادم ، ولما لبست الملكة
ثوب وصيفة ، ولما حبسنا فى هذه العربة هذه الساعات التى
لا تنتهى

وفى هذه اللحظة دلفت العربة الى قرية من القرى ، فاقترب
عمدة القرية ، وهو يخب فى ثوب ريفى ، تتطاير منه رائحة
العرق ، ونظر الى الملك ، كما ينظر المدرس الى تلميذ لم يؤد
واجبه وقال :

« هكذا فعلت ؟ ايجوز لملك البلاد ان يفر » وفي مثل هذه
التياب ، والى اين تلجأ ؟ الى اعداء البلاد ، ومع من تدبر هذا ؟
مع الجنرال بواييه ، لان كل جنوده من المرتزقة الالمان ، اى
من غير اهل البلاد ؟ »

ولدهشة مدام اليزابث سمعت الملك يدفع عن نفسه التهمة
فى بلاهة ، ويؤكد انه لم يكن يبغى الفرار وانما كان يود ان
يبعد عن باريس بضعة ايام ، مؤملا ان ذلك يهدىء نائرة
النفوس

احست الاميرة ان اخاها جدير بكل شفقة ، فلما استأنفت
العربة سيرها ، رأت ان خواطرها اخذت لونا جديدا . . فقد
التمست للملك المعاذير ، وقالت لنفسها ، ان سياسته لم تكن
ضعفا كلها ، فقد أمر « نكر » وزير المالية الذى كان يمثل
الثورة ، وهو يتناول طعامه ، بأن يبارح البلاد منفيا ، فامتثل
« نكر » وخرج فى التو بلا مقاومة

ولكن هذا الامر كان بمثابة المنديل الاحمر فى وجه الثور
الهائج ، فقد قر قرار زعماء الشعب على ان يتسلحوا ، بعد
ان ايقنوا ان المذابح تنتظرهم ، فخرجت جموعهم ، تحمل
تمائيل نصفية « لنكر » ، فلقىهم الجنود الالمان ، واثخنوهم
جراحا ، وفرقوا جموعهم ، فجبنت الجمعية الوطنية ، وارسلت
الى الملك ترجوه ان يأمر بسحب الجنود من باريس ، ورفض
الملك . . . فأسرعت الجموع الى مبنى الانفاليد ، واخذوا ما طالته
أيديهم من سلاح ، حتى بلغ عدة ذلك ثمانية وعشرين الف

بندقية ، واسرعوا الى سجن الباستيل الذى قيل لهم ان
مدافعه ستسلط على العاصمة ، لتمزق الثائرين ، وتدفع
الجموع حتى استطاعت ان تحطم السلاسل التى كانت ترفع
الكبارى والجسور المؤدية الى السجن ، وسقط السجن فى
ايدى الثوار ، فأعملوا التذبيح والقتل فى قائده ، وضباطه
وجنود حاميته

كان ذلك غاية الجنون ، كان على أخى الذى نفى « نكر » ،
والذى قمع المظاهرات أول الامر ، ورفض أن يسحب الجنود
من باريس ، الا تخيفه هذه الموقعة الصغيرة ، ولكنه ماكاد
يسمع ان مدافع الباستيل قتلت بضع عشرات من هؤلاء
الرعاع ، حتى عاوده هذا الخوف الذى يسمونه طيبة ، فارسل
من يعلن جمعية المجرمين ، التى كانت تسمى نفسها الجمعية
الوطنية، بأنه قادم ليطمئنهم على حسن نواياه .. بهذه المواقف
الضعيفة كانت الملكية تخسر ، وبهذه الملاحظات ، انتهينا الى ان
نشتم ويبصق فى وجوهنا ، ويقال عنا اننا مجرمون ، ويطلب
منا الا نسدل الستائر على العربة ، حتى يتمتع الشعب الذى
تمثله الجمعية الوطنية بالنظرالىنا كما ينظر الى القردة
والنسانيس

وتواصى نواب تلك الجمعية الا يقابلوا الملك عند قدومه الا
بالصمت ، كأنما الجم السنتهم الحزن على الذين ماتوا فى وقعة
الباستيل .. وفعلنا دخل أخى قاعة الجمعية وحيدا لا يحيط
به حراس ولا أمناء ولا أمراء ، فواجهه صمت كصمت القبور .

وفي وسط هذا الصمت القابض للصدور ، أعلن هزيمته ، اذ قال انه امر بسحب الجنود من باريس ، الامر الذي كانت الجمعية قد طلبته وكان هو قد رفضه .. وتبرع بشيء آخر لم يطلبه احد ، ذلك هو اعادة « نكر » الذي لم يكن قد انقضى على الامر بنفيه الا ايام لم تكتمل اسبوعا ، وخرج الملك سعيدا ، فقد كافاته الجمعية الوطنية على ذلك بتصفيق حاد وهتاف طويل .. لا ، لا ، لقد كافاته بشيء آخر ، فقد كان علم الثورة مكونا من لونين ، الاخضر والاحمر ، وهما لونا شعار باريس ، فأضافوا اليهما لون الملكية وهو الابيض ، فتأخت الثورة والملكية ، واجتمعتا معا في رقعة العلم .. كما تجتمع في هذه العربة الضيقة

ونظرت الاميرة شقيقة الملك الى الثائر الذي يلاصقها في العربة . فرأت جانب وجهه ، فراعها منه انه يكشف عن جده وصلابته ، والايحاء الى نفس الناظر اليه بالاحترام ، ونظرت الى من حولها ، فألفت الجميع قد هدهم التعب ، فلم يعد احدهم ينظر الى شيء أو الى أحد ، فالأعين باتت مغمضة أو على الاقل نصف مغمضة ، وآلف سكان هذا السجن الصغير المتحرك بسجنائه وسجانيه ، مايجرى خارجه من صياح وتلويح بالأيدي ، وتهديد بالقبضات وفروع الاشجار ، ومن نكات لاذعة ، وتحديق شديد مبعثه فضول أشد . فلم يعودوا ينظرون الى مايقع خارج العربة ولايتأثرون به ، وكأنه موجه الى غيرهم . لهذا كله استطاعت الاميرة اخت الملك ان تنظر

الى جارتها ، الذي تلامست يدها ويده ، فلم تر شيئا مما
وهمته على وجهه ، فوجهه الى الامام ، وجانب شفثيه يدل
على انه يحاول ان يخفى تعبته من هذه الجلسة ، وان يبدو كما
يبدو الجندى الذى يود لو استلقى على فراش وراح فى سبات
عميق ، ومع ذلك يبقى شاكى السلاح ، رافع الرأس .. ومن
ثم فقد آثرت ان تستريح من هذا كله وان تغمض عينيها ، وان
تلقى برأسها الى الخلف ، ومدت ذراعها لتريح رأسها عليها ،
واخذت ابنة أخيها فوق صدرها ، وتمنت على الله ان تنام
ولم تدر اذا كانت قد نامت أو لم تنم ، ولكنها بعد قليل
فتحت عينيها فرأت ان وضعها قد تغير ، اذ رأت رأسها فوق كتف
جارتها ، وان ذراعا قد اقتربت من ذراعها ، حتى كأنهما قد
تشابكتا ، وأن ابنة أخيها لم تبقي فى مكانها الاول ، فقد هبطت
بفعل الحركة المستمرة فى العربة حتى أصبحت دون حجرها ،
وامتدت احدى ساقها الى حجر الجار :
ذراع من هذه التى اقتربت من ذراعها ؟ .. هل تستطيع
ان تصدق ؟!

انها ذراع السيد بشيون نفسه .. لقد حاول أن ينام كما
حاولت ، فلم يكن بد من أن يتم هذا التشابك .. والفتاة
الصغيرة نامت فعلا ، فلم تجد بدا بدورها من أن تتخذ من
السيقان المتجاورة مخدعا ، فكان ذلك اثم اختلاط وتلاصق
بين المبدئين المقاتلين ، وبين الكتلتين المتعاديتين .. لقد نامت
ابنة الملك على فراش من سيقان الملكية والجمهورية . على

ان ذلك لم يكن سوى البداية ، فان الليل اقبل ، وطلع القمر ،
وكسا الدنيا بحلة من ضوءه البلورى ، فأصبح ركاب العربة
اميل الى الشاعرية ، وادنى الى عالم الاحلام

وقد كان ، فان السيد بشيون احس ان تشابك الذراعين لم
يتم عقوا ، وقال لنفسه مبررا : « ان نظرات الاميرة اليه كانت
نظرات الحزن والارهاق ، ولكنها تلاقى بنظرانه كثيرا ، حتى
استحالت الى نظرات تقارب وجاذبية .. اما ذراعه فقد كشفت
ما عجزت الاعين عن الافضاء به ، والافصاح عنه . لقد قال
فيما بعد ، وفي مذكراته التى حفظها التاريخ عنه ، انه شعر
بحركات جسمها ، واحس بالحرارة التى يشعها هذا الجسم
من خلال ثيابها . ولقد بدا له انها استرخت ، وان عينيها لمعا
من خلال الدموع ، واختلطت كآبتها التى كانت تشملها بلون
من الاشتهااء »

وقد امتلأت نفس السيد بهذا الاحساس حتى لم يعد يقوى
على كبح جماح الاستمتاع بالتفكير فيه ، واستنتاج النتائج
منه ، فقال يحدث نفسه :

« من يدري ؟ فربما اكون مخطئا ، فان من العسير التمييز
بين نظرات الاستمتاع ونظرات الاسى »

ولعله اراد ان يقول ان تعبير عيني المرأة المحرومة ، او التى
لحركات عواطفها بلا امل ، يشبه تماما تعبير عيني المرأة
الحزينة ، والتى تجتاحها التعاسة . فالامر فى الحالى ليس
سوى شعور بالتعاسة وبالحرمان

ولكن لم يرض السيد بشيئون لكبريائه الانتهاء الى هذه النتيجة ، فان الرضا بها معناه انه لم يقم بغزوة ناجحة ، وهو يعتقد انه غزا هذه الاميرة ، وراقها وأثار عواطفها ، فقال لنفسه في حزم وبلا تردد :

« أنا اعتقد انه اذا خلا المكان لنا ممن حولنا ، او تبخر هؤلاء بنوع من السحر ، فانها لم تكن لتتردد في أن تنزلق بين ذراعي ، وأن تسلم نفسها لما تأمر به الطبيعة »

وبعد أن انتهى الى هذه النتيجة ، أحس بالرضا عن نفسه ، وأحس بالرضا عن المهمة التي ندب لها ، وأهم من هذا كله ، أحس بالرضا عن هؤلاء الذين القاهم القدر معه في هذه العربة فلقد اذاب التعب والعرق والاحساس بالآلم ، كل ما كان على وجوه أفراد العائلة المالكة من مساحيق وألوان ، تظهرهم في أثواب الاقوياء او الاذكياء او القادرين .. لقد كانوا آدميين . ولكن بشيئون لم ينس ابدا ان الاميرة ، وان كانت بالنسبة له مجرد امرأة ، منذ قرأ في عينيها التعلق به ، والسرور بالاقتراب منه ، والرغبة في الاستسلام له ، الا انها امرأة من نوع خاص ، نوع درس من الحياة مالم تدرسه كل النساء ، فقد تلقتة الايدي منذ أن فتح عينييه ، لتدربه على فنون واساليب ، لتحيل فراغ الحياة الطويل ، الى متع ولذائد ومشهيات .. هذا النوع من النساء يشم رائحة الرجل الحقيقي ، لكثرة ما عرف من الرجال الزائفين الذين تصنعهم المساحيق والادوية ، والمناصب والالقاب

فغزوته اذن شيء ذو بال ، لم يتم صدفة ، ولم يقع عفوا
ونظر بشيون الى الطفلين بعد ان ناما قليلا ، واستعدا
نشاطهما ، فوجدهما يلعبان سويا بغير كلفة وفي نشاط بعث
في قلبه السرور بهما . الى ان حدث ما انكسر له نهائيا الحاجز
الزجاجي الذي كان قائما بين الفريقين . فقد قفز الغلام ، قفز
ولى العهد ، الى ناحية المسيو برناف ، بعد ان نظر طويلا الى
الشارة النحاسية التي كانت في عروة سترته ، ومد يده الصغيرة
الى هذه الشارة ، وأخذ يحاول قراءتها متعثرا ، حتى نجح
أخيرا في ان يقرأ بصوت مسموع :

« عش حرا أو مت ! »

واتجه الطفل الى أمه ، وقال مكررا :

« عش حرا أو مت ! »

ثم أردف : مامعنى هذا يا أماه ؟

ونظر كل من برناف وبشيون الى الملكة ، وانتظرا جوابها ،
فلم تقطب جبينها ، ولم تشح بوجهها عنه ، بل قالت وعلى
شفتيها ابتسامة أموية ، مشيرة الى السيد برناف : سل
السيد !

كانت العبارة قصيرة غاية القصر ، لم تزد عن كلمتين ، ولكنها
رنت في آذان الجميع ، رنينا قويا ، وحركت في النفوس كلها
فضولا ، كأنما هي خطبة سياسية طويلة ، أو بيان ذو خطر
من شخصية ذات خطر ، في موقف ذي خطر

« سل السيد ! »

أن الملكية كلها ممثلة في أعلى قممها ، تحيل سؤالا في صميم
السياسة الى الثورة ، وفي رشاقة وبساطة ، وبلا كلفة ، كأنما
الامر طبيعي لا غرابة فيه

وتحفز السيد « بثيون » لهذه المفاجأة ، أى لما سيأتى
بعدها ، فقد أخذ على عاتقه منذ جلس في العربة ، أن يعطى
دروسا للملك ، لا تخلو من أشارات صريحة أو غامضة ، يقصد
بها الملكة ، وكانت هذه الدروس تأنيبا على ما فرط من الملك
والذين حوله من أخطاء وعلى تفكيره فى الهروب ، وكان الملك
يستمع فى صبر ، ويقول بين الحين والحين ، كلمة أو كلمتين
يدفع بهما عن نفسه التهم ، ويلتمس لها المعاذير : أو يوضح
ما أحاط به من ظروف يجهلها الشعب وتجهلها الجمعية
الوطنية ، وكان بثيون يسمع الردود ، وهو لا يكاد يعيها ،
وينظر الى الملكة ، فإذا هى صامتة ، ليس على وجهها ما يستثير
أو ما يعد تحديا ، ولكن ليس عليه أيضا ما يدل على أنها أخذت
شيئا من هذا الكلام مأخذ الجد ، أو أنها أعارته شيئا من عنايتها ،
فهى تسمعه لأنها مضطرة أن تسمعه ، ولأن الادب يقتضيها أن
تسمع ، ولأن الدخول فى مناقشته لاجبة لانفع فيها ، ولا جدوى
منها

أما الآن فقد تغيرت العلاقات بين ركاب العربة كل التغير .
فبثيون خفت حدة عداوته الشخصية لهؤلاء ، بعد أن سقط
عن وجوههم قناع السلطان والنفوذ والقوة ، وبعد أن بدوا له
أناسا يكادون يكونون بلا حول ولا قوة ، وبثيون أحس أنه اقترب

من هذه الجماعة خطوات ، بعدما كان بينه وبين شقيقة الملك
من صمت ، وأخيرا بعد أن قفز ولى العهد وملك فرنسا فى
المستقبل الى « برناف » وسأل عن هذه الشارة ، ولمسها
بيده ، تماما كما يفعل الطفل الذى لا يميز بين جذوة نار ،
وفاكهة حمراء

فليتول اذن القاء درس ينفع الطفل ، وينفع البلاد فى هذه
المناسبة التى عرضت نفسها بنفسها ، والتى لم يسع اليها
احد . . . وبدأ بشيئون الدرس فقال :

« ان هذا شعار من شعارات الثورة »

وابتسمت الملكة . . !



الفصل الرابع

ابتسمت الملكة ، وقالت :

« اذا لم أكن مخطئة فهو شعار قديم ، أقدم من الثورة بكثير .. »

قال بشيون :

« ان الثورة هي التي صاغته ، وأعلنته ، وأصبح عنوانا لمبادئها ، فالحرية .. »

فقاطعت الملكة برفق شديد ، وهي تميل برأسها قليلا الى الامام ، وعلى شفتيها ابتسامة رقيقة خفيفة ، تحاول ان تخفيها :

« لقد سمعت هذه العبارة ، ليس بنصها ، ولكن بمعناها ، أو لعلى قرأتها على درع أحد أمراء التيرول .. انه شعار اسرة نبيلة قديمة ، وقد تكون مثلا « الحرية أو الموت »

أما « برناف » المحامي الشاب الذي لم يتجاوز الثلاثين من عمره ، والذي كان فصيحاً ، لبقاً ، محدثاً أخاذاً ، فقد طاب له كثيراً جداً ان تدور هذه المناقشة التي لم يتوقعها أحد داخل هذه العربة ، لا ليقنع ، وإنما ليكشف الحجب التي تخفي نفس هذه المرأة الصغيرة ، التي كان يؤمن كل من في فرنسا ، بأنها « الرجل الوحيد » في البلاط ، كما قال عنها ميرابو ، أو

العقل الوحيد في جماعة البلهاء والمعتوهين ، كما تبين بنفسه
قال بشيون وقد بدا عليه شيء قليل من الارتباك :
« حسنا ! لا يهم اذا كان ذلك شعارا قديما ، أو مبدأ صاغته
الثورة ، وانما الذي لا يجادل فيه أحد أنه كان كلاما بلا معنى
في الماضي ، مجرد حلية توضع فوق الدروع ، وعلى مداخل
القصور ، وتنقش على الاوانى ، ولكن لاتلهم أحداً بشيء .. »
فقالت الملكة :

« أولدت الحرية مع الثورة ؟ »

فلوح بشيون بيده ، وكأنما ضاق صدره بهذا الأسلوب من
النقاش ، وقال :
« اننا لم نعرف الحرية قبل الثورة .. اننا لم ننتزعها
بعد .. »

فقالت : « أكان أجدادنا منذ مئات السنين لا يعرفون قدرها ؟
اكانوا عاجزين عن أن يقولوا في ايمان وفهم عش حرا او مت ؟ »
فاضطر بشيون أن يقول :

« حاشاى أن أقول ذلك .. أن الاجيال المتعاقبة في فرنسا
عاشت في شرف ، وعملت لتحظى هذا الشرف ماوسعها ..
لقد ماتوا في ميادين كثيرة ، داخل حدودهم وخارجها ، وآخر
كلمة على شفاههم اسم بلدهم .. ان شعور شعبنا بالحرية
قديم وأصيل »

فقالت : « لقد اتفقنا .. ولكن ماذا يمكنك أن تشرح لابنى
في هذا الشعار ، فالحق اننى لا أحب ان اشرحه له ،

فقال برناف : « ولم لا .. نحن نحب أن نسمع شرحا له منك ، مادمت تؤمنين به »

فقالت : « حينما يوجد زعيمان من زعماء الجمعية الوطنية ، لا يليق بى أن أتناول موضوعا كهذا .. أنا نفسى اريد أن أسمع ، فقال برناف : « احقا تريدان أن تسمعى ؟ »

فقالت على الفور : « ولم لا .. ان الاحمق وحده الذى يسد أذنيه عن كلام لا يديره ، أو عن حقائق لا يعلمها ، فان كان فى نية السيد أن يتفضل علينا بحديث ، فان امتناننا له سيكون أكبر من أن نشكره بكلام »

وأدار برناف الفكرة فى رأسه فوجدها جديرة بالتأمل ، ماذا لو لقن هؤلاء مبادئ الثورة ، وشرحها لهم ، وبصرهم بعواقب مسلكهم ، الا يؤدى هذا الى توفير جهد ووقت وأرواح ، ان هذه الجماعة ليست من التجبر والتجرد من المشاعر والخصائص الانسانية كما كان يظن . فهل يكون ما وصلوا اليه من معاداة للشعب ، وتحد لمصالحه ، وأهدار لحقوقه ، من سوء التربية . اى انهم لم يجدوا من يفتح اعينهم على التطور الذى اصاب الشعب ، وعن استنفاد الملكية لاغراضها . ونظر برناف الى مارى انطوانيت فرأى فى تالىق عينيها ، وفى اقبالها عليه ، وترحيبها بكلامه ، ما اغراه على ان ينفذ الفكرة

وحدث فى هذه اللحظة ما قطع بان كل تردد منه فى هذا الصدد ، لا مبرر له . ولكن ما حدث لم يكن كلاما سياسيا ، بل كان عملا صغيرا ابعد ما يكون عن السياسة . فقد اقترب

الصبي - ولى العهد - من ابيه ، وقال فى عبارة صريحة خالية
من الخجل ، انه يريد ان « يتبول » ، قالها كما يقولها اى طفل
فى اى كوخ من اكواخ فرنسا
هل هذا معقول ؟

ان « برناف » يعلم علم اليقين ان هذا الصبي وامه واباه
ليسوا الا آدميين ، بل يعلم انهم آدميون اقل رحمة ، واضعف
احساسا بالانسانية من سائر الآدميين . ولكن الملكية بطقوسها
ومراسمها ، وما اقامته بينها وبين الناس من حواجز ، وما
شيدته من قصور ، وما استخدمته من حرس ، قد نجحت فى
ان تلقى فى روع الناس ان الملوك طراز آخر يختلف عن بنى
البشر

لذلك لم يكن كافيا ان يكون « برناف » ثائرا ، لينزع من
راسه فى الحال اثر هذه السنين الطويلة ، من اسباغ هالات
المجد والقوة على الملوك والذين ينتمون اليهم من اقارب
وحاشية وبطانة . ولو فكر « برناف » قبل هذه اللحظة ،
لقطع بان الملك وان زوجته ككل البشر ، يأكلون ، ثم يحسون
بما يحس به كل انسان ، بل قل كل حيوان ، من حاجات البدن
ولكنه لم يفكر فى شىء من هذا ، حتى سمع ولى العهد يطلب
من الملك ، ومن الملك ذاته ، انه يريد ان يتبول . وما حدث بعد
ذلك كان ادعى الى دهشة برناف وبشيون ، فان الملك لما سمع هذا
الطلب لم يفعل الا ما يفعله اى والد فى قرية صغيرة ، بل لعل
اولاد الفلاحين لا يتوجهون بمطلب كهذا الى آبائهم ، فان

الامهات هن اللائى يعنين بالاطفال ، لاسيما اذا كان الامر متعلقا بهذه الحاجات الحميمة للبدن

ومد الملك يده الى ماتحت مقعده ، واخرج اناء ، وبرناف وبشيون فاغرا الفاه ، ثم مد يده الى ازرار سروال الطفل فحلها ثم أدنى الاناء ، وتبول الطفل ، فامتدت يد الملك للمرة الثانية الى الازرار فعقدتها ، ثم داعب بأطراف أصابعه خد الطفل ، الذى بدا عليه مرح عظيم ..

وابى عقل برناف الفلسفى ، أن يمر بهذه الحادثة سريعا ، فقد ألهمته بفكرة اتفقت مع طابعه الثورى ، وآل على نفسه ان يدعو لها

ان اتصال الحكام بالناس ، وعيشهم فى بساطة ، ورفع الحواجز بينهم وبين المحكومين ، أساس ضرورى لقيام حكم صالح ، وأساس كذلك لاستمرار شعور الشعب بأن الحكام منه ، وضمن لشعور الحاكم بأنه لا يختلف عن بقية الناس

وقال لنفسه : « لقد بلغ بى الامر أن ظننت أن الملك وأقاربه لا تعمل اجسادهم كما تعمل اجسادنا ، وأدهشتنى هذه الظاهرة البسيطة ، وما كان يجب أن تدهشنى فى شيء . ولا شك عندى أن الملوك والامراء ، مع مر الايام وتعاقب الليالى ، يؤمنون بانهم حقا خلقوا لغير ما خلق له سائر البشر . ان هذا ليس سوى المسخ الذى قال عنه « جان جاك روسو » فى كتابه « اميل » حينما جرى قلمه بهذه العبارة الجميلة :

« يخرج كل شيء من يد الطبيعة حسنا جميلا ،

ولكنه ينحط ويفسد متى تنسأولته يد
الانسان . فالانسان يصنع خلقه كلابه ، وخيله ، وعبيده . ويأتى
على كل شيء خلطاً وتشويهاً ، كأنما لا يلتد الا بكل شيء مشوه
ممسوخ ، ويأبى أن يترك شيئاً واحداً على ما صورته يد الطبيعة ،
حتى الانسان ، فانه يجبله على الطريقة التى يهواها كما يصنع
بسرر فرسه ، ويطبعه بالطابع الذى يريد كما يفعل باغصان
بستانه . . . »

لقد كان روسو يتحدث عن المسخ الذى يحدث للكلاب
والحيوانات والاطفال ، ولكنه لم يقل شيئاً عن المسخ الذى
يحدث فى نفوس هؤلاء الذين يبلغون أعلى القمم ، عن الحكام ،
ثم عن المسخ الذى يحدث لصورة هؤلاء الحكام فى أذهان سائر
الناس

ونشط برناف لهذه المناقشة التى أتيحت له ، والتى نشط
لها بشيون من قبل ، منذ وضع قدمه فى العربة . ولكنها كانت
من جانب بشيون ، كما قلنا ، محاضرات ثورية ، يتعلم منها
الملك دروساً فى الادب فى حق الشعب ، وتتعلم منها الملكة
دروساً فى اللياقة ، وحسن السمعة ، والبعد عن الحماقات

ولقد جرحها بشيون فى محاضراته هذه ، قبل أن يتم هذا
التقارب ، جرحاً شديداً ، حينما وجه اليها أول لوم على الهرب
من التويلرى فى عربة يقودها سويدي . . اسمه . . اسمه ؟
وتظاهر بشيون بأنه لا يعرف الاسم ، وأحست مارى انطوانيت
بالطعنة تصل الى اعماق قلبها ، لان هذا السويدي لم يكن
سوى الكونت اليكس فرسن ، الذى دبر لها الهرب ، والذى

بذل في سبيل ذلك كل ما يملك

وعندما سمعت هذه العبارة الجارحة ، كان لابد لها ان تلوذ
بذكرياتها مع هذا الشاب الذي لعله الشخص الوحيد الذي
عرفت معه الحب الجاد في حياتها . مع أنها بدأت هذا الحب
كعادتها في طيش ونزق ، لفت الانظار اليها ، وأهال عليها عتب
البلاط ، ولكنها يوم ذاك كانت لاتزال أميرة ، لم تتخط الثامنة
عشرة ، فكان لها من سنها وقلة خبرتها المعاذير . ومع ذلك
فان السنين لم تنفع في شفاؤها من هذا الحب ، بل زاد مع
الايام تأكدا وتأصلا وثباتا

ذكرت كيف رأت اليكس لأول مرة في حفلة من حفلات
الرقص التنكرية ، فراعها ما يبدو على تقاطيع وجهه الذي كان
جميلا غاية الجمال ، من جد يكاد أن يكون صارما . كان وجهها
صريحا ، ذا تقاطيع متناسقة ، تلمع في صفحته عينان تلوح في
سمائهما آيات التفكير ، يعلوهما حاجبان مقوسان ، كثيفان
أسودان . وتعلو هذين الحاجبين جبهة جميلة التكوين ، وتكمل
الصورة الجميلة شفتان ورديتان ، يظهر منهما أن صاحبهما
يعرف قيمة الصمت ويقدره حق قدره . . أما قوامه فكان بديعا
او الترهل شيء ، ذا كتفين عريضتين ، ليس فيه من السمنة

ولم يكن اليكس من عائلات الاشراف الكبيرة في السويد ،
بل كان من الاشراف المتوسطى الحال ، أراد له أبوه ، وكان
عضوا في مجلس الشيوخ ، أن يكون من ذوى المناصب الكبيرة

فى الدولة ، فأعد له برنامجا نافعا من الدراسة • فقصده الى
ايطاليا ليتعلم الموسيقى والطب ، والى المانيا ليتعلم الادب
والحرب ، والى جنيف لينال شرف المثول بين يدى استاذ الحكمة
والفلسفة فى ذلك العهد « فولتير » • وقد لقيه الفيلسوف فعلا
فى عباةته ، وأسبغ عليه فضله

فلما نزل ببافيس ، بلد المتع الجسدية الممتزجة بمتع العقل ،
بلد الحفلات الباهرة ، رأى النساء الجميلات والشبان الذين
يحمون حول الجمال ، كأنهم فى عرض دائم مستمر • ورآهم
لا يتنافسون فيه على قلوب الغواني ، بجمال الوجه والقامة
فحسب ، بل أيضا بالبراعة فى الصيد ، والمهارة فى لعب
الورق ، وقبل كل شىء وبعد كل شىء بحلاوة الحديث ، واثقان
فن الحوار • فالمرأة الباريسية فى ذلك المجتمع المترف ، لطول
ما استمتعت باللذائذ الجسدية ، أصبحت فى حاجة الى ما يثير
فضولها ، ويسليها ، ويرضى كبرياءها • وكان الحديث الذكى
الوسيلة الى تملق هذه الكبرياء ، وإيهامها بأنها تفكر وتخلب
الالباب بذكائها كما تخلبها بجمالها ، ولم يكد نظر مارى
انطوانيت يقع على اليكس فرسن فى حفلة الرقص التنكرية ،
حتى اندفعت نحوه ، دون أن تقدم نفسها اليه ، ودون أن يقدمها
اليه أحد سواها ، وأخذت تجاذبه أطراف الحديث ، فاتجهت
نحوها مئات الاعين ، وضرب الفضول حولهما نطاقا ضيقا
محكما ، والحديث بينهما يزداد عذوبة ، تفوح منه رائحة الغزل
فغابا عن القاعة ومن فيها • • وبعد حين أحست مارى انطوانيت

بحرج الموقف ، فلم تر بدا من أن تعلن عن شخصيتها ، فحسرت
القناع عن وجهها ، وبهت فرسن الشاب الصغير الذي لم يكن
يطمع في أن يظفر بهذه النتيجة الباهرة ، من حيث لا يدري ولا
يحتسب . واشتد غضب رجال البلاط ونسائه ، وأبعدوا الاميرة
الى أحد « البناوير » وجعلوا ظهرها نحو قاعة الرقص . ولكن
فرسن أصبح عضوا مواظبا على حضور حفلات لعب الورق التي
تنظم للاميرة . وسألته يوما لماذا لم يحضر حفلة بالذات من
تلك الحفلات فقال انه حضر في الموعد ولكنه وجد أن الحفلة
قد ألغيت ، فاعتذرت وأطالت الاعتذار ، وهي المتكبرة
المتغطسة

ولقد سجل فرسن في مذكراته بعد ذلك ، أنه لم يحضر
سهرة من سهرات هذا اللعب ، الا وجدت الاميرة مبررا للتحذر
معه . وسألته يوما ان يحضر الى فرساي في ثيابه الرسمية
السويدية ، ومع أن ذلك كان مخالفا لبروتوكول القصر ، الا
انها لم تحفل بهذا البروتوكول ، ولم يكثرث هو كذلك . ولم
يطل فصل غرامهما الاول لانها ارتقت العرش ، وأصبح
لقاؤهما عسيرا

غير أن والد فرسن ارسل بعد ذلك ابنه الى لندن وباريس
ليخطب احدي أنستين ، اما مس يل من انجلترا ،
واما مدهوازيل نكر ، ابنة الوزير نكر ، التي أصبحت
فيما بعد مدام دي ستايل ، والتي اشتهرت
في عالم القلم بعداوتها العنيفة لنابليون . ولما وفد
فرسن الى باريس قدم نفسه للبلاط ، فلقية الملك لقاء فاترا

واما الملكة فلم يكدها نظرها يقع عليه حتى هتفت : « هذا صديق
قديم » ولكن كان استمرار علاقتهما لعبا بالنار ، فقد كان
شغفها أقوى من أن يكتف ، ولقد لحظ نساء البلاط ورجالها ،
كيف كانت الملكة تضطرب اضطرابا واضحا حينما يدخل
فرسن الى قاعة من قاعات القصر ، على غير انتظار منها ، كما
ذكروا انها كانت تغنى أغنية تقول الفاظها : « انى اكون أعظم
ما اكون الهاما ، حينما اتلقاتك فى قلبى » فلم تبرح عينها وجه
فرسن طوال غناء هذا الدور ، كأنما هى تناجيه بالفاظه
ماذا يفعل فرسن ؟ لقد أيقن ان الملكة تحبه ، وقد بادلها
الحب ، ولكنه كان حريصا فى الوقت نفسه على ان يصون لها
شرفها ، فكيف يكون ذلك ؟ أيتظاهر بزهد فى حبها أو يرفضه
كلية على طريقة النبى يوسف ، فيصدمها ؟ ان ذلك فوق طاقته ..
وهدته الحيلة الى حل يتفق مع طبيعته ، فقد قرر أن يلحق
بجيوش الجنرال لافاييت التى سافرت الى امريكا ، لتحارب فى
صف الثوار ضد الانجليز .. وقد بقيت عينا الملكة عليه
طوال المدة السابقة على رحيله ، لا تدعه أبدا . ولما حانت
ساعة الفراق ، ودعته دامعة العينين .. اما اهل الفضول من
نساء القصر ، فلم يصدقن ان هذا المحب المتفانى ، سيدع
حبيبته . ولم تستطع احداهن ان تمسك لسانها فقالت له :
« ماذا ياسيدى ، اعزمت على ان تترك من غزوت ، فى المحنة ؟ »
فاجابها الكونت على الفور : « لو انى غزوت احدا ، ما تركته
يعانى »

والحق يقال أن هذا المسلك من بدايته الى نهايته ، بل هذا
الرد ، كان دليلا على أن فرسن كان نموذجا عاليا في ضبط
النفس ، الأمر الذي لاحظته سفير المملكة السويدية في خطاب
منه الى ملك السويد

ومضت سنوات أربع ، فرض خلالها فرسن على نفسه
نفيا اختياريا فيما وراء المحيط الاطلسي يحارب من اجل
الحرية وتحت علمها ، في الولايات المتحدة ، ضد الاستعمار
البريطاني ، ولما عادت القوات الامريكية الاضافية الى اوربا
في يونية سنة ١٨٨٣ ، انطلق لفوره الى فرساي

وصعب عليه بعد ذلك ان يفترق عن الملكة ، فقدم طلبا
بايحاء منها ، ليتولى قيادة احدى الفرق الفرنسية ، فثارت
ثائرة ابيه عضو الشيوخ السويدي ، وقال لماذا الاصرار على
البقاء في فرنسا ، وفرنسا بالذات ، بينما شمل الملك السويدي
فرسن الصغير بعطفه . وبفضل هذا العطف الملكي كان في وسع
الشاب ان يصل الى ما يشاء من مناصب الدولة ، لا سيما بعد
ان تدرس بفنون الحرب في ميادين القتال ، وازاء الحاج الأب
اضطر الابن أن ينتحل عذرا للبقاء في فرنسا ، وهو رغبته في أن
يخطب لنفسه مدموازيل نكر ذات الملايين السويسرية ! ولكنه
كتب في الوقت نفسه الى شقيقه يقول : « لقد عزمت الا اتزوج
... فأننى لا أستطيع ان اتزوج المرأة التي يتوق قلبى الى
الزواج بها ، فلايقين الى آخر العمر بلا زواج »
واجيب فرسن الشاب الى طلبه ، وعين قائدا لحدى الفرق

الفرنسية ، وخطر الملك جوستاف ملك السويد بهذا التعمين ،
ولكن لم يتول خطاره قائد الجيش ، بل خطره الملكة ! وعزم
فرسن ان يبقى الى جوار الملكة ، ولكنه على الرغم منه اضطر
الى ترك باريس لمصاحبة ملك السويد ، فقد اختاره الملك ان
يكون ياورا له فى رحلات خارج السويد استمرت عامين ، عاد
بعدهما فوجد ماري انطوانيت قد تغيرت كثيرا . فقد كبرت
فى هذين العامين ، وكأنما كانا عشرين عاما . لم يصبها الهرم ،
فقد ازدادت جمالا وشبابا ، وانما كبر عقلها ، ونضجت ،
وازدادت فهما للناس ، فقد اقترن اسمها بفضيحة لم يكن لها
فيها دور ولا يد ، فتلوث اسمها ، وكرهها الناس ، ففقدت
ما كان لها فى القلوب من مكانة . صهرتها هذه المحنة ، وعلى
ضوئها أدركت أن عالم الخفة والنزق لم يجر عليها الا الوبال وأن
الاصدقاء الذين حولها ، ليس فيهم من يستحق الثقة ولا
الاحترام . وبحشت عن صديق يعتمد عليه ، ويرجى منه ،
فكان فرسن وحده

نعم ، أحس فرسن أنها ، بعد ان هوجمت وأحيط بها ،
وتهددتها المخاطر وكرهت ، قد زادت قدرا فى نفسه ، واستحقت
منه حبا أعظم ، وتفانيا أكثر عمقا

وقد كتب لاخته يقول عنها : « انها أشد ما تكون تعاسة
الا ان شجاعته التى كانت فوق كل وصف ، جعلتها أكثر
جاذبية ، غير انى أشعر ان سبب شقوتى الوحيد ، هو انى
لا أستطيع ان اعوضها عما تقاسيه ، وانه لن يكون فى وسعى ان

امنحها السعادة التي تستحقها »

والحق انهما حين كانا يلتقيان ، كانت تبثه همومها ، وتلقى جانبا قيودها الملكية ، وتبكي ، تبكي بالدموع الفزار الساعات الطوال . لقد ذهبت نزوات الشباب ، وأصبح ما بينهما حبا فازدادا عليه حرصا ، فنقلت قيادته من فرقة بباريس ، الى فرقة على الحدود بالقرب من هولندا ، لكيلا يتيحها للالسنة فرصة النيل منهما . ولم يعد يغشى المجتمعات التي تغشاهما الملكة ، ولا الحفلات التي تقيمها ، ولا الرحلات التي تقوم بها . وحين يأتي الى باريس ليراها لم يكن يذكر في الاوراق الرسمية من استدعاء ، وكان يخفى عن أصدقائه الى أين هو ذاهب . بل لقد استمرت الملكة توزع على من يحسبون أنفسهم متمتعين بصداقتها أو حظوتها أو عطفها ، الاهتمام والرعاية ، كأنها لا تحب أحدا ، وكأن قلبها لا يشغله شاغل

ولما زاد الخطر اقترابا منها ، وتهديدا لمركزها ثم لحياتها ، وفر كل الاصدقاء ، وتركوها وحدها ، كان فرسن هو الصديق الذي ظهر علنا ، وأصبح تردده على قصر التريانو كثيرا ، ولم يعد يخرج خطاب منه الى خارجه ، الا بعد أن يمر عليه هو ، ولم تثر مشكلة الا شارك في مناقشتها ، ولم يقترح حل الا أبدى فيه رأيا ، ولم يصدر قرار الا بعد موافقته . فلم يكن صديق الرخاء ، بل كان صديق الشدة ، ولم يقترب منها ليكسب من جاهها او ليستمتع بمالها ، بل لانه احبها واخلص لها الحب ، فلما كسفت شمسها ، ودالت دولتها ، وانتهت

أبام سعادتها ، زاد تفانيا و إخلاصا
ذكرت الملكة كل ذلك حينما ذكر بشيون اسمه ، أو حين
غمزها بالتلميح اليه هذه الغمزة القاسية ، وأحست ان هذه
الذكريات التي تتابعت في مخيلتها ، قد قوتها ، وأمدتها بدخيرة
من الثبات وضبط النفس ستعينها على هذه المناقشة التي
ستدور رحاها بينها وبين ممثلى الجمعية الوطنية التي تعتبرها
الد اعداء الشعب وأشد خصوم الثورة

ولقد كانت فى الواقع فى حاجة الى هذا الزاد لان هذه
المناقشة لم تكن فى رأيها مجرد وسيلة لقضاء الوقت ، ولا رغبة
فى تخفيف قسوة الجو الذى ساد العربية ، بل كان عملا سياسيا ،
انتبهت اليه نفسها ، فقررت ان تنفذه وان تفيد منه ، قدر
استطاعتها . فهذان الزعيمان على غلظة مظهرهما ، بدوا
انسانين ، يتأثران تأثرا بالغا بكل مظهر لطيف من مظاهر الحياة
البسيطة . وهما كما يبدو من ذوى النفوذ فى الجمعية
الوطنية ، فلو كسبت ودهما ، وأحسنن الدفاع عن نفسها ،
وعن الملكية وزوجها ، فربما احسنا اليها فى المستقبل

لقد ثبت لها أن الزعيمين كانا يحسبانها وحشا كاسرا ، وانها
لا تعرف شيئا عن الحب الانسانى ، ولا يطيب فى فمها الا طعم
الترف ، وانها لم تفكر فى شيء مما يشغل الناس ، ولم تسمع
عن الافكار التي تقوم عليها الثورة وتنادى بها ، فلماذا لا تعرض
عليهما ما تفهمه وما تعيه ؟ ولماذا لا تبدو لهما فى ثوب المرأة لا
الملكة ، وفى صورة التعسة لا القوية ، وفى صورة الام البائسة .

لا العاشقة المتولهة ؟ لماذا لا تناقش مبادئ الثورة ، لامناقشة الكارء
المعادى ، بل مناقشة الراغب فى الفهم ؟ ولماذا لا تقىم الاعتراضات
عساها تقنع أو على الأقل ، لىبدو اقتناعها طبعيا لا تمثىل فیه
حقیقیا لا زىف به

كانت هذه فرصة ذهبية لها ، عضت علیها بالنواجذ . وقد
رحب بها برناف اول الامر لىكشف هذا العالم الغامض ، عالم
الملكية ، والملكة بالذات ، ولیرى ما ذا تخبئه هذه الشابة ، النظرة
التي رآها اول مارآها فى هذه العربة ، مجللة بالحزن والالم ،
والشعور بالخيبة والخجل ، ومع ذلك بهرتة بجمالها وجرس
صوتها ، وتدفق حیويتها وسرعة خاطرها ، ودنوها منه كأنما
كانا صاحبين طول العمر . أما بشیون فقد داعب خیاله - ولم
تكن النية قد انعقدت بعد على انهاء النظام الملكى - ان یقوم
من امر هذه الاسرة ، وان یبصرها بخطر أصرارها على المسلك
الذى سلكته ، عساها أن تنصلح ، وتستقیم ، وتسایر الثورة
وتنزل راضية للشعب عن حقوقه

ولو كشف ستار الغیب لهؤلاء جمیعا ، لعرفوا كم تهزأ
المقادیر بالناس فتوهمهم بأنهم أصحاب الامر فى الدنيا ،
أو أصحاب الامر فى مصائرهم ، فىحاولون ، ویرسومون الخطط
ویفكرون ویدبرون

ولكننا لا نرید ان نسبق الحوادث ، وان نرفع الستار
عما جاءت به الايام من أحداث ، تحدد بها مصیر هؤلاء الذین
جمعتهم العربة من ثوار ، وملکیین

الفصل الخامس

بدأ الحوار ، فوصف بشيون حالة الفلاح الفرنسى فى ظل الملكية وقبل الثورة ، وأنصتت الملكة ، وأنصت الملك ، وأنصت ولى العهد وشقيقته .. ولم تنصت شقيقة الملك ولا وصيفة الملكة ، فقد كان هذا الحديث بالنسبة لهما مسئما ولا محل له

قال بشيون : انتم ايها الملكيون ، لاتكفون عن القول بأن الثورة هى جنون طارىء اعتري عقل الامة ، فعطله الى حين ، وأن الامة ستثوب الى صوابها بعد حين ، فتخجل مما فعلت ، وتندم على ما جنت .. اليس هذا صحيحا ؟

اما الملك فهز رأسه علامة الموافقة . اما الملكة فقد ابتسمت ابتسامة « دبلوماسية » لا هى الى الموافقة ، ولا هى الى المخالفة

فقال عضو الجمعية الوطنية : حسنا لنرى ماذا كان يحدث قبل الثورة ، مما ترونه عقلا وحكمة وسداد رأى . كان فى البلاط ١٨٠٠ موظف ، وفى البلاد ١٥ الف شريف ونبيل ، وكان هناك امراء الكنيسة ، من كرادلة ورؤساء ابروشيات .. والى هؤلاء جميعا يذهب خير البلاد . كان الاشراف يعفون من

الضرائب ، اما الفلاح فيدفعها . كانت املاك الكنيسة معفاة من
الضرائب ، اما أرض الفلاح فمثقلة بها . . . كان الفلاح يدفع الضرائب
لمن ؟ انه لا يدفعها مرة واحدة ولا مرتين ولا ثلاث مرات . . .
يدفع للحكومة ، ويدفع للشریف ، ويدفع للكنيسة . . . فاذا
كسب الفلاح مائة فرنك ، دفع منها ضرائب تلتهمها بحيث لا يبقى
له منها سوى ١٤ فرنكا . ولم تكن الضرائب مباشرة ، يدفعها
وهو يعرف قيمتها ، بل كانت هناك مئات الضرائب غير المباشرة
فهو يدفعها مثلا عن الملح ، ويأليته كان يدفع هذه الضريبة مرة
واحدة ، فالملاح الذي يشتري وتدفع ضريبته لاستعماله في الطعام ،
لا يجوز للفلاح أن يستعمله مثلا في تمليح خنزير . وكان هذا
يستتبع تعرض الفلاح دائما للتفتيش ، وما يصحبه من مفاجآت
بالليل ، ومهانات ومخاوف بالنهار ولم تكن الضريبة في مقاطعة
مماثلة لنفس الضريبة في مقاطعة اخرى ، فأدى ذلك قطعاً
الى التهريب ، وترتب على التهريب ، المطاردة والتفتيش ،
والحبس وانقطاع الارزاق . . . هذا هو حال الفلاح

فهل هذا في رأيكم هو العقل ؟ أهذا الظلم المستقر الثابت
عقل ورشاد وحكمة ؟ أم تغير هذا الظلم هو الجنون والثورة ؟
فقال الملك في اقتضاب وخجل : أنا لم أرض عن هذا .
لست مسئولاً عنه !

فقال بشيون وكأنه يصرخ : من المسئول اذن ؟ أنا . . . أم
هؤلاء المساكين الذين لا يجدون قوت يومهم الا اذا نرغوا دماً ؟
ومع ذلك اهذا كل ما يعانيه الفلاح . . . ابدا كانت هناك

حقوق الصيد

قالت شقيقة الملك : كان ذلك من اثر الاقطاع

فقال برناف : ولكن لا يزال باقيا . . كان الملك يمنح الامراء حق الصيد ، لافى الضياع الملكية الواسعة ، بل فى اية ضيعة يحلو لهم فيها الصيد ، ويكثر بها الطير . فيحظر على اى انسان آخر ان يمارس هذه الهواية ، او يمد يده الى طير او وحش . بل لا يجوز للفلاح المسكين الذى يشقى فى اعداد ارضه وتهيتها ان تمتد يده الى الطيور التى تفسد عليه زراعته . او الحيوانات التى تاكل ثمار عمله . فاذا ضاق الفلاح او ضاق احد اولاده ذرعا بهذا الهلاك النازل برزقه ، حل به الويل والدمار وسبق الى السجن ، وكأنه اتى امرا ادا

نظر ولى العهد الى وجه المتكلم ، وقد استولى على لبه الاسلوب الذى كان يتكلم به . . وانطلق بشيون يقول :

لم يكن محرما على الفلاح ان يهش عن زرعه الطير والحيوان مهما آذاه فحسب ، بل كان محظورا عليه فوق ذلك ان يقتلع من الارض الحشائش التى تنفع فى اجتذاب الصيد وان أضرت بالارض

قالت شقيقة الملك : ان الملك لم يمنح احدا هذا الحق

قال الملك فى فتور : ابدا

قال بشيون : لكن الحقوق التى منحت قبل ذلك كانت كافية لبنوء تحتها الفلاح . لم يكن ممكنا اضافة شىء جديد فوق احماله . ومع ذلك اكانت هذه كل الاهوال التى يكابدها الفلاح

الفرنسي ؟ أبدا .. فقد كانت هناك الاوامر المغلقة التي كان اصحاب المال يشترونها فيجدونها ممهورة بامضاء الملك أو أحد وزرائه ، متضمنة الاذن بالقبض على شخص متروك مكان اسمه خال وما على مشتري الامر الا أن يضع اسم من يختاره ليقبض عليه ويلقى به في السجن ، دون أن يعرف الذنب الذي ارتكبه ، ولا الشخص الذي حبسه ، ولا المدة التي سيقضيها بعيدا عن أهله وعمله .. هذا يحدث والكنيسة قائمة ، تعظ الناس بمبادئ المسيح ، وتدعو الى المحبة والانسانية . وبرلمانات باريس وغيرها تقول انها تحمي الناس من الظلم

وتدخل برناف قائلا : ان المحاكم نفسها جارت بالشكوى مما يصيب احكامها بسبب هذه الاوامر المغلقة .. أن قصة مونرا لا تزال مذكورة

فعقد الملك ما بين حاجبيه وقال : مو .. نرا .. لا أذكر شيئا . لا أعرف هذا الاسم

فقال برناف : ان حادثة مونرا وقعت في عهد جلدك لويس الخامس عشر

فقال الملك : آه ، هي اذن قصة قديمة

فقال برناف : ومع ذلك فان هذا القديم لم ينته

فقال بشيون : أرو القصة ، فلعل الملكة تحب أن تسمعها

فقالت الملكة : طبعاً

فقال برناف : ان مونرا التعس لم يكن سوى سمي رجل آخر ، وكان مونرا الآخر ، قد اتهم في قضية تهريب ، فقبض

على البريء ، واخذ بجريرة المجرم ، لمجرد التشابه في الاسم
ولما خرج من السجن رفع دعوى تعويض عن حبسه بلا ذنب ،
وطلب مبلغا كبيرا ، وحكمت له المحكمة بما طلب ، فاستعان
محصلو الضرائب بمجلس الملك ليلغى الحكم فألفاه ، فاحتجت
المحكمة وقالت في احتجاجها ما معناه ان جباة الضرائب قبضوا
على رجل اسمه مونرا من غير مراعاة الاجراءات القانونية التي
يجب اتباعها في مثل تلك الاحوال ، والقي الرجل في السجن
بعد ذلك بقليل حيث قضى عشرين شهرا ، وكان ذلك بناء على
امر صادر باسم جلالة الملك . . وقد وصفت المحكمة في
احتجاجها السجن الذي القى فيه مونرا ، فقالت : انه يشتمل
على حفر معتمة أعدت للمجرمين الذين صدر عنهم عفو بعد
الحكم عليهم بالاعدام ، اذا كان سبب العفو اعترافهم على زملائهم
الذين اشتركوا معهم في جرائمهم . ولما كان لابد من توصيل
شيء من الهواء الى تلك الحفر مع بقائها في ظلام حالك ، ركبت
فيها انابيب توصل اليها القليل من الهواء دون ان تسمح بنفاذ
شيء من الضوء ، وكان يشد وثاق أهل تلك الحفر الى جدرانها
بسلسلة غليظة ثقيلة ، ولم يكن يسمح لهم فيها بغير شيء قليل
من القش والخبز القفار . . وقالت المحكمة للملك ان جلالته
لاشك يرى ان تهمة التهريب لا تكفي لان يطرح انسان في هذا
القبر المريع شهرا واحدا

وقالت المحكمة ان جباة الضرائب كلما أعوزهم الدليل
القاطع على اثبات التهمة على شخص ينسبون اليه التهريب

لجنوا الى استصدار أوامر الملك المعروفة باسم الخطابات
المختومة ، لتوقيع العقاب على البائس الذى شاء له سوء حظه
ان يكون هدفا لفضب الجباة

واذكر ان المحكمة قالت ان هذه الاوامر التحكيمية كانت دائما
سعيًا فى انتهاك اقدس الحريات .. واذا كان من يحصل على
الخطابات المختومة قادرا على ان يحتّمى بالملك ، فكيف يمكن
القول بأن رعايا جلالته فى حماية القانون وتحقق ظله ؟

وقال بشيون : لم تكن هناك فرنسا يا صاحبى الجلالة ، انما
كانت هناك مجموعة من الدول تعيش فى بلادنا .. فلكل مقاطعة
قانونها وضرائبها ، وبرلماناتها . ومن هنا تعثرت التجارة
والزراعة ، وناء الفلاح تحت عبء هذا الخراب المالى والادارى ..
كان هذا عقلا يا صاحبى الجلالة ، أما اصلاح هذا الذى يسمى
عقلا ، اما اعطاء الفلاح لقمة عيش يأكلها ، وقطعة من ثوب
يستتر بها ، وشيئا من راحة البال ، فهو الجنون

وغلبت الحماسة على بشيون حتى أصبح أشبه شىء بخطيب
يتحدث الى الجماهير .. وامتقع وجه الفتاة الصغيرة ، وأحست
أن هناك خطرا يهددها ويهدد أمها وأباها ، فاحتمت بحضن
أمها ، فوضعت الام يدها على كتف ابنتها فى رفق شديد ،
وقالت فى همس « لا تراعى يا ابنتى .. لا تراعى »

وكان هذه العبارة الهامسة قد لفتت بشيون الى أنه قد
غلبته حماسته فعلا صوته ، وقست عبارته ، فى غير حاجة
الى هذا كله ، فتوقف قليلا ونظر الى ابنة الملك وهى فى أحضان

أمها ، فلفظ من الصورة التي انطبعت على وجهه ، بابتسامة خفيفة ونظر الى خارج العربة ، وكانت في هذه اللحظة تجتاز حقولا خلت من الناس ، ثم بدا عليه شيء من الارتباك ، لأنه احس بالحاجة الى ان يمد يده الى الفتاة التي ارتسم على وجهها الخوف والانزعاج ، ولم يدر ايحسن اذا فعل ذلك ام بخطيء ، وكان سبب ارتبائه شعوره بأنه لا يجوز له ان يسقط الكلفة بينه وبين العائلة المالكة الى هذا الحد . ولكن يده امتدت مع ذلك الى الفتاة في لطف باد ، ورغبة صريحة في المجاملة . ولكن الفتاة تداخلت في نفسها ، وازدادت التصاقا بأمها وشملها فزع كبير ، بينما كان أخوها الذي يصغرها ينظر الى ذلك كله في سرور شديد ، أو على الأقل في فضول عجيب . وقد كانت القصص التي تروى على مسمعه مسلية ومثيرة للاهتمام ، لأنه لم يسمع شيئا منها من قبل ، ولم يسمعها على كل حال تروى بهذه اللهجة ، وبهذا الأسلوب ، ومن هذا الشخص

واخذت الملكة تستحث ابنتها عبثا ، لتصافح اليد الممدودة فقالت لها همسا : « عيب .. عيب .. صافحى السيد » .. واصرت الفتاة على موقفها . وسحب بشيون يده ، دون ان يبدو عليه أى امتعاض ، وان بدا عليه شرود ذهن دل على انه كان يفكر في كل الذى قال ، وفيما يجب قوله بعد ذلك

وسألت شقيقة الملك : أين نحن الآن ؟

واطل برناف والملكة والطفل من النافذة ، وقال برناف :

نحن على ابواب شالون

ثم ساد المكان هدوء عميق ، وصمت كل ركاب العربية صفحا
طويلا



ولم يكن متوقعا أنه حينما يستأنف الحديث ان يكون المبتدئ
هو الملك ، الذي قال :

ان من يذكر المساوىء لا يملك أن يدعى الحق في أن يصلحها ،
وبالاسلوب الذي يختاره لمجرد أنه يذكرها . فأنت أيها السيد
مثلا تتصور أنك وحدك الذي يعرف كل ما يشكو منه الشعب ،
وكل ما تشكو منه الدولة ، فاذا عدت هذه العيوب ، اعتبرت نفسك
مصلحا واعتبرت غيرك في الحال مفسدا ، لانه لا يفعل مثلك ،
بمعنى انه لا يعدد تلك العيوب

ولم يكن بشيون ينتظر من الملك ان يكون قادرا على أن يقول
أى كلام . ولكن آخر ما كان ينتظره منه ان يقول كلاما يكاد يكون
تحديا كاملا له . فانفجر يقول :

من هو صاحب الحق في أن يصلح المفاسد التى نشكو
منها ؟

فقال الملك فى هدوء أحق بأن يوصف بالبرود : من يستطيع
الاصلاح

فقال بشيون : ومن الذى يستطيع الاصلاح ؟

فأجاب الملك : من يملك وسائله !

فقال بشيون وكأنه يود أن يصفع الملك : ومن يملك وسائل
هذا الاصلاح ؟ اتظن انه البلاط ؟ ان البلاط انفق على موظفين

ليس لهم اماكن خالية في وظائف القصر ، في مدة اقل من ثلاث سنوات ، مليونين ونصف مليون من الجنيهات ، ونحن الان مهددون بمجاعة قمح ، مجاعة خبز . يحدث هذا في بلد هي اكبر بلاد اوربا الزراعية !

فقلت شقيقة الملك : القمح موجود

فقال برناف : اين ذهب اذن ؟

فقلت شقيقة الملك بسذاجة : انت تعرف لقد كان مخبأ

فصرخ بشيون : من الذي خبأه . ان القصر يقول ان الدوق دورليان هو الذي خبأه ليسى الى قضية الملك ، وليتخذ من رعاى باريس ، نعم رعاى باريس كما تقولون ، وسائل لافساد قضية الملك . اليس هذا ما تقولونه ؟

فأمنت شقيقة الملك على ذلك في اندفاع : نعم ، هو الذي فعل ذلك ، هذا حق صراح

فقال بشيون : حسنا ! الدوق دورليان ليس ابن اخ الشعب ولا ابن عمه ، انه ابن اخ الملك ، فالاسرة المالكة مسئولة اولا واخيرا

فتدخلت الملكة قائلة : ان الملك لايعنى ماظننت . هو يقول ان بعض الناس يعتقدون انهم لمجرد امكانهم أن يروا البشرة على وجه المريض ، حق لهم ان يعالجوها . ألم يقل المسسيو « كالون » كلاما عن عيوب الحكم ، أشد مما قالته جميع أحزاب الثورة ؟ ..

فقال برناف : نعم ، ان وزير المالية كالون قال ان فرنسا

مملكة تتكون من ولايات واقطار منفصلة ذات ادارات مختلفة ،
لاتعرف مقاطعاتها شيئاً عن بعضها البعض ، وبينما لاتحمل
بعض جهاتها عبئاً ما ، يقع العبء كله على الجهات الاخرى ،
وحيث اكثر الطبقات فيها ثراء يفرض عليها اخف الضرائب ،
فى الوقت الذى يفرض فيه على أفقر الطبقات أفدح الضرائب ..
ان الامتيازات التى تختص بها بعض الطبقات تحول دون اى
توازن ، بحيث يتعذر اقامة حكم ثابت دائم ، ووجود آراء
مشتركة .. فلا عجب اذا هى غصت بالعيوب وحفلت بالمساوى ..
ومن المتعذر فى حالتها الراهنة ان تحكم حكماً صالحاً

فقالت الملكة : كانى بك قد حفظت كلامه عن ظهر قلب
فقال برناف : نعم ، انه وصف شامل للحالة

فقالت الملكة : ولكن ماذا كسبنا من هذا الكلام ؟ لقد اتضح
ان الذى قاله ؛ لم يفعل فى سبيل اصلاح الميزانية الا ان يعقد
قروضا ، حتى كاد يفرق الدولة فى الديون

ولم يستطع ركاب العربة ان يمضوا فى المناقشة .. فقد
حدث أمران ، أحدهما كان معنوياً بحثاً ، والثانى كان مادياً
صرفاً

وقد وقعا فى وقت واحد

كان الليل قد بدأ يرخى سدوله ، وكانت العربة قد وصلت
الى مدخل مدينة « شالون » وفى هذا المدخل ، رأت مارى
انطوانيت شيئاً اهتزت له كل شعرة فيها ، فقد كان هناك
قوس نصر من الحجر ، تجمع عند طرفه البعيد ، عدد من أهالى
المدينة

ولم يكن هذا القوس سوى نفس القوس الذى اقامه اهل
هذه المدينة نفسها منذ عشرين سنة مضت ، عندما كانت ماري
انطوانيت فى طريقها من الحدود الشرقية لفرنسا ، الى فرساي ،
بوصفها عروس ولى العهد . وقد اجتمع اهالى نفس المدينة
يستقبلونها ، كما اجتمعوا الليلة ، ليستقبلوها كذلك

ولم يفت اهالى المدينة عندما اقاموا ذلك النصب ان يكتبوا
عليه باللاتينية « عسى ان يخلد هذا النصب خلود حينا » وقد
بقى النصب ، فهل بقى الحب ؟

كان الجواب حاضرا ، فقد اندفعت الجماهير من سكان
شالون نحو العربة ، وانهالت على الملكة والملك بأقبح الشتائم ،
واستمطرت عليهما وعلى أولادهما أقسى اللعنات

وكان النصب التذكارى شاهدا يرى ويسمع ، وكأن على
شفتيه ابتسامة ساخرة

لقد قام بواجبه فخلد ، لم يسقط منه حجر ، ولم يمح من
فوقه رمز ، ولم يزل من كتاباته حرف

ولكن ابحت عن حب القلوب ، وعما تضره النفوس

ولم يستطع أحد من أهل هذه العربة ان يفكر أو يتأمل ،
فقد علا صوت الشعب ، فلم يعد لنقاش المتناقشين محل ،
ولا مبرر

وبعد قليل اختفى كل شيء أمام ناظرى ماري انطوانيت ،
فقد لاذت كهادتها بخيالها ، لتنسى واقعها الحزين
فما اعظم الخيال من نعمة !

الفصل السادس

نفس الطريق ، ونفس المدينة ، وعربة مشابهة ، بفارق واحد ، ان العربة التي اقلتها منذ عشرين عاما ، كانت عربة ملكية ، ظاهرا وباطنا . تحمل من الخارج شارات الملك ، وتحمل من الداخل ملك فرنسا لويس الخامس عشر ، والى جواره عروس حفيده الصغيرة السن والجسم ، وحفيده القصير النظر ، الضخم الجثة ، البطيء الحركة ، البارد الطبع

وذكرت الملكة كيف حضرت وجهزت ، كهروس لملك فرنسا المستقبل ، وولى عهد عرشه الحالى

فقد قضت التقاليد الا تتخطى حدود بلادها ، الى فرنسا ، وهى تحمل على جسمها شيئاً ما يمت الى بلدها الاصلى ، النمسا . . يجب ان تنذر نفسها ، وأن تسلمها لفرنسا ، دون ان يعلق بجسمها شيء يذكرها بالنمسا . لذلك اعد صالون مجاور للقاعة التى كان ينتظرها فيها الوفد الفرنسى الذى جاء الى الحدود . وفى هذا الصالون ، خلعت الاميرة النمساوية الصغيرة ، كل شيء ، حتى اصبحت عارية تماما كما ولدتها امها وبسرعة بدأت الصبية الصغيرة النحيلة ، تضع على جسمها

الفضيل ، قميصا صنع من حرير فرنسا ، من باريس ، وجوارب من ليون ، وحذاء من صنع مورد الاحذية للقصر الملكى الفرنسى . وكذلك الشرائط ، والمناديل ، وكل صغيرة وكبيرة . اخذ منها كل مايمكن ان يذكرها بالنمسا ، ويحفظ لها ذكرياتها فى بلدها الاصيل . فلم يبق معها خاتم ، ولا صليب . وكانت محاولتها الاحتفاظ بدبوس أو مشبك ، أو رباط أو جورب ، أو عقد عزيز عليها ، مخالفة لاصول اللياقة ، فالامر عند رجال التشريفات الملكية الفرنسية والنمساوية ، لم يكن مجرد تغيير مادي ، بل كان امر تغيير روحى ، وتهيئة نفسية

فلما اتمت هذا الاجراء ، او تلك الطقوس ، خرجت من الحجرة الى القاعة حيث كانت حاشيتها الفرنسية فى الانتظار . فأمسك بها الكونت ستارهمبرج النمساوى من يدها ، تتبعهما الحاشية النمساوية ، فقد كان باقيا من عمر جنسيتها النمساوية ، نحو دقيقتين . . وفى قاعة الانتقال هذه ألقى مندوب الملك الفرنسى خطبة رسمية ، ثم تلا عقد الزواج بصوت عال ، ثم تابع الحفل الرسمى ، والحاضرون يكتمون انفاسهم روعة واحتراما

ووضعت فى منتصف القاعة منضدة ، كانت ترمز الى الحدود بين الدولتين ، وأمام المنضدة وقف النمساويون ، بينما وقف خلفها الفرنسيون . فسلم الكونت ستارهمبرج النمساوى يد الاميرة الى مندوب الملك الفرنسى الذى قادها فى خطوات منزلة ، ويدها تضطرب ، حول المنضدة . تمت فى هذه الدقائق

المرسومة خطواتها حسب النظام الموضوع ثماسا ، بحيث
اتفقت مع خطوات الوفد الفرنسي ، فتلاقى الفريقان عند طرف
المائدة ، لم يسبق أحدهما الآخر ، ولم يتأخر عنه .. وفي هذه
اللحظة انسحب النبلاء النمساويون من الباب الذي اتوا منه .
وبذلك تركوا تلك القاعة في نفس اللحظة التي وصلت فيها
الاميرة ماري انطوانيت الى مكان يتوسط الحاشية الفرنسية

وبهذا انتهى الاحتفال الذي درست فيه كل صغيرة ، والذي
تمت وقائعه كأنما هي وقائع أسطورة خيالية ، فقد كان
الحاضرون يسرون فلا يسمع لأقدامهم وقع ، ولكن الفتاة
الصغيرة ، لم تستطع ان تضبط أعصابها ، ولا أن تخفى جزعها
اطول مما فعلت ، فلم تكذ تقترب من الكونتس «نواي» رئيسة
الوصيفات الفرنسيات اللواتي كن في انتظارها ، حتى ألفت
بنفسها على صدرها ، وهي تنتحب ، بدلا من أن تحيي
الكونتس ، وتحيي من حولها تحية رسمية باردة

وقد كان أمراء البروتوكول والاتيكييت ، يتمنون أن يتم
احتفالهم الرسمي المهيّب ، في إطاره الوقور ، وبخطواته الباردة ،
ولكن العواطف تتحدى دائما الرسميات ، شاء الرسميون أو
لم يشاءوا ، مهما احيطت تلك العواطف بقيود التقاليد ، ومهما
كبلت بسلاسل الاوامر والنواهي

ذكرت ماري انطوانيت كل ذلك ، وذكرت بعد ذلك كيف
وصلت الى الحدود الفرنسية فاستقبلتها الجماهير الفرنسية
في ستراسبورج بحماسة وترحاب ، فاق كل ما كانت تتصوره .

فقد انقضى على هذه المدينة الالزاسية اجيال دون ان تكتحل
عيون اهلها بمرأى ملكة بلادهم اوولية عهدهم . . ومع ذلك
فلم يكن من بين من مررن من هذه الملكات باستراسبورج من
قبل ، من كانت فى مثل جاذبية مارى انطوانيت وجمالها

وقد حيت هذه الملكة ذات العيون الزرقاء اللامعة ، والشعر
الاشقر ، والتكوين الدقيق ، حيت من نافذة عربتها الجماهير
الغفيرة التى تجمعت من مدن الالزاس ، وقد ارتدى كل فرد فيها
ملابسه الريفية المزركشة . وقد ردت الجماهير على تحية
الاميرة ، بهتافات عالية ، بينما نثر الاطفال ، وقد ارتدوا ملابس
بيضاء مزدانة بصور الزهور ، الورد والرياحين فى طريق
الموكب الذى اقيم فيه قوس نصر ، زينت بواباته بعقود
الزهور ، بينما تدفقت الخمر من نوافير البلدة ، فى الوقت
الذى كانت تشوى فيه الثيران المذبوحة على أسياخ ضخمة ،
يحمل كل منها ثورا كاملا ، والذى كانت توزع فيه أرغفة من
الخبز من سلات كبيرة على المعوزين . ولما خيم الظلام اضيئت
نوافل البيوت ، وعلقت الفوانيس حول برج الكاتدرائية فى عقود
حلزونية فبدت خطوط بناء الكنيسة الضخم ، حمراء فى وهج
هذا الضوء

وعلى سطح الرين ، انسابت القوارب هنا وهناك ، تحمل
فوانيس تشبه برتقالات حمراء كبيرة ، علقت على اشعتها ،
او يلوح ركاب تلك القوارب بمشاعل يحملونها فى ايديهم ، وبين
اقصان الشجر لمعت زجاجات ملونة . وفى الجزيرة الواقعة

وسط النهر أطلقت الصواريخ ، وأخذت الفرق الموسيقية
تعزف ، وعلى نغماتها رقص الاولاد والبنات فى مرح وسرور ،
ولقد عم الفرح الجميع ، وكأن مجيء هذه الاميرة الصغيرة
الاجنبية اليهم ، هو بشير الرخاء والسعادة

لم تستطع ماري انطوانيت حينما بلغت هذا الطور من
ذكرياتها ، ان تحبس دموعا ترقرت فى مآقيها ، فلما حاولت
ان تخفيها ، كادت تختنق ، حتى لاحظ « برناف » ذلك ،
وبانعطاف طبيعى صادر من قلب خال من كل عاطفة زائفة ،
اقترب منها ، وسألها هل يستطيع ان يقدم لها خدمة . وكان
ظنه ان المهانات التى أهيلت عليها وعلى زوجها من خارج العربة ،
هى التى بلغت بها هذا الحد من التأثير . ولكنها فى الحقيقة لم
تكن تشعر بشيء مما يجرى ، وكانت عيناها قد ألفت هذه
الصورة المحزنة ، كما ألفت أذناها هذه الشتائم ، حتى لم تعد
تنفعل بها ، أو تلقى اليها بالا

ولم تلبث ان تماسكت ، واستعادت رباطة جأشها ، ونظرت
الى الشاب الوطنى الثائر ، الجميل الطلعة ، وشكرته ، لا بكلمة
ينطقها لسانها ، بل بعينيها . . وما أعظم شكر عينيها ، وما أقوى
اثرهما ! . . كانتا عيني زرقاوين ، التهبت جفونهما فى هذه
اللحظة بالحمرة ، من السهر والتعب ، ولكن بريقهما لم يضعف ،
وسناهما لم يخب ، وجاذبيتها لم تهن . . كان السلاح الاخير
الذى تلعب به ، وتحارب . وكما أفادها فى أيامها ، حينما جاءت
الى فرنسا ، صبية نضرة قليلة التجربة ، أفادها فى هذه

اللحظة الكئيبة القائمة . فان برناف الشاب ، احس بان هذه المخلوقة التعسة جميلة ، وان جمالها لا يمكن ان يخفى غيبا قط ، ولا يمكن ان يستتر قذارة ، اذ لابد ان يكون من خلف هذا الصفاء والنقاء والرقوة والنعومة ، اشياء تشبهها

فقال لنفسه ، ان الطبيعة لا يمكن ان تزيف . ان يد الانسان كما يقول «روسو» هي التي تزيف . ان الانسان بظلمه، وجهله، هو الذى يغير العناصر النظيفة النقية النافعة التى تعطيها الحياة وبهذا العزم الطاهر ، اتجه « برناف » الى مارى انطوانيت ، وهو يفيض تأثرا وقال : لا بأس عليك . . اننا وصلنا شالون ، وسنبيت هنا . فقد خيم الليل ، ولم يعد السير الى باريس سهلا ، ثم انه لاداعى للعجلة

وافق بشيون على ذلك ، وافق لانه كان يود ان يشرح لهذه الجماعة المارقة مبادئ الثورة ، وان يكسبهم لصفها . ثم ان صحبة مدام اليزابث ، شقيقة الملك ، كانت صحبة مؤنسة ولا شك

ولقد عاتب نفسه اول الامر لانه استمتع بهذه المجاورة الجسدية ، ولان الحرارة التى يشعها هذا الجسم الرخص اللدن ، قد أسعدته . ولكنه نفى عن نفسه بعد ذلك ، وبلا صعوبة هذا الحاطر . لان ذلك الاستمتاع لم يمنعه من ان يشور ويزار فى وجه هؤلاء الملكيين ، رجالا ونساء واطفالا . . ونساء بصفة خاصة . وهو ان طابت له رائحة اللحم الملكى ، فلن تدير هذه الرائحة رأسه الثورى ، ولا قلبه الجمهورى ،

وانما ستزيد شهيته للتوثب على النظام القديم



واستراحت ماري انطوانيت كثيرا لفكرة المبيت في شالون .
فهي لم تكن متمجلة العودة الى باريس ، اذ ماذا ينتظرها هناك؟
كانت تعلم يقينا انها ستكون في سجن ، ستزداد قضبانه تقاربا ،
وستزداد الحراسة عليه احكاما ، وستزداد الحياة فيه شقاء
وظلاما

لقد كانت الحياة في باريس قبل الهرب شيئا ثقيلا ، لانها
كانت في قصر التويلري سجينة تماما ، وان كان في مقدورها ان
تخرج الى هنا والى هناك ، تحت الحراسة والمراقبة . ولكنها
كانت تحتمل هذه الحياة لثلاثة أمور .. اولها ان اليكس
دي فرسن ، كان على اتصال دائم بها ، فكان قربه منها ، وتردده
عليها ، عزاء لا يعدله عزاء ، وكان يمددها بقوة لاتدانيها قوة ،
وقد عرفت بفضل هذا العزاء ، ان الحياة بكل ماتعطيها من متع
مادية باذخة ، تخدعنا وتزيغ بصرنا عن ذخائر ونفائس اخرى ،
تبدو اكثر تواضعا ، واقل قيمة .. كالحب الهادي ، والصدقة ،
والالفة .. ولكن ما أزهدها مع ذلك في هذه النفائس الغالية مهما
تعلمنا ومهما جربنا .. فاننا مانكاد نشبع ، او ننجو من الخطر ،
حتى نصاب بشراهة عارمة ، وجوع مكتسح يدفعنا الى المتع
الصاخبة والصارخة وذات اللألاء والبريق

والى جانب حب فرسن الذي ارتفع الى مستوى صداقة
الروح والعقل والبدن ايضا ، كان هناك الامل الدائم في ان تقع
معجزة .. كان تأتي مثلا نجدة من جيوش ملوك أوروبا وعلى

راسهم اخوها ليوبولد ، ملك النمسا ، وملك بروسيا وملك
انجلترا اخيراً

وكان الى جانب هذين العنصرين الباعثين على احتمال الحياة
فى باريس ، رجاءوها فى أن يتم بينها وبين الثورة ، أى بين الملكية
وبين الشعب ، تقارب ، وان يقنع الشعب بملكية دستورية ،
لا يحرم فيها الملك كل سلطاته الحالية ، ولا يحتفظ فيها بكل
هذه السلطات . وأن تخلد فيها هى - أى مارى انطوانيت -
لفترة من الهدوء ، تستعيد فيها قدرتها على النضال والقتال
من أجل سلطات أوسع . وكان يبعث هذا الامل الاخير فى
نفسها ، ان ميرابو المع خطباء الثورة ، كان من هذا الراى .
وقد كانت تكره ميرابو ، وتضيق به ، ولا تقبل نصائحه ، ولكن
حتى ميرابو قد مات ، فباتت وحيدة عزلاء .. ففيم اذن
العجلة فى العودة الى باريس

فلتبقي ليلة فى شالون ، ومن يدري ماذا يأتى به الغد ؟ ان
« غدا » هذه كانت فى ماضيها القريب كلمة قبيحة ثقيلة ، فلم
تكن تعرف من الزمن الا شيئاً واحداً ، هو اليوم ، بل اللحظة
التي تعيش فيها . فلم يكن المستقبل يهملها او يشغل بالها ،
بل كانت تراه عدوها ، لانه يسلبها السعادة التي تفرق فيها الى
الاذنين . ورغم ذلك فقد كانت شديدة الملل ، ولم تكن تطيق
البقاء فى مكان واحد ، ولا احتمال صحبة شخص واحد ، ولا
التمتع بلون واحد من ألوان اللهو او اللعب ، كان كل شيء
عندها يفقد قيمته وبريقه فى وقت غاية فى القصر .. ومع ذلك

فلم تكن تفكر في المستقبل او تمد بصرها نحوه ، الا ان يكون
هذا المستقبل امتدادا للحاضر الذي تعيش فيه ، وتصنعه بيدها
وذوقها . سواء اكان طعاما أم ثيابا أم بناء نعم ! فما اكثر
ما صنعت لنفسها وللناس من أطرزة في الاثاث والرياش
والقصور ، والازياء والاطعمة ، وتقاليد حفلات لعب الورق ،
وسهرات الغناء والرقص . ولكنها اليوم لا تجد ملجأ الا
المستقبل ، الا الغد

فباريس منها هي الماضي ، فلا فائدة من سرعة العودة اليها .
ولكنها وهي تنزل من العربة ، جريحا تنزف دما ، وان كانت
تخفي مواضع جراحها ، وتخفي مايتدفق منها . كانت تسأل
نفسها بشدة : ما الذي حدث حتى فقدت عند هذا الشعب
مكانتها القديمة العالية ؟ هذا الشعب نفسه ، الذي احبها ،
واقام لها النصب التذكارية ، واستقبلها احسن استقبال ،
وبقيت عنده أثيرة وقريبة من قلبه
هل أخطأت ؟

ان كل من يراها الآن يكاد يقول ذلك . ان صحف الثورة
وخصوصا صحف « مارا » هذا الزعيم الذي أصابت جلده حكة
ملتهبة من جرائم قبو في مجارى باريس ، لجأ اليه نجاة لنفسه
من أعدائه .. هذا الصحفي ، يكاد لا يجد له عدوا يرجمه بكل
حجر ، وينسب اليه كل نقيصة .. الاها .. ماري انطوانيت
نفسها

فهل صحيح انها هي التي جرت الملكية الفرنسية الى هذه

الهاوية ؟ وهل صحيح ان طيشها ونزقها ، واسرافها وبدخها ،
وتدخلها في شئون الحكم ، وكراهيتها « لنكر » ، واقلتها
للوزراء الذين يتجرون بسياسة تتملق الشعب وتترضاه ، هي
التي الهبت الثورة ، وأشعلت نارها ؟

كانت تود أن تقتنع حتى تشعر بأن ما يصيبها عدل ، فتهدا
نفسها قليلا ، ولكنها لا ترى للثورة الا مبررا واحدا ، هو أن
الملك ضعيف ، وأن ملوك أوروبا جبناء ، لا يستطيعون أن
يجمعوا جيشا قويا عرمرما ، يدهم الثورة ، ويؤدب زعماءها
ويعيد الخطباء البرلمانيين ، والمحامين الذين بلغت عدتهم
أربعمائة في الجمعية الوطنية أى أكثر من نصفها ، الى شقوقهم
.. انه الضعف ، ضعف الملكية الذى أقام الثورة ، وليس قوتها
جبروتها . انه تردد الملك والامراء ، الذى أطلق رعا ع باريس من
عقالهم ، وليس شدتها وحزمها هي .. ولكن للأسف الشديد
ليس الامر كله بيدها . فان كان الحال قد ساء فلائها تنحت
ولان المؤامرات حولها والغيرة منها ، والخوف من سلطانها لم
تكن لتنتهى

ان كراهية الشعب لها حقيقة ، بل أكثر من حقيقة ، ورغم
معرفتها لهذه الحقيقة فانها لا تصدق ما ترى ، وأن كان ما
تراه يخز العين بابر محماة من مظاهر السخط والاحتقار .. وهي
ازاء هذه المظاهر ، يجب أن تقول أن الشعب لا يكرهها فقط
ولا يحتقرها فقط ، ولا يحقد عليها فقط بل انه يضر ويعلن
لها ذلك كله

فكيف تم هذا الانقلاب ؟

كيف تحول الاستقبال الحماسى الذى يفيض حبا لها كلما ظهرت فى مكان عام كمسرح أو موكب أو احتفال ، الى هذه البغضاء الكريه ؟

ان الشعب لم يحسن استقبالها فقط حينما جاءت من بلادها ولم يستول عليه فرح كالجنون حينما رزقت ولى العهد ، وكأنما حقق هذا الميلاد رجاء عند كل امرأة وكل رجل وكل طفل فعوضها هذا عن سنى الخوف والقلق التى قضتها قبل أن ترزق بولى العهد

ولقد استمر هذا الحب ، حب الجماهير لها يزيد وينمو ثم وقف فجأة

وساءلت نفسها : أكان توقفه عن النمو فجأة حقا ؟ أم كانت هناك نذر كثيرة ، لم تلتفت هى اليها ، ولم تبينها ، لفرط ثقتها فى المستقبل ، وفرحها بالحاضر ، وعجزها عن أن تمنح الاشياء والاشخاص والظواهر والعلاقات ، الا مجرد نظرة عابرة متعجلة ؟

انها لا تذكر سوى شىء واحد ، هو أنها لا حظت أن فى كل مكان كانت تحل به ، كانت تجد الاحترام والتوقير وحسن الادب . ولكنها آفتقدت فى هذا الاحترام والتبجيل ، الروح والحماسة والانطلاق التى كانت تجدها فى الماضى

وزاد الاحترام والتبجيل وحسن الاستقبال وحسن التوديع مع الايام برودة ولم تكن تستطيع أن تشكو ، فكل ما ألفت

تقديمه لها من الحكام والرؤساء والناس ، كان يقدم لها ، بنفس
القدر . ولكنها كانت تعلم أن الذي نقص ، هو أمر تحس به
ولكنه لا يوصف ، تلمحه القلوب لا الاعين . فماذا تفعل ؟
ولن تشكو ؟ وكيف تشكو ؟

وراح الوجه البارد المؤدب ، الجامد المهذب ، يزداد صلابة ،
وتزداد الحفاوة بها في كل مكان بعدا عن العواطف الشخصية
وقربا من المظاهر الرسمية

ولكن ماري انطوانيت ، لامت نفسها لوما شديدا ، لانها
لم تلق بالها لهذا كله ، يوم أن بدأ ، واعترفت الآن وهي تهبط
من العربة في « شالون » أن ذلك كان بدء الكارثة ، وتبينت
في هذه اللحظات الكثيرة من حياتها ، أن العلاقة بين الحاكم
والشعب أشبه شيء بالعلاقة بين المحبين . ومن مبادئ الحب
التي استخلصها الدارسون للعواطف والنفوس ، أن الحب أما
أن يزيد أو ينقص ، ولكنه لا يبقى حيث هو أبدا . وأن الحب
إذا أريد له أن يكبر وينمو ، لابد له من وقود يغذيه ، فان
افتقد هذا الوقود ، تولى الفتور ، ثم الكراهية ، تقديم هذا
الوقود لحسابهما هما ، لا لحساب الحب . وقد كان . تولى
حسادها وكارهوها توسيع شقة متفرقة بادية الأمر ، ولا
هدف لها الا القضاء على ملكة فرنسا وملكها ، ثم تعاونت فكونت
جبهة واحدة ، لم تلبث حتى شملت الشعب الفرنسي كله ،
بطبقاته جميعا

ما أشد شعورها الآن بالندم ، فكثيرا ما قدم لها سفير

أمها في باريس « المسيو مرسى » النصائح ، فكانت تطبيق
بالنصائح ، وبالسفير ، وبخطابات أمها التي تحمل اللوم المتكرر
مع شدة حبها لهذه الام

كان السفير يطلب منها أحد أمرين ، اما أن تحسن لعب
هذه اللعبة الشائقة الممتعة والمضنية في نفس الوقت ، لعبة
الحكم ، واما أن تهجرها نهائيا . . ولكن كان ما يطلب منها
في الحالين عسيرا جدا ، ومخالفا لطبيعتها أشد المخالفة

لقد أرادوا منها محاكاة أمها ، التي جمعت في يدها السلطة
وتوفرت على دراسة وسائل تلك السلطة وغاياتها ، فكانت
تفنى نفسها في العمل ، فتقرأ التقارير ، وتقابل الوزراء ،
وتسمع كلامهم ، وتنصحهم ، وتلوم المخطيء منهم ، ثم تقابل
سفراءها ، وسفراء الدول الاجنبية لديها ، فتسمع وتطيل
الانصات ، ثم تبعث عيونها في الداخل والخارج يأتونها
بالمعلومات ، ويجمعون لها الحقائق ، فتحفل بالجدى والهام
من الامور ، ولا تلقى بالها لسفاسف الوشايات ، وتوافه الامور
الخاصة التي يحب المتزلفون والمنافقون ، وقناصو الوظائف
والمراكز أن يتوبلوا بها أحاديثهم ، ويتقربوا بها الى الحكام ،
ليرضوهم ويسلوهم ، ويمتعوا غريزة الفضول فيهم

وأنى لمارى أنطوانيت أن تصبر على قراءة التقارير ، وأنى
لها الجلد على مقابلة الوزراء الذين يتنافسون في عرض علمهم
والكشف عن فضلهم ، فيصدعون رأسها بالارقام والاسماء ،
يذكرونها بما سلف لهم من قول ، وما سبق لهم ابدائه من

رأى ، وأف لهؤلاء الحكام ضخام الكروش ، عديمى الذوق
فى الملبس ، ثقيلى الظل والحركة ، الذين يفترضون أنها
خلقت لسماع شكواهم وحل مشكلاتهم ، دون أن يخفوا
أحاديثهم بفكاهة ، أو يطرفوها بما يفتح شهية السامع بملحة
فاذا أضفنا الى هؤلاء جميعا السفراء ، السفراء الذين يظن
بعضهم أنه « دون جوان » لا يكاد ينظر اليها بطرف عينه حتى
تسقط فى شباك غرامه ، ويظن البعض الآخر أنها طفلة غرة
ساذجة ، سيطويها بكلمات معسولة ، فيعرف من أسرار البلاط
والدولة ما ظهر وما بطن

كان « مرسى » سفير النمسا ورسول أمها اليها ، يدعوها
الى احتمال هؤلاء ، فلما لم يجد منها استعدادا ، ولم يلق
عندها صبورا ، أخذ يشكوها الى أمها ، ويقول أنها تتدخل
فى كل شىء تافه لا قيمة له ، فاذا جد الجد ، وأريد الاعتماد
عليها فى أمر ذى قيمة ينفع النمسا أو فرنسا أو ينفعها ،
جبت وأجفلت وفرت من تحمل المسؤولية .. هكذا كان
يتهمها ، فى غير موارد ولا مداراة فى خطاباته الى أمها ..
وقد كانت تعلم بوسائلها تارة ، وعن طريق خطابات أمها
اليها تارة اخرى ، ما كان يكتبه ذلك السفير الغليظ اللجوج
الذى يدس أنفه فى شئونها ، ويعكر صفو حياتها ، بدعوى
الحرص على مصلحتها ومستقبلها

ومن يدري ؟ فقد يكون الاستماع اليه علاجا للحالة التى
تفاقمت حتى أفضت الى ما انتهت اليه .. سجينه فى عربة

تتنفس الصعداء حينما يسمح لها بأن تبسط ساقها قليلا
أو ان تقضى ليلة فى رحلة عودتها الى سجنها فى التويلرى أو
فى غيره من القصور أو القلاع !

ولكنها فى الحقيقة لم تستطع أبدا أن تسلم بأن ماكانت
تفعله كان تدخلا فى الصغيرة والكبيرة ، وافسادا للحكم ،
وهى لم تكن تشغل نفسها الا بتقديم بعض السفراء للدولة
وترشيح بعض الوزراء فى الحكومة ، واختيار بعض
الحكام

ونشهد الله أنها لم تختار الا من كانت ترى فيهم الخير
والصلاحية . وهى ما رأت أحدا من مرشحيها الا وجدته
افضل من هؤلاء الاغبياء الذين كان يقع عليهم اختيار سواها
من وزراء الملك أو ناصحيه . . لم ترهم أغبياء ، لا تفوح من أردانهم
الا رائحة البلادة والتنطع ، والبخل الذى يسمونه اقتصادا
انها لم ترض مثلا عن ترجو وزير المالية ، ولا عن نكر هذا
المصرفى السويسرى الذى تكدست الاموال فى خزائنه ، ابان
تعامله بالمال فى جنيف . وكان الناس يصرخون ، وتشق
مرارتهم سخطا على أولهما وثانيهما . فماذا فعلوا ؟ اقترحوا
أن تفرض الضرائب على جميع طوائف الامة كافة ، فلما رفض
الاشراف وأمرء الكنيسة ، لم يكن ثمة حل لهذا الاشكال
الذى خلق ولم يكن موجودا ، الا أن تدعى الجمعية الاهلية
التي لم تعقد منذ نحو قرنين ، فلما اجتمعت ، كان ذلك ايدانا
ببدء الثورة ، والقاء الخطب فى ناراها ، فاشتعلت وزادت

على مر الايام ضراما . فلما أتت على الاخضر واليابس أو كادت
اعتبرت هي المسئولة ، وحملوا نزقها المزعوم ، وطيشها
المشهور ، مغبة نتائج غيابهم هم

نعم . . كانت تعرف أن الهمس الذي علا وأصبح صياحا
لم يكن له الا هدف واحد ، هو تلطيخ سمعتها ، وتحميلها
مسئولية كل ما تقاسى منه البلاد ، كأنها صنعت للبلاد
قوانينها ، ووضعت لها سياسة اقتصادها ، ورسمت لقادة
الحرب والسياسة مناهجهم

اهتزت ماري انطوانيت عندما نظرت الى زوجها ، ينزل
وراءها ، بجسمه الثقيل ، وخطوه البطيء ، فكأنما رأت في
شخصه سياسة أعدائه مجسمة . فقد كانت لعبتهم المفضلة
أن يصفوه بالسذاجة والبساطة ، ليحملوها هي وحدها تلك
المسئولية ، فيضربوا عصفورين بحجر ، بأن يثبتوا أن الملك
في ذاته لا يصلح ، وأنها هي المسئولة عن كل شر . اللعبة
التقليدية المفضلة في مناورات السياسة . اتهام من حول الملك ،
واظهارهم في أسوأ صورة ، مع ادعاء براءته ، والاسراف في هذه
البراءة ، لينفوا عن أنفسهم عند الاقتضاء نية التمرد على صاحب
السلطة الاعلى ، بل ليسجلوا على العكس ، جبههم له ،
واعترفهم بطهارة يده ، والصاق العيب بغيره

لقد كانت لعبة مزدوجة ، وقد أثمرت ثمرتها ، وآتت أكلها
لأن الملكة كانت ثقتها بنفسها أكثر مما يجب ، وفهمها للامور
أقل مما يجب

الفصل السابع

ما أعظم متناقضات الحياة !!

ان الثورة التي تطلب رأس الملك والملكة ، أو التي تطلب على الاقل الاطاحة بسلطتهما ، واحلال سلطة الشعب محلها لم تجد أول الامر من ينفخ في نارها ، ولا من يدفع سفينتها بكلمتي يديه ، وبكل قوته ، إلا من جرى في عروقه دم ملكي نعم ، لقد كانت عمات الملك في قصرهن الجميل « شاتودي بيل في » أول من راى سهامه الى صدر ماري انطوانيت . فكان هذا القصر هو المعسكر الاول من معسكرات الهجوم المباشر على الملك والملكة ، وتبعته بعد ذلك بقية المعسكران وكان المعسكر الثانى هو قصر « الباليه رويال » حيث يقيم الامير الخفيف الطائش ، دوق دورليان ، الذى جعل من قصره ناديا لكل ساخط على العرش من الامراء والنبلاء وأصحاب المقامات الرفيعة فى البداية ، ثم لكل ساخط من كل طبقة فيما بعد ، ففاضت الثورة فى أبهاء القصر وقاعاته ووردهاته ، وفى حجراته المعتمة

وكان المعسكر الثالث ، قصر اللوكسمبرج حيث يقيم شقيق الملك ، شقيق الملك ذاته « الدوق دى بروفانس »

وبين هذه القصور الثلاثة قام تعاون خفى ، ثم أصبح
تعاوننا علنيا

وهكذا لا يشيخ نظام ويفقد مبررات وجوده ، حتى يعمل
المنتسبون اليه ، والمنتفعون بجأهه ، على هدمه ، أن عمدا
وان جهلا . ولكنك لا تجد الدليل على صدق هذه النظرية
أقوى ، ولا أكثر اقناعا ، كما تجده على صفحات الثورة
الفرنسية

لقد ذكرت ماري انطوانيت عمت الملك الثالث ، لقد
اختفين من مسرح قصر فرساي فلبجأن الى قصرهن « بيل في »
ولم يعد أحد يذكرهن ، وعشن في عزلة باردة ، ووحشة
متصلة ، لا عمل لهن الا أن يتابعن قفزات ماري انطوانيت نحو
الشهرة ، وغزواتها لقلب الشعب . ثم يعمدن في صمت قاتل
وحسرة مميتة الى اجتراح حقدهن

وكان عزاءهن أول الامر أن ماري انطوانيت لن تلد ، فقد
طالت السنون دون أن تحمل ، وعلى الرغم من أن العيب
ليس عيب ماري ، الا أن الحقد لا يعرف سببا ولا نتيجة
انما يتلمس ما يشفيه ، ويخفف أوجاعه

فلما حملت ووضعت بنتا ، زادت آلامهن ، ولكن كان لا
يزال هناك أمل في الا تحمل بعد ذلك فيبقى الملك بلا عقب
من الذكور . فلما وضعت الملكة غلاما ، زادت عزلتهن قسوة
وبقى قصرهن خاليا خاويا ، لا تطؤه قدم ، ولا يعرف الطريق
اليه انسان ، فقد بلغت الملكة قمة القوة والنفوذ بنوعيه :

الحب من الشعب ، والسيطرة على الملك .. وكان الهتاف
للملكة أينما ذهبت ، يكاد يمزق نياط قلوب السيدات الثلاث
ويخرق صمام آذانهن

ولكنهن لم يفقدن الامل ، فقد كان طيش ماري أنطوانيت
ونزقها وأسرافها وتدخلها في شئون الدولة ، وتقريب الرجال
وابعادهم ، وتعيين التافهين بدل الأكفاء ، وخلق طبقة محظوظة
تملك وحدها النفوذ ، وتوزع المناصب ، وترسم شئون
السياسة ، والاقتصاد ، دون جميع الأمراء والنبلاء ، ورجال
الطبقة المتوسطة الناشئة ... كان ذلك كله يبعث الامل في
قلوب العمات ويدفعه ، ويؤكد لهن أن ما ينتظرنه ليس بعيدا ،
فحال كهذا لا يمكن أن يدوم ، وهتاف من الشعب لا يقاوم
حقائق الفساد التي تعمل في الاساس ، كما تعمل قطرات
الماء المتتابعة في الصخر

وأشرق فجر الامل على قصر « بيل في » فقد بدأ الكيل يطفع
وبدل أن تنتقل الملكة وهي في قمة مجدها الى باريس ، وترك
قصر « تريانون » الذي عاشت فيه في جو من البذخ بعيدة
كل البعد عن الشعب وآلامه ، وما يجري بين الناس وما
يدور على ألسنتهم ، بدلا من ذلك ، أصرت على سياستها ،
فرفعت أسباب السخط رأسها قليلا ، قليلا ، وظهر أثر ذلك
في قصر « بيل في » الذي كان عنكبوت النسيان والاهمال قد
نسج عليه خيوطه

بدأ عدد المترددين على القصر يزيد . فكل سيدة تخطاها

رؤساء البروتوكول فى قصر فرساي الملكى ، فلم تدع الى حفلاته ، قصدت فى التو الى قصر « البيل فى » حيث تتلقاها الاذرع المفتوحة . وكل رجل خاب أمله فى الوصول الى منصب كان ينتظره ، استحث عربته فى الحال لتصل الى القصر المنشود ، فيجد ترحابا وحسن استقبال . وكل من ذهب الى قصر فرساي فأسىء استقباله ، أولم يلق ما يطمع فيه من عناية ورعاية ، يمم وجهه شطر « المبكى » حيث يجد فى « البيل فى » من أمثاله من يشاطره الالم أو يبادله الغراء . وكان هم رواد القصر أول الامر مجرد الشكوى ، ثم تحولت الشكوى على الايام ، حسرة على عهد التقى والورع الذى ولى ، عهد الملك السابق والملك الاسبق ، وهو تقى وورع يعلم التاريخ ، أن لا وجود له . ولكن من ذا الذى يصحح للشائين والهانقين ، وقائع التاريخ

واستمرت أسهم مارى أنطوانيت فى الهبوط ، وتغير تبعا لذلك دور « البيل فى » ولم يعد سلبيا يشكو ويتحسر ، بل أنه الآن يجمع الفضائح ، فما من فضيحة وقعت ، أو ستقع ، أو يمكن تصور وقوعها ، الا ذكرت ، ثم لا تلبث حتى تنمو وتكبر وتلد غيرها ، وغيرها يلد غيرها ، وهكذا

وزادت الكراهية للملكة ، فغير قصر « بيل فى » دوره فى الحال ، وأصبح لا يقتصر على تجميع الفضائح . بل لابد من اعدادها للتوزيع ، والاستهلاك الشعبى ، فكانما كانت نعبا فى زجاجات ثم تتناقلها الايدى . وفى أقل من لمح البصر

تولد الفضيحة ، ثم توضع فى صيغتها المناسبة ، متوبلة
مملحة ، فاتحة للشهية ، سائغة للهضم ، داعية الى الابتسام
والضحك . ثم تخرج من المعمل ، ليتولى عمال التوزيع
الانتقال بها ، أولا فى قصور الامراء والاميرات ، ثم قصور
من يليهم مقاما وغنى ، ثم فى المجتمعات والاندية ، وأخيرا
على أفاريز الشوارع ، وعلى السنة الجائعين الذين يعصر
الجوع أمعاءهم ، ويهرأ البرد أبدانهم

وقد كثر انتاج المصنع ، حتى أتقن خبراءه هذا الفن الجديد
وعرفوا كيف يضيفون عنصرا من هنا ، الى عنصر من هناك
ليكونوا « الوصفة » الناجعة . فمن الوصفات ما يرضى الشعب
ومنها ما يرضى رجال الدين ، ومنها ما يرضى الاغنياء ، ومنها
ما يرضى المفكرين المثاليين ، ومنها ما يضحك فقط كمجرد
ملح . . ! واختفت الحقائق تحت هذه الطبقات المتتالية من
الاكاذيب ، واختلطت هذه بتلك ، حتى لم يعد أحد يعرف
ما هو الحق وما هو الباطل

ذكرت ماري أنطوانيت هذا فقالت لنفسها : « حتى أنا لم
أعرف ماذا فعلت وماذا تركت . من هم عشاقى ، فلى جيش
عمرم من العشاق ، لو أصبح يومى أسبوعا لما استطعت أن
ألقاهم مجرد لقاء . . دع عنك ما نسجته لى الاشاعات من
مغامرات يحتاج كل منها الى أيام لتدبيرها ثم لتنفيذها . .
. . وسرحت ماري أنطوانيت طويلا عندما سمعت كلمة
« اشاعات » واستأنفت حديثها لنفسها قائلة : « أى سلاح

بئس هذا السلاح ! ما أكثر الشر الذي لا بد أنه كامن في
النفوس البشرية ، والذي بغيره لا يمكن أن يخلق هذا السلاح
ولا أن يجهز على ضحاياه بهذه السرعة ،
واستمرت الملكة فى تأملاتها :

« تخرج الكلمة من فم الانسان ، وكأنه على صلة بملايين
الالسنه . فهى تقفز من هنا الى هناك ، ومن بيت الى بيت ،
حتى تصل الى هدفها . فاذا أطلقت كلمة الخير ، لصقت فى
مكانها لا تتحرك ، وكأنها ماتت فى فم صاحبها

» ثم من ذا الذى يستطيع أن يواجه الاشاعات ويقف
أمامها . . انه لو أراد لوجب أن يستحيل روحا محلقة ، لان
من يتسلح بالاشاعات ، لا يظهر ، ولا يعرف له أحد مكانا
ولو جمعت كل الذين سمعوا الاشاعة ورددوها ، وسألتهم
عن مصيرها ، لعجزوا جميعا عن الارشاد عنه ، فهى تماما
كالحشرات . كالذباب والخنافس ، لا تجد مستنقعا ولا مكانا
قدرا ، حتى تخرج منه وكأنها ولدت نفسها »

ورد هذا التشبيه الملكة الحزينة الى صوابها ، وزاد فى
حقيقة الامر ألها ، فالاشاعات فعلا كالهوام والحشرات ، لا
تولد الا حيث تكون القذارة . . فالسبيل الى مقاتلتها لا يكون
بمواجهة كل حشرة على حدة ، ولا بآبادتها جميعا ، فستحل
غيرها محلها ، انما السبيل الى ذلك هو أن تحل النظافة محل
القذارة

حسنا . . هل كان الدوق دورليان هو النظافة ؟

سألت الملكة نفسها هذا السؤال ، ولو أردنا الحقيقة ،
لقلنا على الفور ، أن الدوق كان بين الوصولين في الصدر
وكان مع وصوليته الصارخة خفيفا غاية الحفة . فكان قصره
لونا آخر من المصانع التي أعدت أسلحة الهدم في النظام الملكي
وعجلت بثورة كاملة في فرنسا ، وهو يحسب أنه يشق
لنفسه طريقا ملكيا الى العرش ، ولم يتبين سوء تقديره ، الا
وهو على نطح الجراد ، يتهيا لجز رأسه

ومع ذلك فان دوق دورليان جدير بأن نتأمله ، ونتأمل
خصائصه .. لقد شمل الشعب سخط تزايد على الايام ،
والملكة والملك لا يشعرا ، أو على الأقل لا يريدان أن
يشعرا

كان هناك من يريد تغيير النظام . من تائق الى حكم أكثر
نظافة أو الى توزيع أكثر عقلا للمسئوليات . ولكن هؤلاء
جميعا ، كانوا في حاجة الى نقطة يجتمعون عندها ، وإلى
شخص يلتفون حوله . وقد وجدوا النقطة والشخص .
وجدوا النقطة في قصر « الباليه رويال » ووجدوا في
الدوق دورليان ، صاحب القصر ، الشخص الذي يلتفون
حوله

ولم يكن الدوق دورليان رجلا جديرا بهذا الشرف ، فقد
كان رجلا متأنقا ، مسرفا ، مقامرا ، تافها ، وكان أميل الى
التمتع بالحياة منه الى الطموح الذي يكبده عناء . فضلا عن
انه لم يكن على شيء من الكفاية ، ولا حتى القدرة على الاذى .

مجرد فقاعة طفت على سطح الظروف في ذلك العهد ، الذي اضطرب له البحر ، فخرج كل ماكان في أعماقه من اصدا ف ، وآلىء . ولما كان من أبناء الطبقة الاستقرائية ، وكان بلا كفاية ، فقد شغلته المظاهر ، وشاء سوء حظ مارى انطوانيت انها طغنته في ناحية الضعف منه اذ انه كان يمنى نفسه بمنصب الاميرال الاول في فرنسا ، فلما حرمته منه ، اعتبر أن الحرب أعلنت عليه ، وان من واجبه ان يدفع عن حماه . وانتظر الفرصة السانحة ليرد الطعنة بمثلها . ولم يطل الانتظار ، فقد جرت انتخابات الجمعية الوطنية ، وعقدت في ٥ من مايو سنة ١٧٩١ ، وأصبح الاشراف كأفراد أية طبقة أخرى يحسبون فرادى لا جماعات ، وآلى على نفسه ان يكون في الجهة التي تعادى الملك ، فاختار مكانه مع الطبقة الثالثة ، وأخذ يؤيد كل اتجاه نحو المبالغة والمغالاة في مطالب الثورة

وفي بيته جاء خصوم البيت الحاكم ، بيت بوربون ، والاصل المتفرع عن البوربون ، هابسبرج ، وخصوم الملكية المطلقة ودعاة الديموقراطية ، فأسبغ عليهم حمايته . ومن هنا ، ومن حيث لا يحتسب أدى للثورة ، وللشعب ، يدا عظيمة . فقد كان بيته النادى الاول للثورة ، اجتمع فيه الامراء ، وأنصار فولتير ، والجيروند ، والماسونيون . وفي هذا الخليط العجيب ، وجدت عناصر أخرى طريقها الى القصر ، أمثال المدينين المفلسين ، وطالبي الوظائف الصغيرة الذين سدت في وجوههم ابواب الرزق ، والمهيجين ، والمهرجين الذين كانوا نواة فرق

الهجوم للثورة ، والذين خدموها أيضا من حيث لا يحتسبون
ولما كانت الجمعية الوطنية تضع الدستور ، واقترح ان
يكون للملك حق « الفيتو » أى حق الاعتراض على القوانين ،
فتح خزائنه واخذ ينفق بسخاء على تدبير المظاهرات ضد
« الفيتو » . وكان كثيرون ممن هتفوا ضد هذا الحق ،
لا يعرفون ماهو « الفيتو » الذى يهتفون ضده . ولم يفعل
دوق دورليان ذلك حبا فى الشعب ، ولا حرصا على مصالحه
وسلطاته ، ولا كراهية فى السلطة المطلقة ، بل كانت غايته ان
يخرج الملك ، وان يقرب أيامه

ولما بدأ الخبز يشح فى الاسواق ، اشترى الدوق كميات من
القمح اخفاها فى مخزنه ، لتزداد الازمة شدة ، وقد اشتدت
فعلا ، وذهبت جموع من النساء الى فرساي ، حيث ألزمت
الملك والملكة بالعودة الى باريس ، بعد ان كادت تفتك بالملكة
وبالعائلة المالكة لولا تدخل قائد الحرس الوطنى ، الجنرال
لافايت

على ان اخطر المعسكرات على الملك ، وعلى الملكة ، كان رجلا
آخر يسكن قصرا آخر ، ولم تكن ماري أنطوانيت تحب أن
تذكره حتى فى أيام الرخاء ، فقد كان مجرد تذكره يدعو الى
انقباض نفسها ، والشعور بالخوف الممزوج بالاشمئزاز . ومع
ذلك فلم يكن هذا الرجل ليفتح فمه بشيء ، ولم يكن يتصل
بجماهير الشعب ، ولا يكثر من الحركة . كان رجلا صامتا ،
يحسن قفل فمه . وكان رجلا وئيذا يبدو فى المحافل الملكية ،

وفي قصور الامراء ، كأنما هو شبح . ومع ذلك فلم يكن يرفع عينه عن الملكة وحرركاتها ، ولم يكن يكف عن الامل في ان تنتهى ايامها وايام الملك ، وهو بعد ليس سوى شقيق الملك . . الدوق بروفانس

لم يكن يطيق أن يرقى لويس السادس عشر العرش دونه . كان يرى فيه غباء وضعفا وعجزا . وكان يرى في نفسه كفاية وقدرة وأهلية . وكان يرى الملكة أداة اجنبية مخربة ، وكان يؤمل في ان ينتج عجز الملك ، وطيش الملكة ، النتيجة المأمولة ، وهى ان يرقى هو العرش . وكان سند امله ، ان الملك عاجز عن أن ينجب فلما رزق الاولاد ، تبني الاشاعة القائلة بأن الملك ليس له فى هؤلاء الاولاد الا مجرد الاسم وتحمل مسئولية عمل الغير

وكان الدوق بروفانس لطموحه ، وطمعه المحدد الواضح ، حريصا ، لا يرتبط بالرجعيين خصوم الشعب ، ولا بالثوار خصوم الملك ، فهو بينهما ابدأ كرقاص الساعة ، وهؤلاء يحسبونهم ، حتى وطنوا أنفسهم على وجوده فى معسكرهم ، ثم وجدوه يبعد ويبعد حتى فقدوا الامل فيه ، ثم لم يلبث أن اقترب واقترب حتى عظم الرجاء . وهكذا دواليك فى حركة دائبة ولكن هادئة

فلما وقعت الثورة ، وأصبح السخط على الملك حقيقة لا سبيل الى انكارها ، أخذ يعقد بقصر « اللوكسمبرج » حيث يقيم ، مؤتمرات مريبة ، لا يعرف احد ماذا كان يدور فيها

ذكرت ماري انطوانيت كل هذا ، وذكرت معه ماكانت تنهم
به الدوق بروفانس ولم تستطع ان تقيم الدليل عليه . ذكرت
هذه الحرب التي سلطت عليها نيرانها ، وكانت اقصى ماكابدته
من حروب . . حرب النشرات السرية

لقد كانت الاشاعات ، تلك التي تطلق الكلمات المجنحة ،
فتقطع المسافات ، وتدخل البيوت والاندية ، حربا قاسية
مدمرة ، ولكن حرب المنشورات كانت اقصى وافظع

كانت المنشورات تعد ، منطوية على اقبح السباب في الملكة ،
حاوية لاتهامات تتناول عرضها ، وحياتها الخاصة ، وذمتها ،
وذمة الذين حولها . وكانت الايدي تتداولها تحت المناضد في
الحفلات والاندية ، وتخبا عند مداهمة غريب طارئ ، في
صدور السيدات اللواتي كن يحرصن على اقتنائها ، سرا عند
الخوف ، وجهرا عند الطمأنينة ، وقد تحركت فيهن غرائز
الفضول ، كما تتحرك الكلاب الجائعة . هل كان الدوق بروفانس ،
هذا الشبح المتلصص الذي يسترق الخطى ، ولا يبدو على
وجهه ابتسام ولا تجهم ، والذي لا يفتح فمه ، ولا يبسط لسانه
بكلمة نقد ، والذي يحيى في ادب ، ويصمم اذنيه عن كلمة العيب
اذا قيلت في حق زوجة اخيه . هل كان هو المشرف على حركة
هذه المنشورات ؟ هل كان يسرق الوثائق الرسمية ، وينقل
خطابات الدولة بفضل نفوذه ومكانته ، ليضمن منشوراته
فقرات منها ؟ كانت ماري انطوانيت تؤكد ذلك لنفسها ، وتؤكد
لن حولها ، ولكنها لم تنجح ابدا في ان تقيم دليلا على ذلك . وانى

لها الدليل وعدوها رجل حريص ، لا يكشف نفسه ، ولا يمكن
عدوه منه

لقد وصلت هذه المنشورات الى الامراء والى نساء ورجال
الحاشية ، واخيرا وصلت الى ماري انطوانيت نفسها ، وكثيرا
ما كانت تأخذ مقعدها على المائدة وترفع « الفوطة » ، لتجد
تحتها منشورا مقدما . وكثيرا ما ذهبت الى فراش نومها لتنام
فتجد تحت الوسائد منشورات من نفس النوع . فمن
الذى وضع هذه المنشورات فى هذه الاماكن الحصينة البعيدة
عن متناول الثوار ؟ انها تنظر فيمن حولها فلا تجد الا وجوها
صامتة كالعهد بها ، لا تختلج باحساس واحد ينم عن خبيثتها ،
او يكشف عن طويتها . . . الجميع فى خدمتها لا يتأخرون عن
تلبية اشارة من اصبعها . وهى لا تملك ان تقول لواحدة او
لواحد منهم انه قصر فى شيء . . . ومع ذلك فلا يمكن ان تصل
المنشورات حيث تصل الا عن طريق هؤلاء الاتباع الامناء ،
وهؤلاء الخدم الاوفياء

ولقد اتخذت هذه الاشاعات وتلك المنشورات ، ابنة لهما ،
اكثر فتنة ، وأبقى اثرا . . . تلك هى الاغانى التى تدور كلها
حول علاقات الملكة بعشاقها ، وحول ولادة ابنها ولى العهد . .
وقد كانت هذه الاغانى تصل الى سمعها ، وهى تفتح نوافذ
قصرها الانيق قصر « التريانون » فتوصد النوافذ ، وتعدو
الى الداخل ، لتجد منشورا ، فتهبط الى صالون من الصالونات ،
تسمع بأذنها بعض الوصيفات يروين اشاعة من الاشاعات ،

وهن يكدن ينفجرون من الضحك . نعم ، فلم يعد ترديد هذه
الإشاعات في قصر الملكة نفسها جرماً ، مادام ترديده مقترناً
بعبارات تدل على استنكار القائل والسامع ، ولو أن القائل
يقولها ليضحك السامع ، والسامع ينصت إليها ليضحك

كانت ماري انطوانيت تذكر هذا ، وهي تؤكد لنفسها أنها لم
تكن ضحية عمل أخته ، أو خطأ ارتكبته . فقد أحبها الشعب
دون أن تفعل شيئاً ، وكرهها دون أن ترتكب جرماً . بل أنه
أحبها لأنها كانت تستحق الحب ، وكرهها لأن خصومها اجتمعوا
عليها ، فنسبوا لها مالم تفعل ، وحاكوا حولها خيوطاً من
الشكوك والريب كان مصدرها أحقادهم وأطماعهم . فهي
والشعب ضحيتان لا قوام لا يفكرون إلا في مصلحتهم ، ولا
يعملون إلا لها

فيالها من مسكينة تعسة لا ذنب لها !

ويا للشعب من ضحية لا حول لها !

وأحست بدوار شديد ، حتى لكأن الأرض تميد تحت
قدميها ، ولاحظ « برناف » ذلك ، فمد يده نحوها وهي تتعثر
في خطاها ، فشكرته بايماءة من رأسها وهي تزم شفيتها ، ثم
قالت وكأنها تجود بآخر نسمات الحياة : « شكراً .. كل
ما أحتاج إليه هو النوم »

الفصل الثامن

اصبح الصباح على السجناء والسجائين في مدينة « مو » ،
وفتحت ماري انطوانيت عينيها بعد نوم لم تعرف كيف تسميه
.. هل كان نوما ، أم موتا ، أم غيبوبة ؟ . فلقد ذهبت في سبات
عميق ، ولكنها عندما افاقت لم تحس بأنها نامت حقا ، ولم
تشعر بهذه الراحة التي يحس بها النائم حين يستيقظ ، بل
شعرت وكأنها تعود من عالم بعيد ، لا تعرف كيف تصفه ،
الى عالم جديد لا تحب ان تكون فيه ، وان كانت لا تعرف
ماذا هو ، ومن هم أهله ؟

اين هي ؟ بل من هي ، ومن هؤلاء الذين هم معها في نفس
المكان ، والذين رأتهم يحيونها وكأنما يعرفونها ، ويحدثونها
وكان بينهم وبينها صلات ود عميق ؟

هذا الشاب الذي يبدى لها عطفًا ، ويوجه اليها الخطاب
في رفق ، ما اسمه ؟ وما صناعته ؟ وأين التقت به ؟

انها بالتاكيد تعرفه ، وقد لقيتة قبل اليوم ، ولكن متى ؟ وفي
اية مناسبة ؟ ولاى سبب ؟

هل فقدت عقلها ، او على الاقل ذاكرتها ؟ انها لا تستطيع
ان تستعيد شيئا من احداث امسها ، ولا تستطيع ان تفكر في

شيء من مستقبلها

ان كل ماحولها سحب متكاثفة ، ترى الناس من خلالها
كالاشباح ، والاصوات تأتيها ، وكأنها رطانة غريبة لم تألفها
اذنها

هل هذا زوجها ؟ .. انه يخاطبها بهذه الصفة ، ولكنها
لا تحس ان بينها وبين هذا الرجل شيئاً مما يكون بين الازواج
.. ثم ، ما هذا الذي يضعه فوق رأسه ؟ وما هذا الثوب الذي
يلبسه ؟ انه ثوب كبير الخدم في منزل شريف من اشراف
فرنسا ، قمتى تزوجت هذا الرجل ؟ ومع ذلك فان ثيابه
الداخلية التى تطل من فتحة سترته الخارجية قدرة ، كانه
لم يعرف الماء منذ شهور .. ما هذا البلاء الذي لا تعرف له
نهاية ، ولا تدري له سبباً ؟

ان الناس الذين حولها والذين لا تعرفهم ، يحدثونها باحترام ،
ومع ذلك فكل ما يتصل بها لا يدعو الى احترام ، فهي تلبس
ثياب وصيفة ، ولكن سيدة تلبس ثياب الشرف والمكانة العالية
تخاطبها بلقب صاحبة الجلالة ، وتنحنى لها انحناءة فيها من
الاشفاق عليها ، أكثر مما فيها من الاحترام

أما هذا الغلام فهو ابنها بلا شك ، وكذلك هذه الفتاة هي
ابنتها . ولكن ما بالها لا تشعر بالحاجة الى الصاقهما بها ، ولا
بالرغبة فى تدليلهما ، بل أنها لو خیرت لطلبت ابعادهما عن
ناظرها . انهما يذكرانها بشيء لا تعرف كنهه ، ولكنها تحس انه
شيء كربه الى نفسها

ربما كان مرآهما يذكرها بأنها ضعيفة لا حول لها ، وانها لا تملك لهما ، ولا لنفسها نفعا ولا ضرا .. انها مثلهما في كنف سواها ، هو الذى يتصرف فى أمرها دون ان يسألها الموافقة . وغريزة الام تحملها على أن تبسط رحمتها ، وجناح رعايتها على الاولاد ، فاذا كانت هى مهیضة الجناح ، فما اضيع الاولاد ، وما أوجع النظر اليهم

وبعد ، هل تستطيع ان تسترسل مع هذه الخواطر الكثيرة الفامضة ، وهل تملك الوقت الذى تضعفه فى تأمل حالها ، وتبين موقفها ؟ يبدو ان ذلك كذلك بات أمرا عزيزا .. فلا بد أن تنهى للرحيل من هذا المكان المجهول الى مكان مجهول آخر ، فالظاهر ان « المجهول » قد استولى عليها ، فأصبحت ملكا له ولما أشرقت الشمس وشمل الضوء المكان ، زادت الامور لها وضوحا ، وأحست اولا انها متعبة منهكة .. وان كل عضو فى جسمها يكاد ينفصل عن سائر الاعضاء . وانها مجموعة من العظام المتناثرة والاشلاء المبعثرة . ولكن لابد من عزم حازم ، لتجمع هذه الاشلاء جمعا سريعا ، لتقف على قدميها

وجمعت أعضائها المبعثرة ، او اشلاءها المتناثرة . فأصبحت كأننا حيا متماسكا .. وبقي ان تدب فى هذا الكائن حرارة العزم والارادة

وفى لمح البصر عادت الى ماري انطوانيت ذاكرتها التى كانت قد تفتتت تحت ضربات التعب ، والمهانة ، والحاجة الشديدة الى النوم . فعرفت انها ماري انطوانيت ، ملكة بلا ملك وسيدة

بلا سيادة .. وانها فرت من مصيرها ، فتبعها هذا المصير ،
واعادها من « فارن » حيث كانت موشكة ان تنجو

وذكرت ان ناظر محطة ذا حزم وارادة ، هو الذى فعل ذلك ،
وانه هو الذى ألزم عمدة فارن ان يبقياها فى بيته ، حتى انكشفت
محاولة فرارها ، فتجمع الشعب حول بيت العمدة ، فعرفت
شخصيتها ، وها هى فى طريق العودة الى باريس

وان اثنين من أعضاء الجمعية الوطنية فرضا عليها ، فركبا
معهما العربى . وانها الآن فى المرحلة الاخيرة الى باريس

وفجأة ذكرت « برناف » هذا الشاب الذى تحدث اليها فى
العربى ، وتناقشت معه ومع زميله « بشيون » ثم استأنفت معه
حديثا على انفراد ليلة أمس فى « مو » . فأحست انه رق
لحالها ، ثم تأثر بمنطقها

لقد كان يحسبها مخلوقا لا يمكن التحدث اليه ولا التفاهم
معه ، وان رأسها كجوزة الهند الخاوية . قد يكون موشى
من الخارج بالذهب ، ولكنه لا ينطوى فى داخله الا على أفكار
عفنة ، ومبادئ قوامها احتقار الناس . فوجد عندها أشياء
غير ما كان ينتظر .. لقد صارحها بذلك

فلما ذكرت مارى انطوانيت « برناف » أضاءت ابتسامة على
شفتيها ، وقفزت من سريرها ، كالعهد بها حينما كانت تتقلب
فى اعطاف النعمة . وبعد قليل ، كانت مستعدة لان تستأنف
حديثها مع صديقها « برناف »

تناولت طعام الافطار بشهية ، وبدأت نبرات صوتها الجميل ،

تشيع في المكان الذي آووا اليه حياة . واجتمع أعضاء الركب
كله حولها .. ثم جاء « برناف » فاستقبلته كصديق

ولا يجب ان نخفى عن أنفسنا ان « برناف » كان سعيدا
كل السعادة بهذا كله ، فقد كان محاميا وفد الى باريس من
الريف ، وكان مخلصا ، ميالا الى تصديق الناس ، مثاليا .
ولم يكن عرف من النساء من هي في دهاء ماري انطوانيت ، ولا
في سحر حديثها ، ولا في حلاوة صوتها ، ولا في حيويتها وبراعتها
في اصطياد الرجال

فلما لقيها في الصباح ، ظن انه سيكمل الغزوة السياسية
التي بدأها في العربة ، والتي كادت تكمل في المساء قبل النوم .
فان الملكة قالت له في الليل قبل أن تنام ، وعيناها شبه مغمضتين:
« اننى لم أكن افهم الثورة على هذه الصورة . ان الثورة
شيء معقول ، وأهدافها ليست جهنمية كما أوحى صحف مارا
وأمثاله »

وفرك « برناف » يديه فرحا وهو يذهب الى فراشه ، فقد
أسعدته فكرة كسب الملكة لمبادئه ، واقناعها بأسلوب من الحكم
نظيف ، توزع فيه السلطات توزيعا عادلا بين الملك والبرلمان .
وإدارة موحدة لفرنسا ، تزول معها الفواصل بين المقاطعات
والأقاليم الفرنسية . مع نظام عادل للضرائب لا تنفرد بتحمل
أعباء الطبقات الفقيرة . وعناية خاصة بتعليم الشعب ، وفتح
الوظائف في الجيش والحكومة والكنيسة لإبناء الطبقات العاملة
والمتوسطة وإلغاء مناصب البلاط الزائدة عن الحاجة ، وقصرها

على ذوى الكفاية والسمعة الحسنة ، وازالة الحواجز بين الملك
والشعب ، وبين العائلة المالكة جميعا والناس . وضرب بيد من
حديد على البذخ والاسراف ، وقضاء مبرم على الامتيازات التى
تجعل الاشراف والاغنياء عبئا على الامة وخزانها . واعادة
النظر فى ديون الدولة وسياسة قروضها . وتوفير القمع
والدقيق وأقوات الفلاحين والفقراء . واهتمام بصناعة البلاد
التي تخلفت عن صناعة بريطانيا بغير مقتضى ولا داع

وبالجملة هو برنامج اصلاح شامل ، كانت مارى انطوانيت
تؤيد كل فقرة فيه ، وتضيف اليه وتؤمن عليه

لقد قربت الشقة بين الثورة والملكة !

تلاقى النقيضان .. وتقارب البعيدان ، بفضل فصاحة محام
من الريف ، جمعت الصدفة المحضة برأس الارستقراطية فى
فرنسا ، سليله هابسبرج وقرينة رأس البوربون ، وعدوة
الاصلاح ، والدستور ، والشعب

وردد برناف الحجج التى اقنع بها الملكة ، فسكر بخمر
فصاحته ، ورأى انه يستطيع بهذه الفصاحة الرنانة ، ان يخدم
الثورة والشعب خدمات جلى !

ولكن كيف ؟

ليس بالاطاحة برأس هذه الملكة ، كما كان يتمنى منذ يومين ،
ولا بالقضاء على الملكية كلها ، كما كان يؤمن .. ولا حتى
بتجريد الملك من سلطانه والابقاء عليه كمجرد رمز .. بل
بأحداث حكم متزن تتعادل فيه السلطات ، وان كانت كلمة

الشعب فيه هي العليا ، لانه مصدر السلطات ، واساس
الحكومة .. وهو البداية والنهاية

لكن بقى شرط واحد .. هو ان تتعظ الملكة بالماضى .. فلما
طلب اليها ذلك ، اعلنت توبتها عن كل ما حدث
ولكن ما الضمان ؟

الضمان أن يوجد الى جوارها مستشار قلبه مع الشعب ،
ينبع من هذا المعين ، وينحدر من هذا الاصل . مستشار كابد
الفقر ، ورأى كيف يتقلب الفلاحون والعمال ، على جمر الحاجة
والخوف من السلطان . ورأى آباءهم يتضورون جوعا ، ومع
ذلك تنتزع من أفواههم لقمة العيش ، لتعطى لجباة الضرائب
لتعيش الملكة فى قصر التريانو أو فرساي ، وليكون للامراء
قصور ، وضياع

وقبلت الملكة فى الحال هذا الرأى ، وقطعت على نفسها عهدا
أن تبحث عن هذا المستشار المخلص الامين المحب للشعب ،
المؤمن بمبادئ الثورة ، الذى تتلمذ على فلاسفتها .. روسو
ومونتسكيو ، وفولتير ، وديدرو

ولكن لم البحث ، والمستشار قريب منا ؟ انه « برناف »
نفسه .. وسألته الملكة وهل تقبل ؟ فقال ابن الشعب البسيط
الذى يفيض صدقا واخلاصا بلا تردد : أقبل
وتصافح الاثنان



قال لها : ماذا يخيفك من الثورة ؟

قالت : هذا العنف الضارى . هذا الميل الاصيل الى التحطيم
والازالة ، الى الاعتداء والاهانة ، حتى لو لم يكن ما يدعو الى
هذا ، أو الى بعضه

فقال لها « برناف » : لاتخطئى ، فليس ما ترين هو الثورة
ان الثورة عمل عقلى . انه تفكير فى الواقع ورغبة فى تبديله
وهو تأمل فى أسس النظام القائم ، وإرادة فى تغييره . أما
ما ترين من عنف وشدة وضراوة ، فهو لاء هم الناس أيا كانت
طبقتهم اذا اجتمعوا ، لاسيما اذا اجتمعوا غاضبين ، فليست
الاناة من صفات الناس اذا كثر عددهم وضمهم مكان . انك
اذا تكلمت الى واحد أو اثنين ، لم تحتاجى الى رفع صوتك .
أما اذا خاطبت مائة كان لابد أن تعلو طبقة صوتك ، ولكى يعلو
الصوت لابد من قدر من الدم يندفع من القلب الى شرايين العنق
يلتهب له الرأس حرارة واذا التهب الرأس اختلت موازينه
قليلا . . هذا ما يحدث للفرد الواحد الذى يقف أمام الجماعة
ويتحدث اليها ، فماذا يحدث له اذا اختلط بها ؟ يحدث له
قطعا أضعاف ذلك

وابتسمت ماري أنطوانيت وهى تسمع هذا الحديث ،
فقد ذكرت شيئا لا يعرفه « برناف » يؤكد كلامه ويؤيد صحته
ولكنها لا تستطيع أن تطلعه عليه ، فقد كان شأننا خاصا من
شئون القصر ، وخلاصته أن الملكة تآقت الى تمثيل رواية زواج
فيجارو على مسرح القصر ، ولكن مؤلف هذه المسرحية «بومارشيه»
كان سييء السمعة ، فقد كان متهما عند بوليس باريس

وبوليس فيينا بأنه من خصوم الملكية ، وخصوم ملكة فرنسا
بالذات ، وأنه يؤلف فى الطعن عليها رسائل من تلك الرسائل
السرية التى تراها الملكة والملك على موائد الطعام وتحت وسائد
النوم ، وفوق مكاتب القصر ، فاعترضت الرقابة عليها ،
ولكن « بومارشيه » عفريت لا تنفذ له حيلة ، فقد توسل الى
مدام بولينك صديقة الملكة الحميمة لتحصل على موافقتها
على اطلاق سراح هذه المسرحية ونجح فى كسب عطف مدام
بولينك بعد أن قرأ لها هذه المسرحية المسلية المضحكة فى
صالونها ، فأضحكها وأضحك صديقاتها وأصدقاءها ملء
الاشداق . وذهبت الملكة الى الملك ترجوه أن يوافق على اطلاق
سراح المسرحية ورفض الملك أول الامر رفضا باتا ، ثم لان
فقبل أن تقرأ له ، فلما استمع اليها أعلن أنها رواية جهنمية
لا يمكن أن يوافق عليها فقد سخرت هذه المسرحية من كل
مقدسات الحكومة . وكانت الملكة قد أعدت المسرحية ووزعت
أدوارها ، وأخذ الكونت دارتوا دور فيجارو فيها . ووزعت
بطاقات الحضور ، فلما صمم الملك على رأيه ، أعلن عدم تمثيل
المسرحية ، وصدم المدعوون أعظم صدمة . . ولكن الملكة لم
تتأس ، فمازالت بالملك حتى أقنعتة بالموافقة على تمثيل الرواية
مع رفع فقرات منها تتضمن النقد الصريح للاشراف ولحياة
النصور . . وحدد موعد جديد لتمثيل المسرحية التى تهاجم
الملكية ، على مسرح الملكية ذاتها ، وفى قصر الملك والملكة . .
بل لقد مثلت الملكة نفسها دورا فيها

فماذا حدث ؟ .. تهافت الامراء والنبلاء والاشراف واتباعهم
على شراء بطاقات حضور هذه المسرحية ، كأنها تمجيد لهم
واشادة بذكورهم ، لا لشيء الا لان الرواية منعت ، فزاد منعها
من فضولهم ، ولان الملك هو الذى منعها بالذات ، وكان منهم
كثيرون يودون أن يروا سلطة الملك تتحطم ، لان الملك حطم
سلطتهم ، أو لان الملك فى رأيهم عقبة فى طريق وصولهم الى
العرش الذى يحلمون به .. وفى ليلة التمثيل ذاتها حدث
ما لو رآه أحد العقلاء من أبناء الشعب لاستنكره ، فقد تدافع
النبلاء الوقورون ، والشريفات الرصينات ، على الباب ، وزحم
بعضهم بعضا ، واشتد ضغطهم وضغطهن على متاريس الباب
حتى حطموها ، وتدفق سيلهم الى صالة المسرح كالاطفال
الصغار ، بل كأطفال الرعاع الذين تشكو منهم الملكة الآن
نسوا وقارهم .. نسوا مراتبهم ومكانتهم .. ونسوا ما
هو أهم واكبر . نسوا أن الرواية كتبت لتطعنهم ، ولتستحث
الناس على السخرية بهم ، والنيل منهم ..

نعم ، انها الجماعة ، تفكر دائما بغير ما يفكر به عقل
الفرد الهادى.

ولم ترو مارى أنطوانيت بطبيعة الحال كل ما دار بخلدها
وهى تذكر هذه الذكرى من حياتها التى يبدو أنها لن ترى
شيئا منها بعد ذلك .. شيئا من هذه المتع التى تكاد تكون
نزوات

كان الحديث بينهما أساسه الرغبة فى التلاقى لا التباعد

لذلك لم تر مطلقا فى تفسير « برناف » لظاهرة العنف فى الثورة ، ما يخالف المعقول ، واعترفت بان تلك ظاهرة منفصلة عن جوهر الثورة

فقال لها برناف : وماذا أيضا تأخذينه على الثورة ؟

ف قالت : هذا الشعار المثلث ، لا أحسبه قائما على أساس من التفكير ، انه مجرد وسيلة للاثارة

فقال : وماذا فيه يخالف العقل ؟

قالت : خذ مثلا الحرية .. ماهى الحرية ؟

فبدأ على برناف دهشة صادقة وقال : رباه ! هل الحرية شيء غير معقول ؟

ف قالت مارى أنطوانيت فى هدوء : نعم ، ان الحرية معناها الفوضى . معناها الاستبداد الذى تكرهه أنت ، والذى قامت الثورة لتحطمه وتقتلعه من جذوره فهل أنت تؤمن بالحرية ؟ يا سيدى خير لك أن تؤمن بالنظام أو بالعدالة أو بالحق ، أما الحرية فشيء مدمر ، وسترى

فقال : ان غاية الحياة أن نتحرر

ف قالت مداعبة : اذن لماذا تقودنى الى باريس ؟ لماذا حشرت نفسك معنا فى عربة لا تتسع الا لأربعة ، فأصبحنا فيها ثمانية ؟ هل باسم الحرية تراقبنى ، وباسمها تعيدنى وزوجى وأولادى نسرا ، وباسمها تفرض على مبادئك ؟

فقال : لا .. لا .. هذا لعب بالالفاظ

ولم يلبث أن توقف ، وقد أحمر وجهه خجلا ، وبدأ عليه

ارتباك شديد ، فقد غلبته سليقته البسيطة غير المتأنقة ...
ولاحظت الملكة ارتبাকে فقالت :

ان قواعد المناقشة ان يكون كلا المتناقشين منطلقا .. ان
يكون على حريته .. وابتسمت

فقال وقد ذهب ما كان قد اعتراه من الخجل : هذا احسن
.. نحن نعنى الحرية الآدمية لا حرية الاحراش .. حريتي
لا يمكن أن تمس حرية غيرى

فقالت الملكة وما هى حريتي ؟ كيف تبدأ ، ومتى تنتهى ،
ومن الذى يحددها ؟ أنا ام انت أم الاقوى منا ؟

فقال برناف : الشعب .. المجموع

فقالت : هل كان الشعب موجودا حينما كان الامراء ،
أصحاب الاقطاع ، أصحاب السلطة الكاملة ؟ وهل كان موجودا
حينما كان الملك سيد الامراء ، وصاحب الكلمة الاولى ، ام لم
يكن ؟

فقال برناف : كان موجودا بالطبع ، ولكنه كان مغلوبا على
أمره ، لم يكن متمتعا بحريته ، كانت هذه الحرية قد سلبت
منه ، لذلك فهو يطلبها .. ويطلبها بهذا العنف الذى تشكين
منه

قالت : اذن لم يكن هناك ضمان دائم بأن السلطة التى
ترفضها لتحديد الحرية ستكون قادرة على ممارسة هذا
العمل الاساسى

فاجاب : حينما تتأصل الحرية عند كل الشعوب فلن يتمكن

احد من الاعتداء على الحرية . أبدا . . مطلقا
قالت الملكة : لا تغضب اذا قلت لك ان كلمة الشعب اكثر
غموضا من كلمة الحرية

فقال فى بساطة وهدوء : الشعب . . هو نحن جميعا ، بلا
تمييز ولا تفرقة . . والجميع من صغار وكبار ، من فقراء
واغنياء

فقالت الملكة : هذا التبسيط خطر . . انا اؤكد لك اننى
اردت ان اتبين الشعب فى كثير مما يحدث ، فلم أجده . .
أنا أريد أن اقتنع بوجوده كاعتناك ولكنى لم استطع . ربما
لأنى كما تقولون ولدت بعيدا عنه ، وان اسلوب حياتى يختلف
عن اسلوب حياة الاغلبية من الناس ، ولكن ليس هذا مبررا
معقولا ، فان كل طبقة لها ظروف تختلف عن ظروف الطبقة
الآخري اننى اؤكد لك ان عقلية الفلاح تختلف عن عقلية زميله
الذى يعمل نساجا . . ان الطباخ الذى يعمل فى قصر فرساي
يختلف عن الطباخ الذى يعمل عند أحد النبلاء . ولكننا جميعا
نحن البشر ، مهما كانت درجاتنا ، ومهما كانت نشأتنا نعرف
حقائق الحياة ، نعرف الجوع والشبع ، والخوف والأمن ،
والحب والكره . فهل الشعب شئ من هذه الحقائق ، أم هى
نظرية تفرضونها ؟

فابتسم برناف ، وكأنما يسمع كلام طفلة لم تتلق من العلم
ما يؤهلها لان تفهم البديهيّات ، ثم قال لها : الشعب هو
الحقيقة الاصلية ، انه يملأ بوجوده الارض ، والملوك منذ اقدم

العصور يدعون انهم يحترمونه ، فالشك في وجوده ، كالشك في وجود الانسان نفسه

فقاطعته الملكة قائلة : انا اذن لم احسن شرح فكرتى ، ان اقراد الشعب موجودون ولست انكر وجودهم ، كما لا انكر ان هناك مصلحة كبرى لهم غير مصالحهم الضرورية . تلك هى قيام دولة تحميهم وتضمن لهم العيش الرغيد . ولكن هل يمكن ان يكونوا هم مصدرا لمبادئ سياسية ؟ هذا ما اشك فيه ، وهذا ما اريد ان اقتنع به

وبدا الامر لبرناف اقل سهولة مما كان يتصور ، فقال : هل تشكين في ان للشعب ارادة مشتركة ؟

فاجابت مارى انطوانيت في هدوء : نعم ، انه يصلح ان تخلق له الارادة المشتركة . ان الشعب مجرد غريزة وليس عقلا . والغرائز فى رأى هى التى تحمى الانسان ، وهى احسن قائد له . . فالتفكير من عمل الخاصة ، من عمل الحكومة ، والقادة هم الذين يرون مصلحة الدولة التى هى مصلحة الشعب ، فيقنعون الشعب بها ، فيتبناها ، وقد يرفضها بعد حين ، اذا لم يكن الاقناع كاملا . او كان الحاكم ضعيفا . او كانت الحجة قصيرة العمر

فقال برناف : لاجدال ان الشعب لا يستطيع ان يفكر فى الامور ، ويصدر فيها قراره ، وانما هو يفهم مصلحته العامة ، ويعرف من يصلحون للقيام عليها

فقالت الملكة : اذن كيف تقولون انه مصدر السلطات ،

ونكرون حق الملوك الالهى فى الحكم ، مع ان هذا الحق
الالهى ايسر ، واكثر انطباقا على العقول ؟

فقال برناف : ما دام الله هو الذى يختار الملك ، فهو الذى
يحاسبه ، ولا سلطان للشعب عليه

فاجابت : لاننا لو جعلنا للشعب سلطانا عليه ، استحال
علينا ان نتعرف على كلمة الشعب وحكمه

فتساءل برناف : اذن من يحكم على الملك ؟

فاجابت : الله الذى اقامه ، ان الله الذى يمنحنا الحياة ،
يحرمننا منها ، والذى يعطينا القوة يسلبها منا . نحن لا نأتى
الى الدنيا باختيارنا ، ولا نذهب عنها بارادتنا . ولسنا نعطي
كل ما نتمناه . والحكم ليس بدعا من هذا كله ، فاذا اردنا
ان نصلح الملوك بأن نأخذ منهم السلطة ، حرنا بهذه السلطة ولم
ندر الى اين نذهب بها

فقال : لا مبرر للحيرة ، ان الشعب هو الذى يعرف مصلحته
ويعرف من يصلح لحكمه

قالت : تعنى الاحزاب ؟

قال : أبدا .. الشعب نفسه لا أحزابه

قالت : ان الشعب لا يجتمع فى صعيد واحد . ولو تكلم
خمسة وعشرون مليونا فى وقت واحد لم تفهمهم .. فلا بد من
آخرين يتحدثون عنهم ، وهؤلاء الآخرون يختلفون فيما بينهم
فضلا عن انهم لا يستطيعون ان يفصلوا بين مصالحهم الخاصة
ومصالح الجماعة التى يمثلونها .. أنت قلت لى ان « مارا »
لا يمثل الثورة ، ولكنه فى رأى الآلاف هو الثورة ...

وانت والسيد « بشيون » عضوان في الجمعية الاهلية ، ومع ذلك فنظرتكما الى الامور متباينة ، فاين هي ارادة الشعب المشتركة التي ستحدد معنى الحرية ، وتبين طرق استعمالها . . انا افضل ان تحل كلمة النظام محل الحرية

فأجاب برناف : اننا لم نحل المشكلة أبدا ، فالنظام يحتاج ايضا الى من يحدده . لا بد من سلطة تفرضه ، فمن يكون صاحب الحق في اقامته ؟

فقالت الملكة : الخطر في ان تقول للناس أنهم أحرار ، والحقيقة أنهم مقيدون . أنت تدعوهم الى ما يضلهم ويزيغ أبصارهم ، حتى يفلت قيادهم منك ، فتضطر الى تأديبهم ، والاساءة اليهم . . الحرية شيء غير موجود في هذه الدنيا

فاحتج برناف قائلا : نحن نولد أحرارا

فقالت الملكة : صديقكم روسو هو الذي قال ذلك ، ولكننا مقيدون منذ اللحظة الاولى بالزمان الذي نولد فيه ، وبالمكان الذي نعيش داخل حدوده . . لو ترك الطفل لمات . ولو فعل كل ما يريد لما عاش . ان حياتنا هي خلاصة القيود . هي النظام

فقال برناف : الحرية لا تتنافى مع النظام

فقالت : كيف ؟ الحرية هي عدوة النظام ، لان النظام هو القيود ، ومع ذلك فأنتم تقولون الحرية والمساواة ، أى انكم وضعتم النقيضين جنبا الى جنب . كيف نكون أحرارا ياسيدي ومتساوين في نفس الوقت ؟ مع أنه حينما نكون أحرارا سيسودنا الأقوى ، فنتنفي المساواة . وحينما نتساوى ،

سيلتزم الأقوى بالسير مع الأضعف ، فلا تكون أحرارا ..
صدقنى اننى لا أفهم هذا الشعر

فقال برناف برفق وقد أعجبه هذه الطلاقة فى القول :
نسيت ان ابين الحرية والمساواة والاخاء . انه صمام الامان
الذى يحدث تعادلا بين هذين الطرفين ..

فقالت الملكة : خبرنى بربك يا سيدى ماذا يفعل الاخاء ،
على فرض ان الاخاء كلمة مفهومة المعنى والحدود عند الجميع ؟
فقال برناف : ان الاخاء سيمنع الاقوياء من الاستمتاع
بالحرية دون أن يحسبوا حسابا للضعفاء ، فيتئدوا فى سيرهم ،
ويتلطفوا فى كل مايصدر عنهم ، وسيخفف من غلواء الضعفاء
الذين سينادون دائما بالسير على قدر طاقتهم ، وسينزع من
قلوبهم الحقد على المتفوقين والحسد للممتازين انه قيد للحرية
والمساواة ، وتقريب بينهما

فضحكت الملكة ضحكة رنانة كان لها فى قلب برناف مثل رنين
صوت ناقوس من ذهب . وقالت : يا لهذا الاخاء المسكين
من زميل تعس ضعيف لا حول له ولا قوة بين جارين لايرحمان
انا اخشى ان تدوسه الاقدام فيقع على الأرض ، ويرتطم
بسطحها الجامد ، وهو يصرخ دون أن تسمعه اذن ، ودون أن
يرحمه قلب

فقال برناف فى صوت المحتج :
انت تسيئين الظن بالطبيعة البشرية ، ان البشر أطيب
سريرة مما تظنين ، فالاخاء ولا شك سيكون أسعد حظا

مما تتصورين

فقالت الملكة :

ليس فيما أقوله أساءة ظن بالطبيعة البشرية ، ولا فيما أقوله
احسان ظن بها ، فالحرية قوة جارفة لا تقبل بطبيعتها الحدود ،
حسبك أن تترك طفلك ليرقى من الفعل الخفيف الى الفعل
العنيف في دقائق ، فان عودته على الانطلاق اعتمادا منك على
سلطتك عليه ، وعلى ضعف جسمه وقلة تجربته ، وجدته
ضاريا لا يقبل منك النصيح ، ولا يرضى بالنزول عن شيء أعطيته
اياها . والرجال اطفال كبار والشعوب هى مجموعة من هؤلاء
الاطفال

فأدرك برناف ما تهدف اليه الملكة ، فقال :

هذا بيت القصيد ، فأنت تحكمين على الشعوب كما تحكمين
على الاطفال ، وترين فى تعويدها الحرية اضرارا بها وبمن
يوجهونها

فواجهته مارى أنطوانيت قائلة :

ان ما يضر الشعوب هو اثاره خيالها بكلام غير محدد ، هو
مداعبة أحلامها التى كانت تساورها منذ القديم . فمثل هذا
لا يصدر عن مسئول يحب الناس ، ويحب الشعب . واجبنا
جميعا ان نعطى ما نملك ، والا فنحن لم نعط شيئا

فقال برناف : أو ليست الحرية مما نملكه ؟ ان الحرية هى
اول ما ملكه الانسان

فقالت الملكة فى جد باد : بالعكس هى اول ما فقدناه ، ومع

ذلك فقد عوضنا الله خيرا منها . أعطانا النظام . والنظام هو الذى قاد خطوات أجدادنا الى الحضارة والعلم والقوة . ان الحرية ما كانت تستطيع ان تمنحنا سوى الآلام والتردى فى العذاب

فعلق برناف على هذا الكلام شارحا وجهة نظره :

ان الناس بلغوا من الرقى درجة يستطيعون معها ان يفهموا للكلمات مدلولات معقولة وحضارية دون حاجة الى كلام كثير ، فنحن حينما نقول الحرية نعنى الحرية المنظمة . الحرية التى يحترم فيها الاقوى منا الاضعف ، والاسرع منا الابطأ ، والقادر منا العاجز ، ونعنى بالحرية التعاون لا التنافس المؤدى الى ان يذبح بعضنا بعضا ، ويثب بعضنا على بعض .. فهذه حرية الغابة

فقلت مارى أنطوانيت : أنا لسوء حظى ممن لا يطبقون قراءة الكتب ، وقد كان هذا مما يؤخذ على . ولكنى قرأت القليل من الكتب عن حياة الغابة . وأؤكد لك يا سيدى أننا لا نعرف شيئا صحيحا عن حياة الوحوش فيها . فهناك نظام أكثر مما تتصور .. وليست الوحوش الاقوى هى صاحبة السيادة هناك ، فالحيوانات الصغيرة تتجمع بحكم غريزتها فى جماعات لكل منها قائد ورئيس ، تطيعه وتسير وراءه ، وهى اقوى بحكم هذا النظام والتعاون ، من وحوش كاسرة ترهبها وتحسب حسابها

فقال برناف وقد بدأ صبره ينفد وصدره يضيق : يبدو لى

أن في كلمة الحرية ما يشير غضبك ، ولكن هذا اللفظ هو الذي
أعطى كل فلاح في فرنسا أملا ، وجعل من هذه الأمة المتفرقة
وحدة ، وأيقظ هؤلاء الذين كانوا يعيشون فيما يشبه الغيوبة
وحقق لهم ما عجزت السنون الطويلة عن أن تمنحه لهم . لقد
كانت فرنسا دولا داخل دولة . كانت الحواجز كما قلت ، وكما
قال كالون تفصل بين المقاطعات والمحافظات . لم يكن هناك
تشريع واحد يسود الفرنسيين ولا قضاء واحد يحكمهم ، ولا
نظام للضريبة موحد يشملهم . كانت في فرنسا مقاطعات نسميها
المقاطعات الأجنبية ، وهي من صميم بلادنا . لم تكن لنا إرادة
مشتركة . كنا ولا نزال نعاني المجاعة لسبب غير مفهوم ، فبلادنا
أغنى بلاد أوروبا الزراعية . فلما أضيفت كلمة الحرية وتوهج
نورها ، واشتعلت نارها ، لم يعد الفقراء
والصغار والضعفاء خائفين . . نزع من قلوبهم الخوف الذي
زرعه أمراء الاقطاع ، وجباة الضرائب ، والخطابات المغلقة ،
ومحاكم الكنيسة . وفي أقل من لمح البصر ، زالت الحواجز بين
مقاطعات فرنسا ، وتنافس الأمراء وأصحاب الامتيازات في
النزول عن امتيازاتهم . وعقدت الجمعية الوطنية بعد قرنين
غطت خلالهما في نوم عميق ، أو ماتت بعبارة أدق . وأحس
الناس جميعا بالحاجة الى دستور . أحس جلالة الملك ،
وأحسست جلالته بأن الدستور ضرورة ، لا يمكن أن يعيش
أهل فرنسا بغيره ، وتزاملت الطبقات الثلاث ، بعد أن كانت
كل طبقة منها تمثل أمة وحدها ، وتأبى أن تقر لغيرها بحق

المساواة بها . ووضع الشعب الفرنسي اول وثيقة تعلن للشعوب
حقوق الانسان .. كل هذه ثمار كلمة الحرية التي تصغر
من شأنها ، وتصفينها بأنها كلمة جوفاء ، ولفظ رنان بلا معنى .
وانها تغرى الاطفال بالاقدام على اللعب بالنار .. قد تكون
الحرية نارا تحرق . ولكن الشعوب لن تعرف ما يأتى منها
من خطر الا اذا تذوقتها وتمتعت بها ، ومن أعماق أعماق الحرية
سينبثق النظام الذى لا بد منه لتبقى الحرية ذاتها ، وفي
ضوئها تقام الحواجز والحدود التي تحميها من اعدائها ، والتي
تبقى عليها كقوة خيرة فعالة مبدعة . أما التبرع بالحرية من
الغير ، ومنحها للناس في صورة أقساط ، مع تكبيلها بالقيود
والشروط ، ومع تنصيب قيم على الناس وهم يتناولونها
ويستعملونها ، فهو اهدار للحرية ، وفتك بمعناها وقضاء على
جوهرها .. ان في الناس ميلا الى الخير أكثر مما تتصورين ،
وما يصدر عنهم من شر ليس الا ثمرة حرمانهم من حريتهم او
ثمرة جهلهم وقلة خبرتهم ، وتسلب قوتهم على ضعيفهم . وهم
حينما يتحركون بلا سلاسل أو أغلال ، سيرون أنفسهم
مدفوعين دفعا الى المساواة . فاذا زاغت ابصارهم ومالوا الى
الاستعلاء كان هذا الديدبان الحارس ، كان الاخاء الذى هو
صوت الضمير العام للجماعات ، الكفيل بأن يجعل الحرية
انطلاقا لا فوضى ، ويحيل المساواة تعاونا ، لا اغلالا وقيودا
كان برناف يتكلم وهو ينصت الى صوته ، فاخذته نشوة
مسكرة بجمال هذا الصوت ، ورنينه في اذنيه . وامججته

قدرته على ان يقول كلاما متتابعا ، لم يحضره من قبل ، ولكنه
كان يعبر في غير تردد عن المعانى التى يريد بها بالضبط . ومما
أسعده أكثر من كل شئ ، ان مارى أنطوانيت انصتت اليه
انصاتا حسنا ، وتابعت به بعينيها اللماعتين البراقتين ، وكأنها
استعذبت طريقته الخطابية ، وأعجبت برجولته وقوة إيمانه
وكان هذا كله كفيلا بأن يقرب بين طرفى المناقشة ، لا ان
يبعد بينهما ، وان تخلق هذه المناقشة مودة ، لا تباغضا ، فقد
كان هذا السباق الكلامى توددا ، أكثر منه توثبا ، وغزلا أكثر
منه حربا



الفصل التاسع

لم يكن ممكنا ان تبقى الملكة ، ويبقى برناف ، فى « مو » الى غير حد . لقد انساهما جو البلدة ، والحوار الذى يفيض مودة ان هناك قوة أعلى منهما تدفعهما دفعا ، وتدفع باقى الركب الى باريس ، تلك هى قوة الثورة التى لم يكن احد يعرف من هو صاحبها ولا من اى مكان تنبعث ، ومع ذلك كانت تسيطر على الاشياء والاشخاص والمصائر والاقدار فى فرنسا ، وكانت تشكل الاحداث وتخلق الانظمة وتكون التيارات ، وتولد المذاهب والمبادئ والافكار

طرقت الثورة باب هذين الشابين ، مارى انطوانيت وبرناف ونبهتهما الى ان ساعة الرحيل قد حانت

وقامت الملكة فقامت عيناها بحزن عميق ، أو اذا اردنا الحق بشئ آخر لا اسم له فى عالم العواطف البشرية ، فهو مزيج من الحزن ، والشعور بالمهانة ، والخوف من المستقبل ، مع رجاء قوى يريد أن يدفع كل هذه الاحساسات الضعيفة أو القائمة ، مع رغبة تماثله قوة فى الخلاص من الحياة ، تصاحبها رغبة اشد فى التشبث بتلك الحياة نفسها ، من أجل ابنها ، ومن أجل حبيبها « اليكس فرسن » ومن أجل شفاء ما فى قلبها

من رغبة متوهجة للانتقام من كل الدين اهانوا الملكية وانقصوا
حقا من حقوقها

فبماذا تسمى هذا الاحساس المركب المعقد ؟
وجاءتها في هذه اللحظة مدام اليزابث شقيقة زوجها ، وعلى
وجهها علامات مما اشتهرت به من تقى وتمسك بالدين ،
وقد اختلطت بشيء آخر لم تفهمه جيدا ، يكاد يكون فرحا
بالحياة واملأ فيها

ولم تعرف الملكة سر هذا الفرح ، مع أن « بشيون » جاء
في اعقاب مدام اليزابث ، وعليه بدوره سرور باد
فان أردت ان تعرف سر هذا السرور المشترك ، فاعلم ان
الاثنين قضيا وقتا ممتعا ، لم يكن غزلا كله ، ولكن صرف
بعضه في غزل وبعضه الآخر في نصائح سياسية من بشيون
وتحذيرا من عاقبة الوقوف في وجه الثورة ، وتبشيرا بمبادلتها
وتلويحا بالامل في عقد صلح بين الملكية والثورة ، يهادن فيه
كل فريق الآخر ، مهادنة تحقق للشعب آماله في الحرية ،
والحكم الصالح ، والرفاهية والرخاء ، وتحقيق للملكية سلطة
واضحة المعالم ، بينة الحدود . ولكن بشيون كان يجد وهو
يزجى هذه النصائح الى هذه الشابة متعة وسعادة
ما بعدهما متعة أو سعادة . كان يرى في شدة قربها
منه ، ما يلهمه بخواطر كانت تزيد ميله الى الحديث ،
وتزيد حديثه رقة ولطفا . . وهكذا كانت فترة الاستراحة في
« مو » ممتعة ومجددة للآمال ، ومبددة لهموم المرحلة التي
سبقتها

وأعدت العربى ، واستعد ركابها لاستئناف السفر الذى لم
يكن باقيا منه الا ساعة ونصف ساعة

كان كل شىء قد تغير فى العربى ، فى داخلها وفى خارجها .
كانت الجياد قد استبدل بها غيرها . وكان سائقوها قد استراحوا
وناموا ملء الاجفان . وكان السائسون قد غسلوا عجلات
العربى ، وأزالوا ما علق بها من طين ، ونظفوا مقاعدها ،
فبدت وكأنها أعدت لرحلة جديدة ، خفيفة ، مما يقوم بها
الناس بقصد الترويح عن النفس ، فى ختام أسبوع حافل
بالعمل والمشاغل

اما الطفلان فقد انتقلت اليهما عدوى شعور التقارب
والتلطف الذى ساد فريقى الرحلة ، فأسرعا الى العربى يقفزان
وتصدر عنهما أصوات هى أصوات الاطفال حينما يشعرون
بالامن والطمأنينة . ان ألهما من حولهما رخيو البال ، واسعو
الصدر ، لا يضيقون بأية حركة منهما ، ولا بأية لفظة تصدر
عنهما

وليس مثل الاطفال تأثرا بالجو الذى يحيط بهم ، ولا سرعة
فى الاستجابة لتغيرات النفوس والقلوب ، التى لا تكشف عنها
علامات الوجه ولا عبارات اللسان . واستقر أعضاء الراكب
فى المركبة التى أعدتها يد الحب والمخاوف ، وسهرت عليها
مناية القلب الراغب فى التضحية والفداء . وكان الملك اول
الراكبين ، ثم الملكة ، وتبعتهما مدام تورزيل ، وأخيرا بشيون
وعلى الرغم من ان مارى انطوانيت لم تسترح الراحة التى

تعوضها عن عناء السفر وما صحبه من مخاوف لا توصف
ومهانات لا تنسى ، الا أنها لفرط حيويتها ، ولصلابة ارادتها ،
استطاعت بفضل النوم القليل وبفضل تجدد عزمها على مواجهة
الحياة ، والامل فيها ، أن تبدو نضرة ، وان تعدى من حولها
بشعور السعادة والمرح

وتحركت العربية

واسانفت الجياد عملها

وبدا الحديث لا يعرف له غاية . ثم عاد الوجوم الذى بدأت
به الرحلة ... عاد قويا ، فأطفأ بيده الثقيلة الكثيبة جذوة
السرور والمرح التى كانت أضواؤها قد انعكست على ركاب
العربة . لم يكن فى مقدور أحد ان يتجاهل ان المرحلة القادمة،
هى ختام هذه الرحلة المتعثرة الخائبة . وان احدا لا يعرف
ماذا ينتظر الملكين وأولادهما ، لذلك لم ينفع التظاهر ولا الادعاء
فجنح الجميع الى سكون مطبق ، وانتقل الشعور بالوجوم حالا
الى الطفلين ، فالتصق الولد بأمه ، ولاذت البنت بعمتها ، ونظر
الملك من خلال النافذة ونظرت الملكة الى لا شيء .. الى الامام
وبدأت الجماهير تخرج من كل فج ، تحمل عصيها ،
وتحصب الملكة والملك بأقسي الشتائم .

ورأت مدام اليزابث ، وهى أقل أعضاء الركب ميلا الى
الكلام ، ان تقول كلمة ، فنظرت الى صاحبها بشيون ، وقالت :
« نحن الآن فى مفترق الطريق . نحن عائدون الى ما لا نعلمه
ولقد سمعت كلامنا ، وسمعنا كلامك . فرب السماء ، ارجو

ان تكون لنا شاهدا عند الجمعية الوطنية ، وعند الشعب على
حسن نوايانا . أرجو أن تنزع من قلوب هؤلاء الصورة التي
رسمت لنا ظلما »

فالت بيثيون حيرة لفترة ، ثم قال :

« الامر يتوقف على مسلك الجميع في المستقبل . الالفاظ
وسيلة عاجزة في كسب الثقة ، ثقة القلوب . انما الاعمال ... »

فأحست مدام اليزابث ، من هذا الرد أن « بيثيون » وقد
اقترب من باريس ، أراد أن يغسل يديه من كل ارتباط صريح
أو ضمنى بينه وبين الملكية فقالت في انكسار :

« ان اخى فعل في الماضي كل ما وسعه ليثبت حسن نيته
ولكن الالفاظ التي كانت تطلق في سماء باريس كالصواريخ،
هى التي اتلفت الكثير من الاعمال ، وأفسدت الجو ، وسممت
علاقات اخى بالشعب الذى يحبه »

وهنا تحرك الملك ببطء وتكلم ، وكأن الامر لا يعنيه :

« ماذا يطلب منى لأثبت حسن نيتى ، وشدة رغبتى فى
أن اخدم رعاياى ؟ لقد كنت انا الذى وافق على سياسة
الفرائب التى توزع العبء على الجميع ، لا على الطبقة الثالثة
وحدها ، ولما رفض الاشراف والكنيسة ، دعوت الجمعية
الوطنية للانعقاد وهى التى لم تعقد منذ أكثر من قرن ونصف
قرن ، واجريت الانتخابات وكنت اقرا كراسات الناخبين التى
لصغت التعبير عن رغبات الشعب . لقد تكلم الجميع بحرية ،
وقالوا ما يريدون ، وانت تعلم أن انعقاد الجمعية الوطنية كان

الخطوة الاولى لكل ما تلاها من أحداث . وقد قال الامراء مرارا
انى انا الذى قدت الأمة الى طريق الثورة «

وسكت الجميع ثم استأنف الملك بعد قليل حديثه قائلا :

« لم يكن انعقاد الجمعية الوطنية عملا سياسيا فقط ، فان
الانتخابات خلقت قوة جديدة ففى اعضاء الجمعية أكثر من
أربعمائة محام ، وفيها عدد كبير من التجار وأصحاب المصانع
الصغيرة . فلم تعد الطبقة الثالثة مجرد فلاحين أو عمال فقراء
لا يحسنون الدفاع عن أنفسهم . ولما اجتمع ممثلو الطبقة
الثالثة وحدهم ، أشرت على ممثلى الاشراف والكنيسة
أن يذهبوا اليهم ويجتمعوا بهم ، وكان المطلوب منى أن احصد
ممثلى الطبقة الثالثة بالمدافع . أو القى القبض على زعمائهم ،
ولكنى رفضت ، أليست هذه أعمالا ؟ »

وسر بشيون ، وسر برناف أن الملك تكلم أخيرا ، وسرهما أكثر
من ذلك انه تكلم بروح تنطوى على مودة للشعب ، واقترب من
حقوقه ومطالبه ، فسكتا مؤملين ان يسترسل بنفس الروح ،
فالجمعية الوطنية حتى هذه اللحظة ، بل حتى بعد شهور من
يونية ١٧٩١ الذى شهد هذا الحوار ، لم تكن قد اعتزمت عزما
نهائيا ومؤكدا على اقتلاع الملكية

وعاد الملك يقول :

« وانا اسمعكم تتحدثون عن فرنسا ، الدولة التى تقوم
داخلها دول ، كانى انا الذى فعلت ذلك ، وكان اجدادى هم
الذين قصدوا اليه . لقد رايت فيكما ميلا الى الانصاف ،

ورغبة في اعطاء الحق حتى للشيطان . لهذا فانا ارجوكم ان
تقولوا برأى التاريخ وحكمه في هذه النقطة ، من الذى وحسد
فرنسا ، ومن الذى اوجد هذه الطبقة الجديدة ؟ ان اجدادى
هم الذين حاربوا امراء الاقطاع ، وانقصوا من سلطانهم ، وما
زالوا بهم حتى جعلوهم حلية للبلاط . ان لويس الحادى عشر
هو الذى خلق فرنسا الموحدة ، وخاض في سبيل ذلك الهدف
العظيم حروبا مع الامراء والاشراف والنبلاء ، وتلقى بنسار
الدسائس والمكائد ، ولم تنته هذه الحروب حتى عهد جدى
لويس الرابع عشر ، فقد قضى على كل سلطان لهم ، فاتبعهم
البلاط ، واصبحوا حلية من حلى العرش . وقد كان كل نمو
لسلطان العرش ، في حقيقة الامر ، نموا لطبقة الفلاحين
والزراع وأولادهم

» واذا كانوا اليوم يشكون من حقوق الصيد ، وعشور
الكنيسة ، وضرائب الملح ، وكثرة القوانين ، وقسوة الجبابة
فلأن النير قد رفع عن أعناقهم ، فأصبحوا يشعرون بأن هذا
كله اعتداء على حقهم . وكان ذلك من قبل جزءا من الحياة ،
وأساسا من أسس المجتمع ، فليست الملكية كما يتصور بعض
الناس ، قوة رجعية دائما . . ان الامراء الذين يسخطون الآن
على سلطة العرش ، ويصفونها بأنها مطلقة ، لا يتباكون هكذا
حبا في الشعب ولا اشفاقا عليه . بل يكون على سلطاتهم التى
ضاعت ، وحقوقهم التى زالت «

وهنا رأى بشيون انه لا مناص من التدخل فقال :

« ان الملك حينما كان يضرب في سلطان الامراء وحقوقهم كان يفعل ذلك لحساب نفسه »

فقال الملك : « نعم . . بلا جدال ، ولكن هذا لا ينتقص من قدر الذى قام به من أجل المجموع ، من أجل فرنسا كلها »
قال بتيون : « لسنا اغبياء الى الحد الذى نذكر معه ان تحديد سلطات امراء الاقطاع ، وتحديد الاقطاع نفسه ، لم يخدم الشعب ، ولم يعجل بخلق فرنسا الموحدة ، ولكن الملك اكتفى في محاربة الامراء والاقطاع بالقدر الذى حقق له غرضه هو ، وأبقى على كل ما كان يسىء الى الفلاحين ، مادام ان ذلك لا يضره ، ولا ينتقص من سلطاته »

فقال الملك : « انه تصور من أكثر ما يكون مخالفة لمنطق الناس كان الملك يود أن يخضع الامراء لنفسه ، بوصفه الرأس الاعلى للدولة ، لأنه يعتبر نفسه صاحب الكلمة الاخيرة في مصالح رعاياه . وقد تخلف عن السلطان الذى ضاع على الامراء فراغ كان حتميا أن يملأه الفلاحون والزراع ، وأصحاب الصناعات ولم تكن هناك قوة غير الملك تستطيع أن تمنح هؤلاء فرصة التقدم الذى أحرزوه ، ولا التمتع بالسلطات التى انتهت اليهم »
قال برناف ضاحكا : « سلطات ؟ أية سلطات يا صاحب الجلالة ؟ لم يكن لهم سوى الفقر يتقلبون بين انيابه . كانوا عبيد الارض يلتصقون بها ويباعون ويشترون معها ، حتى بعد ان هلك سلطان الاقطاع »

فقاطعه الملك على غير عادته بقوله : « ومع ذلك هل تعرف

حال الفلاحين في روسيا وبروسيا أو حتى في انجلترا التي
تعتبرونها مثلا للحكم الصالح ؟ ان الفلاح الفرنسي احسنهم حالا .
ان تجارة فرنسا زادت منذ عهد جدى الاكبر لويس الرابع عشر ،
لثلاثة اضعاف . ولولا هذا كله لما استطاع الفلاح الفرنسي ، ان
يحمل هراوة يدق بها على عرينى . فوق راسى . ويقول
عنى ما سمعته طوال هذه الرحلة »

فطافت على شفتى بشيون ابتسامة خجول ، وقال : « نعم ،
انه الشعور بالظلم هو الذى يدفع الى الثورة ، لا الظلم نفسه ،
فسأل الملك : « ومن الذى اوجد هذا الشعور ؟ »

فقال برناف : « المفكرون »

فقالت الملكة في اندفاعها المعهود : « كلام فارغ »

ثم أدركت أنها سايرت سليقتها ، ولم ترد أن تعتذر ، فقالت :
« كلام هؤلاء فارغ »

وقال الملك وقد بدا أن عقدة لسانه انحلت نهائيا وهو يدافع
عن نفسه :

« بل الملكية .. بل الملك .. نعم ان الكثيرين كانوا يقولون
لى اننى أحفر قبر الملكية ، واننا سندفن معها في نفس القبر
.. فليكن .. اسمع ايها الشاب ، لقد كانت ثورة أخرى تقوم
في الجانب الآخر من شاطئ الاطلنطى .. كانت في امريكا ضد
الحكم البريطانى الملكى .. لقد ارسلنا اليها .. نعم ارسل
الملك والملكة اعداء المبادئ الحرة ، جيوش فرنسا لتحارب جنبا
الى جنب وكتفا الى كتف مع الثوار .. وعادوا يحملون مبادئ »

الديمقراطية وحقوق الشعب

قال برناف : « هل ذهبت جيوشنا لتدافع عن المبادئ الثورية ، أم انها ذهبت لتدافع عن ممتلكات فرنسا التي التهمها الناج البريطاني ؟ »

قالت الملكة : « ولكن كانت لنا مندوحة عن ارسال هذه الجيوش لو أن الخوف على العرش ينسينا الخوف على الوطن » وقالت مدام اليزابث ببساطة : « لم يكن احد قد سمع عن ثورات من قبل ، ولا عن ثورة كهذه .. شيء فظيع »

فقال برناف : « ما هو الشيء الفظيع ؟ »

فقالت مدام اليزابث في ذعر وكأنما هي فأر وقع في مصيدة : « الشيء الفظيع ما حدث في ١٤ يولية »

فقال برناف وهو لا يكاد يفهم ماذا تعنى : « ١٤ يولية .. ! »

فأجابت مدام اليزابث . « نعم ، الرقص حول الرؤوس المقطوعة على ضوء المشاعل حتى الصباح » فأرادت الملكة أن تحول مجرى الحديث فقالت : « ان الملكية ليست قوة رجعية دائما كما تتصورون . قد تكون رجعية بسبب حرصها على المحافظة على المقومات الاساسية للمجتمع .. والدين والاسرة وتقاليده الشعب .. ومع الزمن تفقد الملكية في بعض البلاد مرونتها . اما الملكية الفرنسية فكانت دائما تطورا ، وسبقا للحوادث .. »

وعادت مدام اليزابث تقول : « لقد قطع الرعاع رؤوس حراس وجنود الباستيل .. حسنا .. ثم علقوها فوق المزاريق

والرماح .. قد لا يكون في هذا بأس كبير ، فالإنسان حينما
يدبح لا يضره أن يعلق رأسه فوق رمح أو أن يأكله كلب .. «
وانقبض صدر ماري انطوانيت كثيرا لهذه الصورة ، وازدادت
مرة أخرى أن تغير اتجاه الحديث ، وان تصرف مدام اليزابث
منه فقاطعتها قائلة :

« كان يعاب على أن اشترك في تمثيل المسرحيات ، وعلى
وجه الخصوص مسرحية المسيو بومارشيه .. أهذه رجعية
أم تطور ؟ »

فضحك برناف ملء شذقيه ، ثم علت ضحكته وقال :
« حسنا .. حسنا .. أن مسيو بومارشيه رجل ثوري ،
انه مشهور عندنا وفي أوروبا كلها ، بأنه كاتب كثير من الرسائل
.. الرسائل .. »

وارتبك برناف ، فتطوعت ماري انطوانيت بمساعدته قائلة :
« لا ترتبك .. قل الرسائل المتوبلة .. أؤكد أنني أصبحت
مع الزمن من قرائها المعجبين ! كانت كلها أكاذيب .. وكانت
مسمومة وقارصة ، وأحيانا مميتة ، يستحق كاتبها من أجلها
أن يشنق ، ولكنها كانت مكتوبة ببراعة مذهلة »

قال برناف : « انه فنان »

قالت الملكة وقد انفعلت على الرغم منها : « كيف يكون
فنانا .. اتصور أن يكون الفنان مجرما ؟

فعاد برناف يضحك قائلا : « مجرما .. ! انه كان مستعدا

- ١٤٧ - ١ - الملك والتوار في عربية

ان يهجو نفسه .. انه يجد في التمثيل بالناس ، وبلا افكار
والاشياء لذة لا تعدلها لذة «
قالت الملكة :

« لذة !! وتقول عنه انه فنان .. انه مجرم بالطبيعة
فلا يجد لذة في ايلام الناس ، بالتقول عليهم والافتراء على
حياتهم الا مجرم .. لا .. لا .. انه مجرم »
فقال بشيون في جد وصرامة :

« ومع ذلك كنت تمثلين رواياته .. رواية زواج فيجارو
بالذات .! »

فاحمر وجهها من هذا التأييب ، وودت لو استطاعت ان
ترد عليه ، ولكنها كانت قد قررت ان تلعب دور المتوددة
المتفاهمة ، الراغبة في الصلح والتعاون . وقالت :

« زواج فيجارو عمل فنى .. رواية »

فقال الملك مستاء ، ولكن استيائه لم يبلغ درجة الغضب
كهادته :

« كانت الرواية سخرية بكل مقدسات المجتمع الذى انا
ممثله وراعيه »

فقالت الملكة : « لقد طهرناها من رجس الفاظه وافكاره
المدمرة ، فبقى العمل سليما من الناحية الفنية »

فقال الملك : « شئ قبيح .. شئ فظيع .. »

فقالت مدام اليزابث : « انه شئ قبيح أن تقطع رؤوس
الناس وتعلق على الرماح ، ثم تضاء المشاعل ، ويرقص

الناس حولها ، وينشدون الاناشيد حتى الصباح «
فتدخلت الملكة قائلة : « كانوا غوغاء .. من الرعاع .. »
فقلت مدام اليزابث : « لقد كانوا يهتفون للحرية .. هذه
هى الحرية كما فهموها .. كما تعلموها من مارا وامثاله ..
الحرية .. ! »

فقاطعتها الملكة قائلة : « شىء فظيع حقا .. ولكن .. »
فأصرت مدام اليزابث على أن تستأنف الحديث بسداجة
مربكة ، وقالت : « ما معنى غوغاء ورعاع ؟ .. انهم مواطنون
مثل السידين تماما ، لهم نفس الحقوق . ألم يعلن لهم شعار
الثورة انهم أحرار ومتساوون مع غيرهم ؟ »
فقلت الملكة : « لكن الاخاء .. »

فقلت مدام اليزابث مندفة ومحتدة : « هذا هو الاخاء
يا اختى .. الاخاء أن نذبح بعضنا بعضا ، وأن نرقص على
ضوء المشاعل فرحا بالرءوس المقطوعة المعلقة فوق الرماح ..
هل قامت الثورة لتنزع من الملك والامراء السلطات ، لتجعل
مثل هذه المناظر متعة من متع الشعب ؟ »

ولم يطق بشيون أن يسكت على هذا الكلام الذى اعتبره
محض تخريف ، ونسى أن مدام اليزابث كانت منه طول
اليومين السابقين صديقة متوددة ، فقاطعتها بجفاء ، وقال :
« مهلا .. مهلا .. ما هذا الانزعاج الانسانى الذى يفيض
رحمة ، وكراهية للعنف والدماء ؟ من المسئول عن هذا ؟
الثورة والحرية والاخاء ، أم النظام الذى جعل من هؤلاء

مخلوقات أقرب الى الحيوانات ، بل أدنى منها درجة ،
فالحيوان من حقه أن ينتزع اللقمة أو العظمة حين يجوع ،
لا يصده عن ذلك الا الخوف ممن هو أقوى .. أما هؤلاء ،
فهناك مجتمع قد أفهمهم بنفساقه ان طلب اللقمة جرح
للكرامة ، ثم هناك القانون ببوليسه وجيشه .. فماذا
تطلبين من جياع طال جوعهم ، لا تعطيهن الجماعة التي تقبلهن
أعضاء فيها على مضض لتعذبهم ، سوى وعود من الآباء
والقسوس بأن لهم ملكوت السماء ! ماذا تريدن من جهال
لم يدخلوا مدرسة ، ولم تضىء حتى ولا ذبالة واهنة من العلم
أو كارههم بل جحورهم وأوجارهم ، التي تفضلها مساكن
الكلاب ؟ .. هل كنت ياسيدتى تريدن أن يروا مدافع
الباستيل مسلطة عليهم ، فاذا ما انتصروا على حامية السجن
واقترحموه ، وقفوا أمام مدير السجن وقد شبكوا أيديهم فوق
صدورهم من فرط الادب ، فاذا سقط من حراس السجن
قتيل ، رفعوا جثمانه الطاهر فوق أكتافهم ، وهم ينشدون
الالحان الجنائزية يستمطرون بها عليه شآبيب الرحمة ؟ ! «
كان كلام بشيون مليئاً بالمرارة ، فعلا وجهه تجهم شديد ،
وزالت امارات البشر والتودد التي كانت تملأ صفحة وجهه .
فانكمشت مدام اليزابث ، وتداخلت فى نفسها كهرة احست
بخطر مفاجيء ، وقررت فيما بينها وبين نفسها الا تعود الى
الحديث مرة اخرى

وكان العجيب فى الامر ان الملك وهو آخر ما كان ينتظر ان

يسمع منه صوت بعد هذه الحملة المجلجلة ، هو الذى قطع
جبل الصمت الذى تلاها فى هدوئه الخليق دائما بان يسمى
برودا ، فقال :

« لاجدال فى أن مؤاخذه هؤلاء على ما بدر منهم فى يوم
كيوم ١٤ يولية ، فيه مبالغة ، فذلك اليوم بكل ظروفه ، كان
شاذا .. كانت الاشاعات والاراجيف وسوء الظن ، تملأ جو
باريس ، كما يحدث دائما فى أعقاب الاضطرابات والقلاقل
والمعارك .. ولكن الذى يقلق أن يكون هؤلاء صوت مسموع
فى مناقشات الدستور »

فاحتد بشيون قائلا : « لا .. لا .. لا .. هذا كلام غير
مقبول .. ان الجمعية الوطنية هى التى تضع الدستور ،
لا رعاى باريس »

فقال الملك ببروده المعهود : « أنا أعلم ان الجمعية الوطنية
هى التى تضع الدستور ، ولكن صرخات هؤلاء تصل الى
الجمعية الوطنية وتفعّل فعلها . لكم وددت أن تضع دستور
بلادنا لجنة من رجال القانون والعلماء ، كما فعلت أمريكا .
فالثورة فى الجانب الآخر من الاطلس ، الثورة التى وقفت الى
جوارها جيوش فرنسا ، والتى كانت الحرية هدفا لها ، تماما
كثورة بلادنا ، لم تترك الدستور فرصة للمزايدات ، وانفعالات
الشوارع »

فقال برناف فى ضيق ، وان كان قد بذل جهدا كبيرا فى
اخفاء ضيقه :

« ان الجمعية الوطنية قد وكلت وضع الدستور الى لجنة منها . ولكن كان لابد ان يناقش عمل هذه اللجنة في الجمعية الوطنية ، والا كانت اللجنة هي صاحبة الكلمة الاولى والاخيرة في دستور سيحكم خمسة وعشرين مليوناً من الفرنسيين . ثم ما هو العيب فيما انتهت اليه الجمعية الوطنية . لقد جعلت للملك حق « الفيتو » ، حق الاعتراض على القوانين ، واصبح لها حق اعلان الحرب وابرار الصلح بناء على طلب الملك ، فليس هناك غلو ولا مبالغة »

فقالت الملكة : « ألم ينظم دوق دورليان مظاهرات تهتف في الشوارع بسقوط « الفيتو » ، ولم يكن من بين المتظاهرين من يعرف ما هو « الفيتو » .. لقد كانوا يحسبونه رجلاً ! » فقال برناف : « لست ارى في هذا ما يدعو الى التشاؤم .. ان الحياة بطبيعتها وعاء كبير للجيد والسيئ من النزعات ، وقد يطفو على وجه الاناء أحياناً السيئ من النزعات ، ولكنه لا يلبث حتى يرسب .. ان الشر في الناس كالمرض .. فالتاس تمرض أحياناً ، ولكنها لا تلبث حتى تعود اليها الصحة » فقالت الملكة مبتسمة : « حبذا هذا التفاؤل »

❧

المصل العاشر

كان اليوم الثالث من أيام رحلة العودة الى باريس ، أشد أيام الرحلة قيظا ، وكانت الساعات الاخيرة في تلك الايام ، أشدها هولا

لم يكن يفصل بين « مو » وباريس من الوقت سوى ساعة ونصف ساعة كما قلنا ، فلما لاحت أبواب باريس في الدقائق الاخيرة من هذه الفترة من الزمن ، لزم الجميع الصمت ، ولم يعد في وسع الرءوس أن تفكر . كان ترقب المجهول ، وانتظار المصير ، هما وحدهما الشعور الغالب ، وهو شعور يقيد اللسان ، ويعقل القلوب . وكان الطفلان كالعادة دائما ، أكثر ركاب العربة شعورا بقبح الموقف ، وشدة الساعة

ودلفت العربتان الى باب باريس المعروف « بورت سان دنيس » ، ولكن لو اتجهتا اليه فورا لكانت الرحلة الى قصر التويلري قصيرة غاية القصر ، ولما تمتع جمهور باريس برؤية هذا الصيد الثمين .. الملك ، والملكة ، واولادهما ، وشقيقة الملك ، وبقية الحاشية في عربتين فاخرتين .. فكان لابد ان يحدد لهذا الموكب الملكي خط سير آخر ، يتيح لأكبر

عدد من سكان باريس ، رؤيته

والحق انه كان موكبا ملكيا تماما ، ولو ان الملكة كانت في ثياب وصيفة ، والملك في ثياب خادم .. ولكن فيما عدا هذا المظهر الخارجى ، وفيما عدا قذارة ملابس الاسرة المالكة الداخلية ، وما علق بها من تراب ، وما كان يفوح منها من مرق .. كان كل شىء ملكيا

لقد اصطفت الجماهير على الجانبين ، كما كانت تفعل ابان مجد الملكية ، وحينما كانت الملكة قريبة الى قلوب الشعب ، وكان الملك فى عنفوان مجده

وقد وطنت الملكة نفسها على أن تواجهه فى صبر وثبات ، ما سترجم به من الشتائم ، وما سيستنزل على رأسها من لعنات ، بل لعلها وطنت نفسها على أن تمتد اليها الايدي بالاذى ، فقد كانت باريس فى رأيها ورأى زوجها ثورة الجرائيم ومصدر الوباء ... ولكن الثورة لم تأذن لجماهير باريس أن يعبروا عن شمائمهم فى الاسرة المالكة على صورة غير انسانية ، فعلمت اعلانات فى كثير من الاماكن متضمنة اندارا بالجلد لكل من يهتف ضد الملك والملكة أو يمسو اليهما أو الى من معهما .. أما الهتاف بحياتهما ، فقد كان جرائه الازدراء العام

لذلك مرت العربة الملكية بين جموع الشعب فى صمت ، ولكنه كان صمتا مثقلا بالمشاعر المكبوتة ، التى تكاد تقفز من وجوه الناس وعيونهم . الا ان ضبط النفس فى مثل هذه

المواقف ، أمر يشق على الشعب كثيرا ، لذلك بحثت الجماهير
من متنفس لمشاعرهما ، فوجدته في السيد « درويه » ناظر
محطة « سان مينو » الذي غير تاريخها وتاريخ فرنسا كله ،
والذي على يديه تم فشل هذه الرحلة ، اذ ما كاد نظر الشعب
يقع على العربة الثانية ، ويرى داخلها السيد درويه ، حتى
نفجرت من قلبه هتافات مدوية ، وتصفيق كالرعد ، وقد
وجد الشعب في شخص درويه هذا بطلا يحوطه بالحب
والاعجاب ، ويسبغ عليه ما امتلأ قلبه به من حماسة العاطفة
ولم يكن ثمة شيء أكثر ايلاما لما يرى انطوانيت في هذا الموكب
المشحون بعواطف الكراهية والشماتة المغلفتين بالصمت ،
اكثر من الهتاف لدرويه ، لا لانها كانت تنفس عليه استنثاره
بهتاف الشعب الذي كان من حقها الذي لا نزاع عليه في
الماضي ، بل لانه كان يذكرها بالرجل الذي قلب كل خططها ،
وافسد عليها عملا درس واستنفد من الجهد والمال والسر
الشيء الكثير .. وعجبت كيف يستطيع فرد واحد أن يغير
انجاء الاحداث على هذه الصورة ، واى فرد ؟ فرد مجهول
لم يكن في حساب أى ممن اشتركوا في مؤامرة فرارها ، فقد
كانت هي ، وكان شركاؤها في تدبير رحلة الفرار ، يحسبون
حساب لافييت ، ومارا ، والجمعية الوطنية ، ومجلس بلدى
باريس وعشرات الرجال والهيئات ذات النفوذ ، ولكن لم
يفكر أحد في ناظر محطة سان مينو .. المسيو درويه الشاب !
ولم تكن ماري انطوانيت تفكر في شيء اسمه التاريخ ، ولم

تحاول ان تفهم كيف يصنع ، ولا كيف يكتب ، ولا تلقى اليه
بالها في قليل او كثير .. اما الآن ، فالتاريخ عندها شيء
عجيب ، فليس هو بالمكان الارستقراطي الذي يحتله
السادة فقط ، ولا اصحاب الالقاب ، ولا ذوو الثياب الزاهية
المطرزة بالذهب والفضة .. انه مكان مفتوح لكل فرد مهما
صغر ، حسبته انه يريد ويصمم على ما يريد ، ويمضي الى
غاياته لا يلوى على شيء

ويعود الهتاف لدرويه ، فتذكر وجوانبها تكاد تنفجر غيظا ،
كيف انها في صدر نهار رحلة الفرار ، كانت قد اطمأنت الى
المستقبل ، وادركت انها نجت من الخطر ، وكيف ان زوجها
أخرج من الصناديق التي شحنت طعاما فاخرا ، فأكل واكل
معه أعضاء الرحلة ، فطورا شهيا .. وكيف انه بعد ان اكل
وشبع اخرج خريطة فرنسا وبسطها فوق ساقيه ، واخذ
يتأمل عليها خط سير العربة ، فعرف لأول مرة ، مدنا وقرى
وكفورا في مملكته الواسعة ، لم يقع نظره عليها من قبل ،
بل لم يسمع باسمها أبدا . وكيف ان روح المرح والسعادة
سادت الجميع ، فأخذوا يتندرون على الاسماء المستعارة لكل
منهم ، فهي « مدام روشيه » الوصيفة ، وزوجها الخادم
« دوران » ، وكالعادة كان الصغيران أكثر استجابة للروح
السائدة ، فهما ككل الاطفال ، « ترمومتر » المشاعر في الجماعة
التي يعيشون فيها

وقد كانت طبائع الامور تبشر بانها ستسير رخاء ، لان

احدا لم يكن يحسب حسابا للمسيو درويه .. ولكنهم هم
المخطئون ، فعند « شالون سيرمارن » وصلت عربتهم الفاخرة
في الساعة الرابعة بعد الظهر ، وكان أهل المدينة قد فرغوا من
اعمالهم ، وذهبوا الى محطة العربات ، كعادة أهل الريف ،
ليقضوا وقت الفراغ في أحاديث الترويح عن النفس ،
وليسمعوا الاشاعات ، وليسألوا عن أخبار باريس من القادمين
منها . وجاءت عربة الملك والملكة ، ووقفت ، فأثار منظرها
الفاخر وضخامتها غير المألوفة اهتمام أهل القرية وفضولهم
معا ، فتأملوا ركابها ، فدهشهم أن الركاب الستة بقوا بها ،
دون أن يفكر أحدهم حتى الطفلين في أن يخرجوا منها
على عادة المسافرين ، ليريحوا سيقانهم من طول المكث في
العربة . وبدا أن هؤلاء الركاب لا يريدون أن يتبادلوا كلمة
واحدة مع موظفي المحطة ، ولا مع أهل المدينة ، بل أن سائق
العربة ، وسواسها فعلوا نفس الشيء .. وكل ذلك غير
مألوف ، بل غير طبيعي .. فبدأ التهامس بأن هؤلاء لابد أن
يكونوا من المهاجرين ، وأنهم يودون أن يتركوا فرنسا ويصلوا
الى حدودها بلا تمهل

ولم تكذ العربة تفارق « شالون » حتى ذاعت في الحال
اشاعة لا يدري أحد مصدرها بأن الملك والملكة كانا في تلك
العربة الفاخرة ، وسمع درويه هذا كله . فنشطت كل
حواسه . ولم يكن درويه مجرد ناظر محطة ، فقد كان ثوريا
منحيا الى اليقظة زعماء الثورة المتطرفين ، وكان بطبيعة

انتمائه الى هذه الجماعة من الثورة ، متابعاً لما تنشره الصحف
في باريس من ان الاسرة المالكة قد تفر ، وان فرارها سيكون
نكبة على الثورة و كارثة للبلاد . وكان فوق هذا جندياً اتم
الخدمة العسكرية في سلاح الفرسان ، فكان امتطاؤه صهوة
جواد والعدو به ، من أيسر الامور لديه ، وأحبها الى نفسه
وفعلاً قفز على ظهر حصان سريع ، وطلب الى مساعده ،
ان يفعل كل ما في وسعه ، ليحد من سرعة العربة المشبوهة .
وفعلاً حدث هذا ، فالعربة سارت خلف جواد مساعد درويه
بطيئة ، بينما كان درويه نفسه ، قد شق لنفسه طريقاً
قصيراً الى « فارن » ، وهناك أيقظ الشبان الذين يعرف عنهم
ميولهم الثورية ، وولاءهم لمبادئهم ، وألقى اليهم بالخبر الذي
وصل الى علمه ، ودعاهم الى أن يكونوا على أهبة الاستعداد
لمواجهة كل ما تأتي به الظروف من احتمالات . وفرح الشبان
في تلك المدينة الصغيرة ، ان تتيح لهم الظروف القيام بواجب
ثوري على هذا القدر من الاهمية ، وصور كل منهم لنفسه
المخاطر المحدقة ببلاده ، وبالثورة ، ان نجح الملك والملكة في
الفرار ، وشعروا جميعاً بأنهم قد أصبحوا ذوى أهمية وخطر
وما أسرع ما تنتشر الاشاعة ، وما أسرع ما يتحرك الفضول
في صدر كل انسان ، فلما وصلت العربة الملكية الى « فارن » ،
كانت المدينة قد استعدت لاستقبالها لا مرحبة ولا متساهلة .
بل كان الشك يملأ فيها النفوس ، وكان التجهم هو المظهر
السائد لشبانها

ولكن عمدة البلدة ، وكان في الاصل بقالا ، وله من اسمه نصيب ، فقد كان اسمه « صوص » أى « صلصة » .. كان هذا العمدة في اعماق قلبه ملكيا ، ولكنه كان يخفى عقيدته انقاء للمخاطر . وذهب العمدة الى العربية وطلب من ركبها ان يبرزوا اوراقهم ، فأبرزوها ، وتناولها العمدة ، ومن حوله درويه ، وشبان البلدة الثائرون

كانت لحظات رهيبة هذه اللحظات التى مرت منذ مد السيد « صوص » يده الى الاوراق . حبس الشـشـبان انفسهم ، فانهم لم يروا الملك والملكة من قبل . ولم يروا صورة الملك بالذات الا مطبوعة على اوراق النقد وقطعه المعدنية اما ان يأتى الملك والملكة الى مدينتهم . وألا يكون بينهم وبين العاهل وزوجته حاجز ، فذلك شئ مذهل . وأن يكون لهم حظ القبض عليهما ، واصدار الاوامر لهما ، فهو أمر لا يكاد يتصوره عقل

واطال السيد « صوص » النظر فى الاوراق والشـشـبان الفلاحون يكادون يلتهمونها بعيونهم التى يلمع فيها بريق عجب ، مع آيات من السداجة والطيبة لا يخفيها غضب ولا قلق

واخيرا رفع السيد « صوص » رأسه وقال : « ان الاوراق سليمة ، ولا يمكن حجز ركاب العربية ! »

وصمت الشبان لحظة ، صمتا فيه من خيبة الامل ما لا سبيل الى وصفه ، ولكنهم لم يدروا ماذا يقولون ، وماذا يفعلون ، وكيف يحتفظون بهذه الفرصة الذهبية التى اتبعت

لهم وتريد أن تفلت من أيديهم .. ان الخبرة التي يقتضيها
هذا الموقف الغريب ، تعوزهم ، ولا نعدو الحق اذا قلنا انها
تعوز اهل المدينة بل اهل الناحية ، بل انها تعوز الجميع .
فمن منهم لقي من قبل ملكا يفر في عربة مع زوجته الجميلة ؟
ومن منهم تصدى لعربة ملكية ليوقفها ، ويحقق اوراق
ركابها ويصدر لهم الاوامر ؟

الا ان الموقف قد حل ، فان درويه كان ثوريا بحق ، وكان
كفئا للموقف ، يستطيع أن يتصرف في ثقة ، وفي حضور
ذهن ، وبحسم . فقد قال على الفور :

« ان ركاب العربة هم الملك والملكة ، فان سمحت لهم
بالسفر فانك بهذا ترتكب الخيانة العظمى »

الخيانة العظمى ! رنت الكلمة في جو المكان ، ووقعت من
نفوس الريفين جميعا موقعا جميلا ، فان هذه الكلمة
يسمعونها كثيرا ، ولكنهم حينما كانوا يسمعونها كانوا
يعرفون انها من كلمات العاصمة والفاظها . انها جزء من
السياسة الكبيرة التي لا يحق لهم أن يشاركوا فيها . اما ان
يصل الامر الى أن تقال في بلدتهم ، فهذا هو الحظ العظيم .
ونظروا الى « درويه » فوجدوه غاضبا أشد الغضب ، واثقا
من نفسه كل الثقة ، فبدا لهم عظيما ، جديرا بالحب والاحترام ،
لا لانه قال الكلام الذي كانوا يودون أن يقولوه فقط ، ولا
لانه قاله في عبارة جلية وأمرة فحسب ، بل لانه منهم لا يختلف
عنهم ، ومع ذلك فقد خاض في أمر هام ، يتعلق بالثورة
وبالوطن ، وبالمك والمملكة . وهذه كلها أمور ما كانوا

يتصورون ان تتاح لهم هكذا دفعة واحدة ، وبلا تحضير او سابق تنبه

اذن فقد وضع الموقف ، فهذه العربية لن تتحرك ، وركابها لن يستأنفوا رحلتهم . وفي الحال تقدم منهم من قال : « نعم ! انها ستكون خيانة عظمى »

وردد الجميع الكلمة وهم يتلمظون بها . وتردد السيد العمدة ، فاتاح ترده للشبان أن يستمتعوا بالموقف أكثر مما كان مقدرا ، فقد هموا برفع أيديهم في الهواء ليستعملوها . فهم اذن سلطة أكبر من العمدة . . وهذه متعة أخرى ليست بالقليلة

ولم تكن شجاعة السيد « صوص » لتسمح له بأكثر من التردد الذي ساوره ، فرأى في الحال أن يقول مكرها لركاب العربية : « لا مفر من أن تقضوا الليلة في فارن »

فانبعث من العربية صوت الملكة ، لا يدل على اضطراب ولا جزع ، بل يدل على العكس من ذلك ، على رباطة جأش ، وحضور ذهن ، وبراعة مظهر ، حتى شك درويه نفسه في انها الملكة ، فقد قالت : « أرجوكم ألا تؤخرونا فاننا في حاجة ملحة الى الاسراع »

ولكن لم يكن في وسع العمدة أن يتحمل هذه المسؤولية الكبرى فقال في حزم استمده من حزم درويه : « للأسف . . لا مفر من البيت هنا الليلة ، وفي الصباح يمكنكم ان تستأنفوا المسير » وذكرت ماري انطوانيت هذا كله ، ولما وصلت في ذكرياتها

الى هذه العبارة ، ابتسمت ابتسامة ساخرة ، وقالت تحدث
نفسها : « نستأنف المسير .. ولكن الى اين ؟ الى باريس
مرة اخرى .. الى سجن جديد »

وتمنت لو كانت لها أعصاب زوجها ، فانه حين علم انه
لا مندوحة عن قضاء ليلة في بيت البقال العمدة ، صعد بخطاه
الثقيلة الى الدور العلوى ، ولم يكد يحط بجسمه على اول
مقعد رآه ، حتى طلب شيئا من النبيذ وقطعة من الجبن

ولم تستطع أن تسترسل في ذكرياتها أكثر من ذلك ، فقد
أصبحت قاب قوسين أو أدنى من قصر التويلرى .. عادت
الى المكان الذى أرادت أن تفر منه ، فلما رأت الباب الذى
كانت تمنى نفسها ألا تخطأ عتبته بقدمها الا بعد أن يقضى على
الثورة ، وتعود اليها هالة المجد القديم ، اهتز كل جسمها
برعدة قاسية ، وكادت هذه الرعدة أن تستحيل الى صرخة
عالية ، حينما رأت جموعا من الشعب يهجمون على السواس
الذين كانوا يركبون خارج العربة ، فوق مقعدها العالى الى
جانب السائق ، ثم ينتزعونهم من مكانهم ، ويطرحونهم أرضا ،
ويهمون بذبحهم

تصورت الملكة أنها سترى فى الحال رعوسا يسيل منها
الدم ، مرفوعة فوق رماح .. ان الشعب الذى اراد ان
يحترم ارادة قادته وأوامرهم بالألا يمدوا ايديهم الى الاسرة
المالكة بأذى ، لم يروا سبيلا لشفاء حقدهم على أعدائهم ،
سوى ان يسلطوا سخطهم وغضبهم على هؤلاء الذين صحبوا

الملك والمملكة في فرارهما خارج البلاد ، الا ان الحرس الوطنى
اسرع بانقاذ هؤلاء من ايدى الشعب ، ووفروا على المملكة ان
ترى منظرا لا يرونها



عادت مارى انطوانيت الى قصرها ، وفيما هى تهم
بالدخول من الباب ، صك أذنها صياح بعض النسوة يقلن :
« لقد احضر نساء باريس الملك اليها ، فأضاعه رجالها » .
فأجابهن الرجال : « لم تكن هديتك لباريس مما يفخر بها
أحد »

وكان القصد من هذه العبارة ، ان نساء باريس هن اللائى
اجبرن الملك على ترك قصر فرساي في ٥ اكتوبر من العام
السابق على الفرار ، فوضع تحت حراسة لافاييت وجنوده ،
ولكنه استطاع ان يغافل هذه الحراسة ، وان يفر

ولما دخلت الاسرة المالكة الى القصر ، احست بأن القصر
استقبل اثناء غيابهم ضيوفا غيرهم . . ولم يكن هؤلاء
الضيوف سوى الشعب نفسه ، فان نبأ فرار الملك من القصر
ما كاد يذاع ، حتى تدفقت جموع الباريسيين الى قصر
التويلرى لتتأكد من صحة الخبر ، فلما ثبتت صحته ، طاف
ابناء الشوارع على حجلات الملك والمملكة ، وهم يهزءون
بالحراس ، ويوزعون الفكاهات هنا وهناك ، فمن قائل :
« كيف يمكن ان تغفل هذه الجثة الضخمة منكم ولا ترونها ؟ »
الى قائل : « لا يعقل ان يفر الملك منكم ، فلا بد انكم تواطئتم

- ١٦٣ - ١١ - الملك والتوار فى عربة

معه « . ودخلت إحدى بائعات الفاكهة الى فراش الملكة ،
ووضعت فوقه ما معها من الكريز وهي تقول : « لقد جاء
الآن دور الامة في النعيم » ووضعت قبعة الملكة على رأس
فتاة صغيرة ، فخلعتها هذه باباء وألقته على الأرض ، وداسها
بقدمها بكل ازدراء واحتقار

ولما أوى الملكان الى مخدعهما ، كتب الملك بخطه الواضح
الثابت : « لم تستغرق الرحلة من مو الى باريس سوى ساعة
ونصف ساعة دون توقف »

وكان هذا كل ما رأى التعليق به على هذه العودة الشائنة
والحاسمة معا .. وكأنه كان عائدا من رحلة صيد . وهذا
ما لاحظته بشيون بالضبط ، فانه لم ير على وجه الملك عند
عودته ما يدل على انه عائدا من رحلة قهر وذل .. بل من
رحلة صيد وقنص .. ! والله في خلقه شئون

أما الملكة فقد أحست بحاجتها الشديدة الى أن تسكب
ما في قلبها الى حبيبها ، فكتبت الى فرسن خطابا تطمئنه فيه
على نفسها ، وترجو منه ألا يكتب لها بعد اليوم ، وتحذره
من محاولة العودة الى باريس لان الجميع يعلمون انه كان
منظم هذه الرحلة ومدبرها ، ثم تصور حنينها اليه ، وحبا
له ، في عبارات هي آية من آيات الرقة والعذوبة

الفصل الحادى عشر

شهدت أيام العودة الى باريس مفاوضات سياسية ، وابحاثا فلسفية . ولم تكن المفاوضات السياسية مجرد تسلية وازجاء فراغ ، ونسيانا لما يجرى خارج العربة . فان الملكة كانت تحس ان الخطر الذى يهددها اكبر من ان تواصل معه طيشها ونزقها ، فالامر عندها كان امر حياة او موت . . ولذلك فرحت اشد الفرح حينما قبل برناف ، ان يكون مستشارها ، ووعدته وعدا جادا ان تأخذ بمشورته ، وأن تعنى باستطلاع رايه ، وأن تعرض عليه ماتمر به من أزمات . . وكان برناف جادا كذلك ، حينما وعدها بأن يبذل لها الرأى ، وأن يجنبها المفترات ، وأن يحسن الشهادة عنها عند زعمائه وقادة الثورة وعادت الملكة الى القصر ، وبدا ان الجو سادته شىء من الصفاء . ولكنه كان صفاء مخوفا ، لانه كان يكشف عما وراءه من زوابع وأعاصير

فما كادت العائلة المالكة تستقر فى قصر التويلرى ، حتى أصبح الملك عنصرا نفيسا عند أعضاء الجمعية الوطنية ، التى كان مفروضا ان تلعب دور العدو ضد الملك . ولكن جميع الفروض فى الحياة السياسية قابلة للدوبان والاختفاء لتحل

محلها حقائق اخرى جديدة لم تكن في الحسبان . فالحياة السياسية في فترة الثورات ، أشبه شيء بالماء الذي يغلى فوق مرجل لا تفتقر ناره ، وذرات الماء لا تنى ترتفع وتنخفض في حركة دائبة مستمرة ، وهذه الحركة لا تكف بدورها عن ان تنتج فقائيع ، تتكون ثم تختفى وتختفى ليتكون سواها .. وهكذا

فالملك حينما أعيد الى القصر ، ووضع هو وزوجته تحت حراسة يقظة لا تفوتها حركة من حركاتهما ، بلغ من قسوتها أن فرضت على الملكة أن يبقى بابها مفتوحا دائما ولكن هذا كله شيء ، وما طرأ على المراكز السياسية للمعسكرات المختلفة شيء آخر .. فالجمعية الوطنية كانت قد أوشكت أن تفرغ من الدستور ، وكان للفراغ من الدستور معنى يفهمه الجميع ، هو ان انتخابات جديدة ستجرى .. وانتخابات جديدة معناها ان الطبقة الجديدة التي ولدت ستتاح لها فرصة رسمية لتثبت وجودها ، وتحصل نهائيا على حقوقها

فما هي هذه الطبقة الجديدة ؟ وما هي حقوقها ؟ قبيل الثورة ، كانت هناك ثلاث طبقات معترف بوجودها رسميا ، طبقتان ممتازتان ، هما طبقة الاشراف ، وطبقة امراء الكنيسة ، وطبقة مغلوقة على أمرها ، هي الطبقة الثالثة . ولكن هذه الاخيرة ما لبثت حتى أصبحت صاحبة الكفة الراجحة ، فجرت وراءها الطبقتان الاخريان .. فلما

اجريت الانتخابات ، ثم انعقدت الجمعية الوطنية في ٥ من مايو
عام ١٧٨٩ ظهر ان عددا ضخما من ابناء الطبقة المتوسطة
كالمحاميين والقضاة والتجار والصناع واصحاب المصانع ، قد
احتلوا مكانهم في برلمان الامة ، وان كلمتهم هي السائدة ، وان
حيويتهم مصدر الحركة في الجمعية .. وما لبث المعسكران
الاخران حتى وفقا الى ما يشبه الهدنة مع المعسكر الجديد
النشئ ، فقد احس الجميع ان خطرا جديدا يهددهم جميعا
ان لم يتضامنوا ويقللوا من اسباب الخلاف بينهم . ذلك ان
الطبقة الرابعة ، طبقة صغار الزراع ، اطلت براسها واعلنت
عن رأيها واتجاهها في شوارع باريس ، وفي مظاهراتها .
وهذه الطبقة البكر لم تعرف من قبل دهاليز السياسة
ومنحنياتهما ولا تحسن الا لغة واحدة هي الصراحة
الجافية ، واسلوبا واحدا للوصول الى اهدافها هو
اسلوب الصراع والقتال ، واقتحام الحواجز ، والفتك
بالخصوم ، والضيق من اللف والدوران

فمثلا كانت الجمعية الوطنية بأسرها ملكية . صحيح ان
من اعضائها من كان يتطرف لحساب الملك ، فريد له سلطة
تكد تكون مطلقة ، لا تنقص الا قليلا عن سلطته قبل الثورة ،
اكتفاء بوجود برلمان ، وبوجود حرية رأى ممثلة في الصحافة ،
وبتحسن الادارة الحكومية ، والارتفاع بكفايتها . وهناك من
كان يعتدل وياخذ من سلطة الملك بقدر ما يعطى للبرلمان .
وهناك من يتطرف لحساب الشعب فيجعل الملك مجرد رمز ،

وراسا شرفيا للدولة . ولكن المتطرفين الى اليمين ،
والمتطرفين الى اليسار ، والمعتدلين ، كانوا جميعا لا يفكرون
في الغاء الملكية ولا القضاء عليها . فلما عاد الملك ، وأحسوا
بميلاد مبدأ جديد هو الجمهورية ، زادوا تضامنا وازدادوا
حول الملك التفافا ، واشتدوا لمبدأ الملكية ولاء . ولذا روجت
اشاعة خارج فرنسا مؤداها ان الملك لم يحاول الفرار ، بل
خطف خطفا ، وذلك بقصد تطهير سمعة الملك في الخارج

ولكن التيار الجديد أخذ يشق طريقه ، فدعا اليعاقبة
وهم الجناح المتطرف في الثورة ، والذي اتخذ من أحد أديرة
اليعقوبيين دارا له ، الى اجتماع عام في ميدان « شان
دى مارس » وطالبوا فيه بوجوب نزول الملك عن عرشه ،
فأسرع لافاييت وهو زعيم من زعماء الطبقة المتوسطة ، الى
مكان الاجتماع بحرسه الوطنى ، ففرقه برصاص البنادق ،
فسقط جرحى وقتلى ، وسقطت معهم المكانة الشعبية
للجنرال لافاييت ، فلم تقم له قائمة ، حتى فر آخر الامر
الى الخارج

وكان يمكن ان يضعف هذا المعسكر الجديد ، لولا ان
القانون الابدى الذى يلخص فى ان المعسكر الذى انتهى دوره
وانقضت رسالته يزول عهده بأن يعمل ضد نفسه اكثر مما
يعمل ضده خصومه ، هذا المبدأ انطبق على العرش الفرنسى .
فان شقيق الملك الكونت بروفانس استطاع ان يفر خارج
فرنسا ، وهناك عمل ما فى وسعه ليقضى على حياة أخيه ،

وعلى كل امل للتاج الفرنسى فى النجاة . ذلك لانه كان يضمّر منذ اليوم الاول لارتقاء لويس السادس عشر العرش ، الامل فى ان يخلفه ، وقد مر بنا كيف كان يرى نفسه احق بهذا العرش من اخيه السمين ، البليد ، الفاتر الهمة . ولم تكن هناك حاجة الى كبير جهد لتحطيم لويس ، واسلام عنقه وعنق زوجه الى المقصلة . اذ كان حسب الكونت بروفانس ان يرغى ويزبد وهو آمن خارج حدود فرنسا ، وان يدعو الى مقاومة الثورة بالحديد والنار ، وان يؤلب ملوك اوروبا ضدها ، وان يعمل على جمع هؤلاء الملوك فى حلف مقدس ، ليقتضوا على الوباء الفرنسى ، وحصره حتى لا ينتشر طاعونه فى جميع دول اوروبا . حسبه ان يفعل ذلك وهو بعيد عن الخطر ، لترتفع كلمة اعداء العرش الفرنسى ، وان يزداد التيار الجمهورى قوة ، فيقضى على لويس وعلى مارى انطوانيت ، فيفتح بذلك لنفسه الطريق الى العرش ، بعد ان تفقد الثورة اسباب قوتها مع الزمن

فكان على مارى انطوانيت والحالة هذه ، ان تحارب فى الداخل وفى الخارج . كان عليها ان تواجه خطر التيار الجمهورى الوليد ، وخطر مؤامرات ودسائس شقيق زوجها الكونت بروفانس وزميله الشقيق الاصفر الكونت دارتوا ولو كان ميرابو حيا لاعانها ، ولكن ميرابو كان قد مات فى مارس عام ١٧٩١ قبل رحلة فرارها المخففة ، ولكنه عندما كان حيا لم تقدره حق قدره ، فقد كانت تراه رجلا ذا

وجهين ، ومهرجا لا مبدأ له ، وزير نساء لا يؤمن بالحب بقدر
ما يؤمن بلذة الجسد ، فلما قابلته بعد الحاح ، فى ركن من
قصر التريانو ، فى ليلة مظلمة ، كادت تصرخ من فرط دماسته
وقبح البثور التى تخلفت من الجدري فى وجهه ، ولكن الادب
والحياء منعاهما ، أما هو فقد خلبته الملكة بجمالها وعذوبة
صوتها ، وبريق ذكائها ، ولكنها لم تلتفت اليه حتى قضى ،
فخرجت باريس ممثلة فى ثلاثمائة ألف من أبنائها تشيع
جثمانه

كان ميرابو هو ابن الثورة ولسانها الذى يدير رءوس
الزعماء والشعب معا ، فأنى لها بعد وفاته صديق يساويه
قوة وقدرة وشجاعة !

لم يكن لديها سوى برناف الذى ساقته الظروف اليها فى
تلك العربة المشؤومة

ولم تتردد مارى انطوانيت فى أن تكتب اليه خطابا تقول فيه
انها لم تكف منذ عادت عن التفكير فى ذكائه الوقاد ، وانها
تبينت انها ستكسب كثيرا من تبادل الرسائل معه ، وان له
أن يثق بكتمانها للسر ، وبقدرتها على عدم البوح لاحد بما
سيدور بينهما ، فانها تولى قدر المصلحة العامة ، وتراها
جديرة بكل تضحية

وبعد هذه المقاومة البارة ، مضت مارى انطوانيت الى
الهدف بلا التواء فقالت : « الامور لا يمكن أن تترك هكذا حيث
هى ، فلا بد من شيء يعمل ، ولكن ما هو هذا الشيء ؟ انى

لا ادرى .. فاليك أتوجه بالخطاب رجاء ان اتبين هذا
الشيء .. وأحسب ان مناقشتنا قد كشفت لك عن اننى كنت
أعمل مدفوعة بإيمان سليم ، وأستمر أعمل مدفوعة بهذا
الإيمان ذاته .. وهذه هى المزية الوحيدة الباقية لى ، وهى
مزية ليس فى مقدور أحد أن يحرمنى منها ،

« وانى لا اعتقد ان الله وهبك نوايا طيبة ، وقد كانت نوايانا
نحن طيبة كذلك مهما تقول الناس علينا .. دعنى اذن أعمل
معك ويدي فى يدك .. واذا تبينت سبيلا الى تبادل الآراء
معا ، فانى سأجيب بصراحة الى أقصى ما تطيقه قدرتى ..
ولن أتردد فى بذل أية تضحية تقتضيها المصلحة العامة »

ولست أظن ان أحدا يجادل فى ان هذا الخطاب وثيقة
انسانية ذات قدر كبير ، وهى تفتح بابا لتساؤل كثير .. فهل
كانت مارى انطوانيت مخلصة فيما قالت ، أم كانت تلعب
دورا سياسيا ؟ ان الالتواء والمداورة لم تكن أبدا ضمن عيوبها
الكثيرة ، بل كانت على العكس نزقة ، طائشة ، سريعة
الغضب ، لا تخفى رغباتها ولا تكتمها ، ولم تكن تدارى
خصومها ، فهل علمها السلطان الزائل ، وعلمها الموت الذى
كان يدنو نحوها بخطى متصلة ، وعلمتها الاحداث المتلاحقة ،
والوحدة وانعدام الصديق ، فنا جديدا لم تتقنه من قبل ولم
تفكر فيه ، وهو فن السياسة وكسب الاصدقاء ، والعبث
بحسن نوايا الابرياء ؟

ان برناف على بساطته ، وعلى حداثة عهده بباريس لم تدر

رأسه في الحال ، عبارات الخطاب الساحرة ، بل انه خاف عواقبه ، ورأى ان التمهل والتدبر خليقان بهذا الموقف الجديد الشائك ، فعرض الخطاب على اصدقائه ، الذين ادهشهم الخطاب واعجبهم ، فقد تملق كبرياءهم الامل في كسب الملكة لفكرتهم الدستورية ، وفي ظل السرور بهذه النتيجة ، قرروا ان يجروا مع الملكة مفاوضات سرية ، ونفذوا قرارهم ، وفي المرحلة الاولى من مراحل هذه المفاوضات ، اقترحوا على الملكة امرين : ان تطلب الى شقيقى الملك ان يعودا الى فرنسا ، وان تطلب الى شقيقها ليوبولد امبراطور النمسا ان يعترف بالدستور الفرنسى ، اى دستور الثورة ، واعلنت الملكة انها ستنفذ ما طلبوه ، وكل ما سيطلب منها في المستقبل ، على شريطة الا يكون فيما تنصح به مساس بشرفها ، ولا بوفائها لمن اسدوا اليها يدا ، او وقفوا معها في محنتها

وتحقيقا لهذه المعاهدة غير المكتوبة ، طلبت الملكة الى برناف ان يكتب لها مسودة الخطاب المقترح ارساله الى اخيها الامبراطور ، ولما قدمت لها هذه المسودة ، كتبتها بخطها ووقعتها وارسلتها الى شقيقها عن طريق السيد « مرسى » سفير النمسا في باريس ، وفي اليوم التالى كتبت لمارى انطوانيت نفسها خطابا الى السفير ذاته قالت فيه :

« في يوم ٢٩ كتبت لك خطابا ، ولاشك عندى في انك تبيننت انه لم يكتب بأسلوبى المعتاد ، فلقد رايت ان من

الحكمة ان اسلم برغبات زعماء الحزب هنا ، الذين كتبوا مسودة الخطاب لى ، وبالامس ٣٠ كتبت بروح أخرى للامبراطور ، وان هذا الاحتيال لخليق بأن أعده مهانة لى ، لولا ان عندى من الاسباب ما يجعلنى أؤمل فى ان يتبين أخى اننى فى وضعى الحالى لا خيار لى فى تنفيذ ما يطلب الى ، وانه ليكونن من الظلم ان ننكر على زعماء الثورة ، وان كانوا شديدى الاستمسك بآرائهم ، انهم صريحون الى أقصى حد ، وانهم رجال ذوو ارادة ، وان لديهم رغبة صادقة فى اعادة النظام باعادة السلطة الملكية

ومع ذلك فان وجهات نظرهم - ايا كانت نواياهم - متطرفة الى الحد الذى يستحيل معه علينا قبولها «

وأضافت الملكة انه من الامور الحيوية أن يثق الامبراطور بأن خطاب ٢٩ من اغسطس ، لم تكن فيه كلمة واحدة تعبر عن حقيقة آرائها أو عن وجهات نظرها فى الامور

ولسنا نريد أن نتخذ هنا موقف الواعظ ، وان نشجب هذا الموقف ذا الوجهين الذى وقفته مارى انطوانيت من اشخاص اخلصوا لها واحسنوا الظن بها ، ووقفوا الى جانب الملكية وهى تلفظ انفاسها ، وتنكس اعلامها ، حتى دفعوا فيما بعد ثمن هذا الاخلاص ، رءوسهم على نطع الجلاد

ولكن الذى يستحق منا التفاتا وعناية اكبر هو التأمل فى اثر هذا اللقاء القصير الذى لم يدم بين ممثلى الثورة ، وممثلى الملكية ، اكثر من ثلاثة ايام فى تلك العربة

فان الملكة التي لم تكن تفكر ابدا في ان تسمع لواحد من هؤلاء الزعماء ، حتى ولا من وراء حجاب ، او عن طريق الواسطة ، لم تكد الظروف تفرض عليها ان يحشروا معها في مكان ضيق ، حتى تبينت فيهم ما كانت تنكره عليهم من صفات ، بل حتى قبلت ان تتخذ منهم مستشارين وأخذاء ، وان تفاوضهم ، وتعقد معهم المعاهدات وتنفذ برأيهم الخطط ولقد مر بنا انها رفضت ان تقابل ميرابو الا مرة واحدة ، وفي غفلة عن أعين الرقباء ، كما رفضت ان تصفى الى نصائحه ، رغم ان ميرابو كان من طائفة الاشراف ، فقد كان يحمل لقب « كونت » ، لا لشيء الا لانه انتسب الى الثورة ، وتزعمها ، وأتاحت له بلاغته النارية ، وشجاعته التي لم تكن تحفل بالقواعد ، ولا بما تعارف الناس عليه من مبادئ ، ان يكون لسان الثورة وخطيبها ، فخسرت ماري انطوانيت بذلك صديقا يظن كثير من المؤرخين انه كان قادرا على ان يجنب ملكية فرنسا ما تردت فيه آخر الامر

فلما فرض عليها ان ترى من زعماء الثورة من هم دون ميرابو بمراحل ، شجاعة وفصاحة ومرونة وأثرا في الناس ، قالت عنهم ما قالت في خطابها ، فأقرت بأنهم صرحاء للغاية ، وذوو ارادة ، ومؤمنون بعقائدهم ، ومخلصون في رغبتهم في اعادة النظام ، واعادة الملكية على أسس دستورية

فتباعد الناس بعضهم عن بعض ، هو الذي يبلر بدور الفرقة بينهم ، ويؤدي الى الكوارث ، والنظام الذي يقف

بعيدا عما حوله وعن حوله ، يرى نفسه ، حينما يبلغ آخر العمر
مطالباً بأن يقاتل يمينا ويسارا ، ثم يتألب الأعداء عليه من كل
جانب ، فلا يصيبه منهم جميعا سوى الركل والطعن والمهانة ،
فلكل نظام من الحكم ، حكمته ومبرراته ، وهو حينما
يستنفد مبررات وجوده ، لابد أن ينتهى ، فلا ينفع للبقاء
عليه صنوف العلاج ، ولكنه حينما يستبقى صلاته بالمجتمع
الذى ولد فيه ، وبالبيئة التى تحيط به وينفعل بها ، يتطور
تطورا مستمرا لا ينتهى ، فيقبل الجديد : يتمثله ، ويضيفه الى
نفسه ، فلا يبلى أبدا ، لانه يكون كالجديد تماما ، أو يكون هو
والجديد شيئا واحدا ، وقد لا يكون هذا ممكنا دائما بل انه
يكاد يكون مستحيلا فى أغلب الاحوال ، اذ لا تكاد توضع
فلسفة فى اناء كما توضع الافكار فى حكومة ما ، حتى تتجمد
فى ذلك الاناء وتأخذ شكله فلا تقوى على تجاوز نطاقه ، الا اذا
حطمت الوعاء الذى وضعت فيه ، أو تناثرت خارجة على غير
صورتها الاصلية ، أو تحطم كلاهما

فما رى انطوانيت حين رأت الثوار كانت مخلصه فى تأثرها
بهم ، ولكن لقاء ساعات لا يكفى لغير نظاما كاملا ، وما رى
انطوانيت لم تكن امرأة ، ولم تكن ملكة ، بل كانت نظاما ،
فقد عاشت هى وزوجها وأولادها ، وعاشت أمها وآباؤها ،
وأجيال من أسرتها ، تفكر بعقل خاص ، وتنظر الى الامور
نظرة خاصة ، وقد ارتسمت للأشياء وللأشخاص وللإمبادىء
صورة فى عقلها وقلبها ، كان مستحيلا عليها ان تستبدل بها

صورة أخرى مهما جاهدت

ويلد لبعض المؤرخين ان يتساءلوا ، هل كانت ماري انطوانيت فى مفاوضاتها مع برناف وزملائه من زعماء الثورة ، مناورة ، تداور لكى تبحث عن فترة زمن تتنفس خلالها ، فى انتظار ما يأتى به المستقبل من أسباب النجاة والتغلب على الاعداء ؟ أم كانت مخلصنة فى تعاونها معهم ، بينما لم تكن صادقة فيما كتبه الى ممثلى العهد القديم ، أو مع سفير أخيها للسيد « مرسى » ، أو حتى مع حبيبها « فرسن » ؟

والحق ان النظر فى موقف ماري انطوانيت على هذا الضوء خطأ صراح ، فهى لم تكن تملك نفسها . كانت الاحداث قد انتزعتها من جذورها ، ولكنها لم تكن قادرة على ان تجد تربة أخرى تستقر عليها ، وتستأنف فوق سطحها حياة جديدة ، ولذلك فقد كانت تتكلم بلغتين ، دون أن تعى ، وتتجه اتجاهين دون أن تدرى ، وتتأثر بفكرتين دون أن تقصد ، كانت كالريشة فى مهب الريح ، تعلو وتنخفض ، تروح وتجىء ، تؤمل وتيأس ، تقدم وتحجم ، ثم هى لا تملك من أمر نفسها شيئاً .. فالحياة من حولها تغيرت والمعايير التى الفتها وارتاحت لها سنين طويلة ، ومرنت على استعمالها والافادة منها ، قد زالت كلها فجأة ، دون ان تجد معايير أخرى تثق بها وتطمئن اليها

لقد عرفت الثورة فوجدتها شيئاً مخيفاً ، كقول هائل انطلق من عقاله فجأة واقتحم عليها خلوتها الجميلة ، فى

قصورها الانيقة ، وحطم هذه الاسوار المزخرفة الغالية التي كانت تحجبها عن الشعب وعن الناس ، بالامهم وفقرهم وأحزانهم ، وانتزعها من أحلامها الهادئة ، وسلبها رياشها وأثاثها وثيابها . . فلم تملك الا أن تخاف هذا الفول ، وكأشد وأعمق ما يكون الخوف ، ولم تملك الا أن تكرهه . . فلما اجتمعت بهؤلاء الثوار ، ودار بينها وبينهم الحديث الذي سمعنا طرفا أو شذرات منه ، بدأت تفكر ، ولعلها كانت المرة الاولى التي فكرت فيها ، لا لتقمع شر هذا الفول ، وتستعدى القوة عليه ، بل لتهادنه ولتكسب ثقته ، ولتعيش معه اذا امكن ، متمتعة بأكبر قسط من نفوذها وسلطتها وسعادتها القديمة

ومثل هذا التحول ، يحتاج الى فترة طويلة من الزمن ، والى شىء غير قليل من الهدوء والاستقرار ، لينضج ويؤتى أكله ، ولكن الاحداث كانت قد انطلقت من عقالها ، فاستحال عليها ان تمنح هذه الملكة الصغيرة فرصة لتراجع نفسها ، وتعيد النظر فى أحكامها ، وتفكر بعقل جديد

ولسنا نريد أن نزعج أن مارى انطوانيت - لو أن الامور سارت فى غير المتجه الذى سارت فيه - كانت تتحول الى مخلوقة جديدة ، ذات عقلية تؤمن بالشعب وبحقوقه ، ولكن الذى تؤكد ان تغيرا أصاب نفسها ، وان نزاعا داخليا شديدا نشب فى عقلها وقلبها . . فقد كانت حيويتها الدافقة مددا لها يعينها على البحث عن الجديد ، والتطلع اليه : والفرح به ،

بل ان سمات حياتها الاساسية ، هي السام ، وسرعة تفاد
الصبر ، والرغبة في الجديد كل يوم ، بل كل لحظة

ولتنظر مثلا الى خطاب لها الى حبيبها اليكس فرسن ،
لنطل من نافذته على نفس ماري انطوانيت ، ولنشهد لونا
من هذا الصراع .. قالت في هذا الخطاب :

« انك ستجد كل نفسى في هذا الخطاب ، وقد اكون
مخطئة ، ولكن هذا ما بدا لى انه السبيل الوحيد للبقاء
على سير الامور (دون حدوث مضاعفات جديدة) ولقد بذلت
اقصى ما وسعنى من جهد ، فى الاستماع الى ما يريد أن يقوله
اشخاص من الجانبين ، ولقد خلصت الى رأى بعد أن أنعمت
النظر فى آرائهم ، ولست واثقة من ان ما نصحت به سيستمع
اليه ، وأنت تعلم الشخص الذى على أن أعمل معه (اى
زوجى) ففى الوقت الذى يعتقد فيه الانسان انه قبل السير
فى اتجاه معين ، تكفى كلمة واحدة أو حجة تافهة ، لتغير رايه
وهدفه ، بلا انذار

« لهذا فان آلافا من الاشياء ، وددت لو أنها عملت ، استحال
تنفيذها »

« وآخر الامر وأيا كانت الامور ، استمر فى منحى صداقتك
وحبك ، فانى فى حاجة اليهما ، وأنى لارجو أن تؤمن بأنه بالغة
مابلغت الكوارث التى سألقاها .. وايا ما كان استسلامى
للظروف التى حولى ، فانى لن أوافق مهما كانت العاقبة على
اتيان عمل لا يليق بى ، ولا يوائمنى »

« ان الاضطراب هو أول ما يكشف للانسان عن حقيقته »
هذه نفس حائرة ، لا تدري ماذا تفعل ، انها تعتذر عن امور
ترتكبها ، وتخشى ان يحكم عليها بأنها تخطت عن وقارها ، او
ان شجاعتها خانتها ، او انها خانت مبادئها .. وهى فى هذا
الاضطراب تكشف عن هذه الحقيقة الانسانية العظيمة الخالدة :
« ان الاضطراب هو الذى يكشف للانسان عن نفسه » ،
فالانسان يبقى مخدوعا فى صفاته ، يحسب نفسه شجاعا ،
حتى اذا دهمه خطر بذاته ، عرف الى أى حد هو جبان ،
ويحسب الانسان نفسه جزوعا هلوعا ، لا يقوى على مواجهة
خطر ، فاذا نزلت بساحته المصائب رأى الناس حوله تفرق
وتذهب نفوسهم شعاعا ، وهو صامد ثابت لا يدري من أين
جاءه هذا الثبات ، وكيف اعتصم بالصبر والايمان ، ويحسب
الانسان انه قليل الصبر فاذا بالمحن والمصاعب تثبت له انه
اعظم صبورا ممن كانوا يباهون بصبرهم ، وهكذا .. وهكذا
فما رى انطوانيت عرفت نفسها على حقيقتها لأول مرة ،
عندما رأت المسئوليات تقع على عاتقها هى ، فرأت نفسها
اكثر ثباتا من زوجها ، وأشد تصميميا وأقوى عزيمة .. ورائه
هو لا يحفل بالمخاطر وكأنه يعيش فى كوكب آخر ، وكان أخلق
بأنسان فى مثل هذه الدرجة من عدم المبالاة وقلة الاكتراث ،
الا تزعزعه المخاطر ، فيتذبذب ويضرب ، ويبرم ما نقضه ،
وينقض ما أبرمه ، ولكنه على العكس كان متطيرا ، لا يثبت
على رأى ، وكانت وهى الملول ، الحساسة ، السريعة التغير فى

وقت الرخاء ، اقل تدبذبا ، واثبت رايا في وقت الشدة
فماذا هي ؟ وما هو كنهها وحقيقتها ؟ انها تود ان تعرف
لقد قالت في خطاب آخر لها الى فرسن :

« في بعض الاحيان اعجز عن فهم نفسي ، واسائلها المرة بعد
المرة ، هل انا حقا التي تتكلم ، وبعد ، ماذا على ان افعل ؟ ..
ان الامور التي اقدمنا عليها كان لامفر منها ، واؤكد لك ان
موقفنا كان يسوء عما هو الآن ، لو لم ابادر الى السير في
السبيل الذي سلكناه ، وعلى كل حال فاننا سنكسب وقتا ،
والوقت هو ما نحن في اشد الحاجة اليه . . . وانك لتستطيع
ان تتصور فرحتي حينما ياتي اليوم الذي استطيع ان اكون
فيه « نفسي » وان اكشف لهؤلاء الاوغاد انهم لم يستطيعوا
ان يستغلوني »

نعم ، ماذا تكون ؟ اهي المرأة التي بدأت تتأمل مبادئ
الثورة ، فتفهمها بعض الفهم ؟ ام هي المغلوبة على امرها ، التي
قبلت ان تتعامل مع ممثلي الثورة وهي تكرههم ؟ ام هي المرأة
التي رأت في انصار الملكية اوغادا يكرهونها ويكرهون زوجها ،
ويحفرون تحت اقدامها قبرا لها ، وتحت عرشها هوة واسعة
لا قرار لها . ان زعماء الثورة ، وان كانوا اجلافا متطرفين في
رايها ، الا أنهم صرحاء مؤمنون ، وذوو ارادة ، بينما ممثلو
الملكية مذبذبون ، ويلتمسون اسباب الكسب لانفسهم ، ولا
يحفلون بعرشها ولا بها

فالى ايهم تتجه ؟ وعلى ايهم تعتمد ؟ وفي ايهم تثق ؟ وايهم
تحب .. ؟

الفصل الثاني عشر

عادت العربة الى باريس ، فكانت عودتها نهاية مرحلة في حياة الملك والمملكة ، وفي حياة فرنسا والثورة ، وبداية مرحلة في حياة هؤلاء جميعا

فهذه العربة في الواقع لم تكن في الثورة الفرنسية مجرد أداة نقل استعملتها الاسرة المالكة ، وانما كانت عنصرا من عناصر تاريخ الثورة

كان التفكير في اعدادها ، صورة من صور التفكير القديم الذي يواجه حياة جديدة ونظاما جديدا ، واسلوبا في التفكير والتنفيذ غير مألوف

وكان خروج تلك العربة من باريس تحمل الملك والمملكة والاسرة المالكة ، هو آخر الانفاس التي ترددت في صدر نظام شاخ ، وأوشك أن يوسد رأسه تراب المقبرة

كان اختراق العربة الريف الفرنسي بمعاونة قواد النظام القديم حتى الوصول الى الحدود الفرنسية ، تصويرا صادقا لعقلية وسياسة وقدرة النظام القديم

وكان القبض على العربة وكشف شخصيات من فيها ، وتردد عمدة البلدة في تحميل مسؤولية اطلاق سراحهم ، وانساح السبل امامهم ، واصرار درويه على القبض عليهم ،

وابقائهم حتى الصباح . . وكان تخطى القائدين شواريل
وواييه عن الملك والملكة فى آخر دقيقة ، وعودة العربية الى
باريس ، اعلانا عن انحسار موجة الملكية فى فرنسا وانطواء
صفحتها ، وانتهاء عهدا ، وفى الوقت نفسه اعلانا عن ان
النظام الجديد سيشق طريقه ، وسيثبت قدمه ، ويبقى

ولما كنا قد صاحبنا ركاب العربية منذ خرجوا من باريس ،
حتى عادوا اليها ، ولم تكن مصاحبتنا لهم لمجرد تسجيل
خطاهم ، وانما لتعقب ما يدور فى نفوسهم ، وللتأمل فيما
يجرى على السنتهم ، فقد بات من الواجب علينا ان نعرف
مصيرهم ، وما انتهى اليه امرهم منذ عادت العربية الى
باريس . والحق انهم جديرون بهذا ، فهم حفنة من الناس
تفاوتت أقدارهم ، وتباينت فى الحياة أدوارهم ، وقد اجتمعوا
على غير موعد ، ثم تفرقوا ، ومع مضي الايام ، ومع سرعة
تلاحق الحوادث وضخامتها ، فقد بقى هذا الاجتماع ذا اثر
فى الايام التى بقيت لهم فى الدنيا ، حتى فرغوا منها ، وفرغت
منهم

وقد راينا كيف كان لاجتماع العربية اثر سياسى فى العلاقة
بين الملكة وبرناف ، وكيف أن هذا الاثر كان طابعا بارزا فى
سياسة الملكة ، وسياسة زعماء الثورة ، عقب عودة العربية
الى باريس

لقد صدر الدستور فى سبتمبر عام ١٧٩١ ، ووقف الملك
فى الجمعية الوطنية يقسم اليمين ولاء لهذا الدستور ، وقد

اقتنعت الملكة بفضل علاقتها ببرناف وزملائه ، بوجوب موافقة الملك على الدستور ، وأن يقسم يمين الولاء له ولكنها كانت مضطرة أن تدافع عن هذا التصرف ، فأرسلت الى السفير « مرسى » تقول :

« أما فيما يتعلق بالموافقة على الدستور ، فانه من المستحيل على أى انسان عاقل ، الا يتبين أننا مهما فعلنا ، فاننا لا نملك الحرية فيما نفعل وفيما ندع ، ولكن من الحيوى الا نعطي للزبانية الذين حولنا ، مبررا للشك فينا ، ومهما تطورت الامور فان القوى الاجنبية هى وحدها الكفيلة بانقاذنا ، لقد فقدنا الجيش ، ولم يعد معنا مال ، ولا توجد فى هذه المملكة قوة قادرة على كبح جماح الشعب المسلح ، حتى زعماء الثورة أنفسهم ، لم يعد يستمع اليهم حينما يتحدثون عن النظام ، هذا هو الوضع التعس الذى ألفينا أنفسنا فيه ، أضف الى ذلك انه ليس ثمة صديق واحد لنا ، فالدنيا كلها تخوننا ، البعض عن كراهية ، والبعض عن ضعف أو طمع »

وختمت خطابها بقولها :

« وازاء العجز الذى منينا به ، فليس هناك ما يبرر لومنا لانفسنا »

ولم يكن فى الامكان تلخيص حالة مارى انطوانيت وزوجها ، بعد عودة العربة الى باريس ، بأوجز ولا أصدق من هذه العبارة :

الجميع خانوها ، فخصوم الملكية لم يكن ينتظر منهم سوى

سرعة القضاء عليها ، ولكن اصدقاء العرش والتاج ، كانت
خيانتهم آخر ما ينتظر ، وان كانت اول ما وقع ، اما شقيقا
الملك فقد عرفنا امرهما ، اما شقيق الملكة الامبراطور
ليوبولد ، فقد عقد عزمه على الا يضحي بمليم واحد ، ولا
بجندى واحد ، في سبيل انقاذ اخته ، لانه كان مشغولا في
تقسيم جديد لبولندا مع بروسيا وروسيا

اما ملك بروسيا فريدريك وليام الثانى ، فبينما هو يتظاهر
بالاهتمام بعقد مؤتمر حربى لانقاذ الاسرة المالكة الفرنسية ،
اذا به يمول زعماء الثورة المتطرفين ، اليعاقبة ، وكان سفيره
يتناول الغداء والعشاء مع « بثيون » صديقنا الذى عرفناه
في العربة ، والذى ارتفع قدره بعد ذلك فانتخب رئيسا
للمؤتمر الوطنى الذى تكون بعد حل الجمعية التشريعية التى
انتخبت بعد الموافقة على دستور عام ١٧٩١

وكانت الدول قد اختارت « دوق برنزويك » ليقود
جيوشها التى عيئت فيما بعد للزحف على فرنسا ، وانقاذ
العرش والعائلة المالكة ، فلم يلبث الدوق ان دخل في
مفاوضات ومحادثات مع دانتون قطب الثورة ، وديموريه
قائد جيوشها ، على اساس اختيار الدوق ملكا لفرنسا ، بعد
القضاء على لويس السادس عشر وزوجته الشابة ماري
انطوانيت

عالم من الخيانات المتداخلة ، تغطيها جميعا مظاهر شفاقة
رقيقة من ادعاء المثالية ، والايمان بالمبادئ

ولكن الثورة ، التيار الدافق ، الناجم من تراكم اخطاء
السنين المتعاقبة ، ومن حبس قوى التقدم الطبيعية فى شعب
فرنسا ، ومن افكار المفكرين ، وفلسفة المتفلسفين ، وخيالات
الحالمين ، لاكثر من نصف قرن سابق على الثورة ...
هذه الثورة لم تحفل بانداءات نهـازى الفرص ، وتجار
المبادئ ، والباحثين عن سبيل للسلطان ، والخائفين على
ارواحهم ، فاستمرت تزحف .. تتخبط وتتلوى ، ترتفع
وتنخفض ، تعلو وتسف ، تتقدم وتنتكس ، ولكنها فى نهاية
الامر تسير ولا تقف

فماذا اصاب اصحاب اصحابنا فى هذا التيار الذى كانت امواجه
تطم وتعلو .. كان كل شىء يؤدى الى القضاء على الملكية
كانت الجمعية التشريعية التى انتخبت بعد التصديق على
الدستور ، قد احتوت على اغلبيه من الجيرونديين ، وهم حزب
عرف باسم اقليم الجيروندي فى جنوبى فرنسا ، حيث موطن
زعماء الحزب ، وكان الجيرونديون فى اعماق قلوبهم جمهوريين ،
وقد أدرك هؤلاء ان افضل وسيلة للتخلص من الملكية هو
اعلان الحرب على النمسا ، التى جاءت منها الملكة ، وفى فترة
الحرب ستقع من الملوك اخطاء فى حق فرنسا ، يمكن معها
اثارة الشعب ضد هذا الملك الذى اقسم يمين الولاء للثورة
منذ قليل

وكانت الثورة فى واقع الامر ، تعاني فى الداخل نكسة
كبـرى ، كانت الاحزاب قد فرقت وحدة البلاد ، وكانت

المجاعة تعصف بالشعب ، وكالعادة ، حينما تتأزم الامور في الداخل ، يكون خير متنفس لصرف غضب الشعب وسخطه ، فتح ميدان في الخارج ، تعباً له القوى وتتجه اليه الانظار وكأن الظروف خارج فرنسا قد اتفقت مع الظروف داخلها ، فقد مات ليوبولد ، امبراطور النمسا ، وشقيق ماري انطوانيت ، وكان زاهداً في اعلان الحرب ، وحل محله على العرش ابنه وكان شاباً في الرابعة والعشرين ، احس بأن اول واجباته هو انقاذ الملكية في فرنسا ، فلم يحفل بتوسلات عمته اليه ، واعتبر انها توسلات صادرة عن ضعف وخوف ، ولا صلة لها بمصلحة قضية الملكية .. وبعد اسبوعين من وفاة ليوبولد ، أطلقت بضع رصاصات على الملك جوستاف ملك السويد واكبر ملوك أوروبا سناً ، فخلفه على العرش صبي في الرابعة عشرة من عمره

لقد رتب القدر كل شيء ، واضطر لويس السادس عشر ان يمضى قرار اعلان الحرب ، والدموع في عينيه .. ولكن ماذا تجدى الدموع ازاء قوى التاريخ الغالبة ؟

قامت الحرب وفي أعقابها ولدت الاشاعات بأن الملكة تخون الامة والثورة ، وفي ٢٠ يونية عام ١٧٩٢ ، أراد اليعاقبة أن يعطوا للملكة درساً ، فانتهزوا فرصة ذكرى حلف اليمين الذي قطعه أعضاء الطبقة الثالثة منذ ثلاث سنوات ، الا ينفذ اجتماعهم حتى يضعوا دستوراً للبلاد ، وقرروا أن يقوموا بمظاهرة ، فاجتمع في ساحة الجمعية الوطنية خمسة آلاف من

جنود الحرس الوطنى ، حيث استعرضهم أعضاء مجلس بلدى
باريس ، وعلى رأسهم العمدة « بشيون » صديقنا الذى عرفناه
فى العربى

ولم يكذب هذا الاستعراض الى غايته ، حتى كانت
الجماهير قد احتشدت وتكاثر عددها ، لمشاهدته ، وبعد
انفضاضه ، ذهب جنود الحرس ، مع من تجمع معهم من
الجمهور وقصدوا الى قصر التويلرى فاقتحموه ودخلوا على
الملك ، الذى تقبل اهاناتهم بصدر رحب ، ولبس قبعة الثورة
على رأسه ، أما الملكة فقد كانت أقل صبرا ، واحمى غضبا ،
فان الجماهير التى اقتحمت عليها حجرتها لم تجد منها لقاء
طيبا كما لقيت من الملك ، فما كان منها عندما وضع احد
الافراد القبعة المثلثة الالوان على رأس ابنها ولى العهد ، الذى
التصق بها وهو يرتعد وجلا ، الا ان انتزعت القبعة من فوق
رأسه ورمتها على الارض ، وهى تقول : « ان هذا الامر جاوز
كل صبر واحتمال .. » ولم ينقذها من ايدى الشعب الا أن
« بشيون » قد خف الى القصر ، وصرف الجماهير ، وهو
يقول لها : « لا يجدر بنا أن نفعل ما يسىء الى حقيقة نوايانا »
ادركت مارى انطوانيت بعد تلك الحادثة ، انها سائرة فى
طريق النهاية ، وانها ليست سوى أيام ، حتى تبلغ هى
وزوجها وأولادها المصير ، ومع ذلك فقد رفضت مشروعا
جديدا للفرار عرضه عليها لافاييت ، ومشروعا آخر عرضته
احدى الاميرات ، يهدف الى تدبير فرار الملكة وحدها ،

باعتبارها اكثر الجميع تعرضا للخطر ، وقد بررت رفضها في خطاب ارسلته الى الاميرة قالت فيه : « انها لا يمكن ان تترك هؤلاء الاعزاء الذين يجب عليها ان تقاسمهم المصائب ، والذين اظهروا - مهما قال الناس - من الشجاعة ما يستحق التقدير ، وان اعداءها حرموها من كل شيء الا من قلبها الذي سيبقى معترفا بجميل الاميرة » ، وختمت خطابها بقولها : « ان الكارثة الوحيدة التي لاسبيل الى احتمالها ، هي الا تصدقني ما قلته لك »

ولم يطل الامر ، فان آخر ما طلبته الملكة من اعوانها والاسرة المالكة في الخارج ، هو الذي وقع ، كانت قد طلبت من فرسن ، الا توجه الدول الى الشعب الفرنسي تهديدا والا تكتب في انذاراتها ما يدل على ان شغل ملوك أوروبا الشاغل هو شخص الملك والاسرة المالكة ، ولكن فرسن كان يتلقى من حبيبته كل يوم خطابا يفيض بعبارات الاستنجاد واللهفة ، فلم يستطع الا ان يكتب مسودة انذار يوجهه دوق برنزويك قائد عام الجيوش الملكية ، يهدد فيه اهل باريس لو مدوا ايديهم الى شعرة من جسم الملك ، بالويل والثبور ، فزاد ذلك من حماسة الشعب ، ولم يدخل الى قلوب ابنائه الخوف ، وتلاصقت صفوف الامة امام الخطر ، واصبح اتهام الملك بالخيانة اقرب الى الاستساغة والقبول . وقد كان ... فقد خطب فرينو ، زعيم الجيروندي في الثالث من يونية عام ١٧٩٢ متهما الملك بالتواطؤ مع اعداء فرنسا . ومنذ ذلك الانذار

وتلك الخطبة ، وسكان التويلرى (القصر الملكى) فى انتظار هجوم

وفى ليلة العاشر من أغسطس ، كانت الملكة ومدام اليزابث شقيقة الملك ، تطلان من نافذة القصر ، ترقبان قدوم المهاجمين ، فقد كانت النذر كلها تشير الى أن فى الجو شيئا ، وكانت الليلة حارة ، لا تلتطف قيظها نسمة واحدة ، وكانت الشوارع خالية من المارة يسودها سكون موحش ، فالناس كانت فى اندية الثورة تتناقش ، وتتآمر ، وتدبر مصير الملك ، وكانت حدائق قصر التويلرى تمتد أمام أعين المرأتين ، باعثة فى قلوبهما أقصى المشاعر ، فقد كانتا أشبه شئ بفريسة لا حول لها ولا قوة ، ومع ذلك فقد كان فى الحدائق أكثر من الفى جندى ، مع ضباطهم من النبلاء

وفى الساعة الواحدة الا ربعا ، سمع من بعيد صوت بوق يدعو الجنود الى حمل السلاح فى ضاحية بعيدة ، وتلا النفير الاول ثان ، وثالث ، فلم يعد هناك شك فى أن هجوما قد اخذ طريقه الى القصر ، وبعد قليل سمع دق الطبول

وكان من بين الحرس تسعمائة جندى سويسرى أوفياء للعرش ، أكفاء ، شجعان . وجاء للنجدة ١٥٠ من النبلاء الشيوخ من بين ألفين منهم أرسلت اليهم الدعوة للمساعدة الى الاغاثة ، ووزع اثنا عشر مدفعا على مداخل القصر

لقد اصبح قصر التويلرى قلعة .. قلعة النظام القديم الاخيرة .. فهل ستعرف القلعة كيف تدافع عن النظام الذى

تمثله ؟ كان الحرس السويسرى مستعدا للقتال ، اما الحرس
الوطنى فلم يكن والقا من نفسه ، وكان افراده يتساءلون :
نحارب ام لا ؟ توجه رصاصنا الى صدور ابناء الشعب ،
ام لا ؟

كان الموقف فى حاجة الى صوت قوى ، ينفث فى المترددين
من الجنود العزم والارادة ، كان فى حاجة الى اشارة من ذراع
صلبة ، تبعث الثقة فى الجنود ، ولكن أين هذا الصوت
القوى ؟ وأين هذه الاشارة الصادرة عن ثقة وايمان ؟

ذهبت الملكة الى زوجها ، وطلبت اليه أن يستعرض
جنوده للمرة الاخيرة ، وأن يوجه اليهم خطابا حازما .. فأطاع
الملك ، وباليته ما أطاع . هبط درجات السلم وكأنه يتحسس
طريقه ، لضعف بصره وثقل خطاه ، وفى صوت ضعيف سأل
الجنود : « اننا سنحارب بشجاعة .. أستم معى ؟ ان
قضيتى قضية كل مواطن شريف » فما كان من الحرس الوطنى
الا أن هتف : يحيا الشعب بدلا من يحيا الملك !

ورأت الملكة ذلك فكادت تنفجر غيظا ، ولم تكن فى الواقع
لتحتمل بعد سهر ليلة مضنية ، مليئة بالترقب والقلق ، أقل
شئ .. فقالت مخاطبة احدى وصيفاتها :

« لقد انتهى كل شئ »

وكان هذا صحيحا ، فقد انتهى كل شئ

ولسنا نريد أن نطيل فى سرد باقى التفاصيل حتى ختام
القصة ، ولكن قبل أن نترك قصر التويلرى ، يجب أن نذكر

شيئا لا يجب أن ننسى ، فقد كان بين الجموع التي وقفت خارج القصر ، لتشهد المعركة ، ضابط شاب تخيل نفسه في مكان قائد الحرس المدافع عن القصر ، ولعله رأى بعين خياله ، نفسه ، وهو يطلق على جموع الشعب قذائف المدافع الأثني عشر ، ليبددها ، كما فعل بعد ذلك بسنين في باريس ، بأمر من حكومة الإدارة

لم يكن هذا الضابط الشاب سوى .. نابليون بونابرت ولكن لويس بدلا من ذلك ، أمر جنوده ألا يطلقوا قذيفة إلا بعد أن يقذف ضدهم .. فمهد للهزيمة التي كانت آتية لأريب فيها

وبعد قليل لاحت طلّائع الزحف .. زحف العهد الجديد .. ألوف من أبناء الشعب .. أبناء الشوارع .. من باريس وضواحيها ، يزحفون .. وأمام هذا اقترح رويدر النائب العام على الملك ، أن يلجأ إلى الجمعية الوطنية ، ويضع نفسه تحت حمايتها ، ورفضت الملكة الاقتراح ، ورأت أن تقا تل بحزم وثقة بالنجاح

ولكن الملك ، على عادته ، فكر وكأنه ينظر إلى الفضاء ، دون أن يبدو عليه أن رأسه يزن شيئا ، أو أنه يواجه مشكلا ، ثم قرر أن يضع نفسه تحت حماية الجمعية الوطنية

وكان مقر الجمعية الوطنية في الناحية المقابلة لقصر الملك ، ولم يكن هذا التقابل مجرد صدفة ، بل كان تصويرا للواقع ، فقد كان الملك والجمعية الوطنية كفتى ميزان الأمور

فلما انتقل الملك من قصره الى مقر تلك الجمعية ، أصبح واضحاً ان الشعب لم يعد في حماية لويس السادس عشر ، بل ان لويس هو الذى أصبح في حماية الشعب

وذهب الملك الى مقر الجمعية الوطنية ، بينما كان الحرس السويسرى مستتبلاً في الدفاع عن الملك

ان الملك قد تخلى عن قضيته ، وكان حراسه ملكيين اكثر منه !

وطلب الثوار الذين اقتحموا القصر ، وغلبوا المدافعين عنه عزل الملك ، ورأى الجيرونديون ان القانون لا يسمح بذلك ، وانه لابد من اتخاذ اجراءات قانونية ، وتناقش الزعماء في أى مكان تحل الاسرة المالكة ، فاستقر الرأى على اسكانهم في قصر اللوكسمبرج ، ثم نقلت بعد ذلك الى « التامبل » وهو حصن عتيق منيع ، حل بأحد أبراجه لويس ومارى انطوانيت وسائر الاسرة

وبينما كان هذا يحدث داخل فرنسا ، كانت الحرب على حدودها مع أعدائها ، تسير لمصلحة هؤلاء الأعداء ، أول الامر ، وانعكس هذا على الامور في باريس ، ففقدت الجمعية الوطنية نفوذها ، وانتقل النفوذ في هذا الوقت الخطر الى « كومين » باريس ، وهو لجنة ثورية ، كان يرؤسها « دانتون » زعيم الثورة

ولما وصلت الانباء بسقوط « فردان » آخر القلاع قبيل باريس ، أمر دانتون بالقبض على كل المشتبه فيهم ، فقبض

على نحو أربعة آلاف بين قيس ، ولبيسل ، وفارس ،
واودموا السجون ، فلما وافت انباء الهزائم ، شعر الجلادون
ايديهم ، فاعدموا من هؤلاء الف شخص في ثلاثة ايام بلياليها ،
وقد كان من بين من لقي حتفه في هذه الايام الاميرة لامبال
صديقة الملكة وكاتمة سرها ، وقد رفع احداهم راسها على
حربة طويلة ، الى نوافذ سجن « التامبل » ، واصر الجمهور
على ان يدخلوا الحصن ويعرضوا راس الاميرة لامبال على
الملكة ، لتقبل شفتيها الباردتين ، وحال الحرس دون ذلك ،
وسمع الملك بالشجار تحت النافذة فسأل عنه ، فلما اجابه
الضابط ، اعترته قشعريرة رغم بروده المعهود ، واغمى على
الملكة ، وتقول ابنتها ان هذه كانت المرة الوحيدة التي خانتها
فيها شجاعتها

وارسل كومون باريس الى بقية المدن الكبيرة لتحذو
حذوه ، حتى لا يتجه الفرنسي المخلص الى العدو ويخلف
وراءه انذالا يقتلون نساءه وأولاده ، فقامت المذابح في فرساي
وريمس وليون واورليان ، وقد عرفت هذه المذابح فيما بعد
« بمذابح سبتمبر »

ولكن هل توالى انسحاب جيوش الثورة امام جيوش
أوروبا ، الفنية المدججة بالسلاح والعتاد ، المدربة على فنون
الحرب ؟

في « فالمي » تغير مجرى التاريخ ، فقد ثبتت جيوش الثورة
بقيادة « دي مورييه » ثباتا لم يكن متوقعا ، فدب الخلاف

بين دول أوروبا ، فانسحبت الجيوش القوية ، أمام جيش من
الثوار ، لم يكن له من زاد سوى ايمانه ببلده وثورته .. وقد
كان الشاعر الالماني « جوته » حاضرا هذه الموقعة فقال : « في
هذا اليوم .. وفي هذا المكان ولد عصر جديد في تاريخ العالم »

وفي ٢١ سبتمبر عام ١٧٩٢ اجتمع المؤتمر الوطني واعلن
ان الملكية انتهت في فرنسا ، وان الجمهورية قامت فيها

وفي ديسمبر من نفس العام دارت المناقشات في المؤتمر
الوطني حول جواز محاكمة الملك ، الذي كان الوزراء في ظل
الدستور يحجبون شخصه عن المسؤولية ، وانتهت المناقشات
القانونية ، الى اعلان اتهام الملك في ١١ من ديسمبر ، وقد
تضمن الاعلان تهمة الخنث في اليمين التي اقسمها للدستور ،
واتصاله بالاعداء ، ودعوتهم الى غزو البلاد

وفي ٧ يناير عام ١٧٩٣ سئل أعضاء المؤتمر عن العقوبة
التي يرونها جزاء وفاقا لجرائم الملك فأفتى ٣٨٧ من ٦٩٤
بأن العقاب المناسب هو الاعدام ، وأفتى الباقون بعقوبات
شتى ، كالسجن والنفي ، والاعدام مع ايقاف التنفيذ

وكان الملك في غرفته ينتظر الحكم حين دخل عليه وزيره
ماليشرب الذي دافع عنه أمام المؤتمر ، والدموع تملأ عينيه ،
فألقاه جالسا في الظلام وقد اعتمد بمرفقيه على منضدة
أمامه ، واخفى وجهه بين يديه .. وعلم الملك بالحكم فطلب
ان يمهل ثلاثة ايام يستعد خلالها للقاء ربه ، وان يسمح
لزوجه واولادها بمبارحة فرنسا ، وان يسمح له برؤية

اسرته قبل الموت ، وأن يباركه قسيس يختاره لنفسه ،
فرفض الطالبان الاولان ، وسمح له بالآخرين



لم يطل الامر بالملكة ، فقد تهيأت تماما لمثل مصير
زوجها ، فلما ودعته في الليلة السابقة رأت منه ثباتا عجيبا ،
فلم تدمع عيناه ، ولم يبد عليه حتى ولا جزع المسافر المفارق
لاهله وداره ، ولا يعلم أحد ما دار بينهما ، فقد وقف مندوبو
« مجلس باريس » يراقبون هذا اللقاء من خلال نافذة زجاجية ،
وكل ما قيل عما دار في هذا اللقاء على السنة المؤرخين ، كان
ضربا من الخدس والتخمين

وفي الساعة العاشرة مساء قام الملك ايذانا بانتهاء الزيارة ،
فقامت الملكة وأولادها دون أن تناقش في ذلك الامر او
تعارض فيه ، وقضت الليلة ساهرة حتى اذا ما أشرق الفجر ،
سمعت صوت أقدام تصعد ، ثم صوت أقدام تهبط ، وصوت
عربة تقترب من باب السجن ، وصوت عربة تبتعد عن الباب ،
ثم دوى طبول يتزايد .. وأخيرا لف الكون حولها صمت
عميق رهيب ، علمت معه انها صارت أرملة لويس السادس
عشر ، الذي سمي آخر الامر « لويس كايه »

الفصل الثالث عشر

وأصبحت ماري انطوانيت وحيدة وحدة مطبقة ، فقد نقلت بعد قليل الى سجن آخر ، هو سجن « الكونسيرجي » وكانت الثورة قد أعدت حصن « التامبل » لنزول الاسرة المالكة ، فبنت حوله بيوتا للحرس ، وقطعت الاشجار التي كانت في الحديقة المحيطة به ، وفي الداخل هيات المكان الذي اختير للملك والملكة ومن معهما ، فخصصت للملك أربع حجرات ، وخصصت للملكة ولمدام اليزابث أربع حجرات أخرى ، ولم تبخل الثورة على ضيوفها الذين أنزلتهم « التامبل » بالطعام ولا بالثياب ، ولا بوسائل التسلية ، فقد كان يقدم لهم مثلاً في وجبة الغداء ثلاثة انواع من الحساء ، وصنفان من الخضر ، وصنفان من المشويات ، وأربعة ألوان من الحلوى ، مع الشمبانيا ، ولذلك فقد بلغت تكاليف المطبخ الملكي في أقل من ثلاثة أشهر خمسة وثلاثين ألفاً من الجنيهات وأجيب الملك الى طلبه ، فأحضر له ما لا يقل عن ٢٥٧ مجلداً ، كان معظمها من الكتب الكلاسيكية اللاتينية ولقد كان البرنامج اليومي مسلياً حقاً ، ففي الصباح يقرأ الملك في كتبه ، وتقضي الملكة وقتها مع الأولاد تشرف على تعليمهم حيناً ، وتشاركهم ألعابهم حيناً ، فإذا حانت فترة ما بعد الغداء ، أخذت الملكة تجاذب زوجها أطراف الحديث ، ان لم يلعبا معا النرد أو الشطرنج ، ويخرج الملك بعد ذلك مع

ابنه الى الحديقة ، ليتريضا ، وكان ولى العهد يطير طائرة ورقية ، فيعينه أبوه على ذلك ، أو يمتحنه بأسئلة ، منها مساحة الحديقة بالامتسار المربعة ، فاذا ذهب الاولاد الى العشاء ، لعب الزوجان الورق ، أو جلست الملكة الى آلة « الكلافسان » وغنت بعض الالحان

وكان الملك وأخته مدام اليزابث ، فى هدوء نفسى ، لايجدان فى السجن من الضيق ، ما كانت تجده الملكة ، فقد كان كلاهما شديد الايمان بالدين ، وكانا يصليان ويطيLAN الصلاة ، ومن هنا لم يزد السجن عندهما عن خلوة للتأمل والتعبيد والقراءة ، وكانت مدام اليزابث مهياة أصلا لان تكون راهبة ، أما مارى انطوانيت فكانت رغبتها فى الحياة شديدة ، فثقلت عليها الوحدة ، ولم يخف انشغالها بالمستقبل

ولكنها قبل ان تنقل الى « الكونسيرجى » قضت وقتا حافلا بالمجازفات المثيرة ، فان ارادة الحياة فى مارى انطوانيت لم تكن لتنضب ، حتى ولا بفعل هذه الكوارث التى كانت كفيلة ان تحطم عزيمة امرأة رقيقة ، لم تعرف الا اللون الضاحك الزاهى من الدنيا

وكان اول ما طلبته بعد اعدام زوجها أن يرخص لها بثوب حداد ، ووافق « مجلس باريس » على ذلك ، ولم تكن قد طلبت منذ اودعت السجن شيئا ، فقد تحاشت ان يصدر عنها ما يدل على انها قبلت التعاون مع سلطات الثورة ، واعترفت بشرعيتها

ولم تر سلطات الثورة من ناحيتها ، بعد اعدام الملك ،
ضرورة لاستمرار التضييق على الملكة في السجن ، فخفت
تلك القيود كثيرا ، واصبح في مقدور ماري انطوانيت ان تطلع
على الصحف ، ولكن شيئا لم يكن في حسابها لاح في الافق ،
كطاقة واسعة يمكن للامل ان يدخل منها ، وقد تمثل هذا
الامل الجديد في شخص قائد من القواد ، كان قد فر الى
الخارج مع زوجته ، ولكنه تسلل عائدا الى فرنسا ، مواجهها
الخطر ، مجازفا بحياته ، ليحاول ان ينقذها وأولادها من
السجن .. وبدأت الفكرة مستحيلة ، ولكن ما اقرب
ما تتحول المستحيلات الى ممكنات ، مع الارادة والمثابرة ،
ومواتاة الظروف

كانت ماري انطوانيت قد اصبحت مجرد امرأة ، اختفت
منها الملكة ، وذابت شخصية الدوقة النمساوية ، فلم يعد
باقيا منها الا الارملة التي شاب شعرها ، وكبرت بفعل المآسى
المتراكمة .. ولكن عجباً واى عجب ! ان الارملة المجردة من
السلطان ، المكروهة من الملايين ، التي انتهى بها الحال الى ان
تكون مجرد سجين ، تفرح حتى لتخفيف القيود عنها ،
تستطيع ان تخلب الالباب ، وتكسب الانصار ، واى انصار ؟
كان « فولان » جيرونديا متطسرفا ، وكان على رأس
الذين هاجموا قصر التويلرى فى العاشر من اغسطس عام
١٧٩٢ ، ومنح وساما لما أظهره من شجاعة ، وحسن بلائه فى
تلك الموقعة .. فولان هذا هو الذى وقع عليه اختيار مجلس

بلدى باريس ، ليكون كبير المراقبين فى سجن « التامبل » ،
وجاء الى مهمته الجديدة وهو يضمّر أشد الكراهية لمارى
انطوانيت

ولكن انظر ماذا حدث ..

حينما اتصل بها ، وتعود رؤيتها كل يوم ، تغير قلبه شيئاً
فشيئاً ، فباتت فى رأيه ، مخلوقة ذكية ، ومحدثة لا تتكلف
فى حديثها ، سريعة نشطة ضاحكة ، كأنها لم تفقد شيئاً ،
حتى ولا كيس نقودها .. وانتقل الجيروندى المتطرف من
النقيض الى النقيض .. انتقل من مرتبة العدو الى مرتبة
الصديق .. وهذا الصديق هو الذى تبرع بالاتصال بالقائد
« جارجيز » وحمل اليه من الملكة خطاباً ، ونظر « جارجيز »
الى الخطاب فألفاه بخط الملكة الذى يعرفه ، ولكن فى عالم
الحروب والثورات ، والخيانات والمؤامرات ، والمجازفات
والمخاطر ، يوجد الآلاف ممن يحسنون تقليد الخطوط ،
فهل يثق فى « فولان » هذا ؟

قد يكون « فولان » أداة للبوليس ، فيسلم عنقه الى
الجيلوتين ، ولا يخدم الملكة ، لا .. بل ليطلب المستحيل ..
وطلب أن يرى الملكة داخل السجن !

وكان الصعود الى القمر أهون فى ذلك الحين من دخول
سجن التامبل ، فهذا السجن قد أحكمت الحراسة على أبوابه ،
وبنيت الى جواره قلعة خاصة ، وقسمت ممراته أقساماً
بحواجز وقف على كل منها حرس

ولكن حيلة الانسان ذى العزم والارادة لا تفرغ ، وقد وجدت الحيلة وسيلتها فى شخص الرجل الذى يوقد مصابيح السجن وكانت قد وضعت بكثرة خارجه وداخله لتبدد الظلام الذى قد يعين على هروب المساجين ، فقد استطاع « فولان » ان يضحك على الرجل ، وأن يوهمه بأن أحد أصدقائه يرغب لمجرد التسلية فى أن يشاهد السجن من الداخل وانه سيستعير منه لهذا الغرض والفضول ثيابه فترة يقضيها هو فى الراحة ، واحتساء النبيذ . وقبل الرجل ، ودخل « جارجيز » الى السجن ، وقابل الملكة

وظهر صديق آخر هو « ليبتز » أحد أعضاء مجلس باريس .. وقد وعد هذا الصديق أن يعد جوازات السفر اللازمة لاتمام المجازفة ، لا عن ايمان ، ولا عن عطف على الملكة ، بل لقاء مال .. وسارت المحاولة الى غايتها فى نجاح عجيب .. ثلاث عربات خفيفة صغيرة هذه المرة ، أعدت لتحمل احداها الملكة وولى العهد وجارجيز والثانية تحمل مدام اليزابث وليبتز ، والثالثة تحمل الاميرة الصغيرة ، وفولان وكان الترتيب قد انتهى الى ان ترتدى الملكة ومام اليزابث ثياب رجال ، ثياب أعضاء الكومون .. ولكن ما العمل مع الطفلين ؟ لا شئ يمكن أن يعترض الارادة ، فموقد المشاعل او المصابيح كان لحسن الحظ يصحب اولاده معه وهو يدور على مصابيحها ليقودها ، فلتعد اذن لولى العهد ولاخته ثيابا قدرة تشبه ملابس اولاد موقد المصابيح

وما أن أصبح كل شيء معدا ، وعلى ما يرام ، حتى خانت
الشجاعة السيد ليبتز في اللحظة الأخيرة ، فهو لم يكن مؤمنا
بالعمل الذي سيشترك في الاقدام عليه ، وانما كان مقامرا
من أجل المال

لقد كان يخاف من نظرات احدى سجينات التامبل ، مدام
« توسوان » فانها لم تكن في رأيه ولا في رأى الملكة سجيننة،
بل كانت فى تقديرهما مدسوسة عليهم لحساب الكومون
« مجلس بلدى باريس » وقد رأى أن يتنصل مما وعد به
فأعلن انه لا يستطيع أن يقدم سوى جواز سفر واحد
للملكة ... للملكة وحدها !

أى اغراء ! وأية محنة وتجربة !

تفر الملكة وحدها ، انه لامر جميل ، يكاد يكون خيالا
لا تطوله الايدى ، أن تنجو من هذه الحياة المهينة ، وأن تحطم
عن يديها الاغلال الثقيلة ، وان تتنفس فى جو طليق

ولكن مارى انطوانيت أم ، فهى لم تعد ملكة ، ولم تعد
دوقة ، وانما هى انسانية فقط ، وأية أم يمكن ان تتخلى عن
اولادها لتنجو بنفسها ؟

قيل لها انها بنجاتها هي يمكن أن تدبر لاولادها مصيرا
أحسن .. يمكن ان توجه سياسة الملوك الذين لايفكرون الا
فى الاسلاب والفنائم ، وفى ضم المساحات الجديدة والولايات
الفنية ، توجيهها صائبا ، ينقذ فرنسا من الثورة ، وينقذ
ابنها وعرش ابنها

ولكن كان هذا الجدل عبثا لا طائل تحته ، فقد رفضت
مارى انطوانيت مجرد الاستماع اليه ، وقالت فى خطاب بليغ
أرسلته الى السيد جارجيز :

« لقد حلمنا حلما بديعا .. هذا كل ما فى الامر .. على
اننا جنينا فى الوقت نفسه ربعا عظيما ، اذ اكتشفنا دليلا
جديدا على اخلاصك الذى لا تشوبه شائبة . ان ثقتى بك
لا نهاية لها ، وانك لتجدنى ، مهما كانت الامور ، على خلق
ومليئة بالشجاعة ، ولكن مصلحة ابنى هى مرشدى
الوحيد ، ومهما بلغت السعادة التى سأحصل عليها بخروجه
من هنا ، فانه ليس فى وسعى ان انفصل عنه : ولم يبق الا
أن أعلن لك عن عظيم تقديرى لولائك الذى عبرت عنه بما
قلته لى أمس ، وثق اننى مدركة تماما انك لا تفكر الا فى
مصالحى على احسن وجوهها ، وان الفرصة التى ندعها
تفلت ، قد لا تعود أبدا ، ولكن لن يبقى لى ما أتمتع به من
سرور اذا أنا تخليت عن أولادى ، ولذا فانى لا تخالجنى ذرة
من أسف على ترك هذا المشروع »

وبفشل هذا المشروع ، أو بالعدول عنه ، ان شئنا الدقة ،
خيل الى مارى انطوانيت والى الجميع ، انها دخلت فى مرحلة
الوحدة المطلقة .. ولكن أكان هذا صحيحا ؟ على العكس ،
فان مارى انطوانيت تأبى الا أن تكون فى كل مرحلة من
مراحل حياتها ، حتى بعد ان تجردت من كل شئ ، محورا
لمحاولة ، واية محاولة ؟ محاولة لايفكر فيها أشخاص احبوا

الخطر ، وطابت لهم منازلته أو على الأقل مغازلته . اشخاص
يعبثون كل قواهم ، وأبرع صفاتهم ، ويستعينون بما خفى
من مواهبهم .. وان الانسان ليعجب ، كيف لا يدب اليأس
الى قلوب هؤلاء المجازفين المخاطرين ، وقد احتشدت ضدهم
قوى حكومة لا تهزل ولا تلهو ، شديدة على أعدائها ، تطيح
وامرها بالراءوس مئات اثر مئات ، ولا تنى محاكمها عن
اصدار أحكام الاعدام بالليل والنهار ، وصحافة تصرخ
صرخات مدوية طالبة المزيد من العنف والمزيد من القسوة ،
لتطهير البلاد من أعدائها ومن انصار النظام القديم

ورغم ذلك كله ، بل ومن أجل ذلك كله ، كان هناك من
يعتقد ان من واجبه ان ينقذ ماري انطوانيت ، الرمز الباقي
للملكية الفرنسية ، والعضو الحى من أعضاء النظام القديم ،
والرأس الوحيد المدبر فى عالم تهاوى كله ، وفقد الارادة
والثقة ، والرغبة فى العمل والقتال

وقد رأينا المحاولة السابقة ، ورأينا كيف استطاعت ان
تفتح أبواب السجن ، وأن تخدع الحراس الساهرين ،
وتستغل الادارة اليقظة

ولكن تلك المحاولة اتخذت من صغار الموظفين من موقد
المصابيح ، من السجنان أو المشرفة على السجن ، وسائل
وادوات ، فهل يقنع النظام القديم بهذا ؟ ابدا .. فقد كان
فى باريس رجل مطلوب رأسه ، ومعرضة مكافأة كبرى لمن
يرشد عنه ، والغريب ، أن هذا الرجل لم يكن سياسيا ، ولم

يكن جنديا ، وانما كان من طائفة تعرف الحرص ، ولا تحب
التعرض كثيرا للخطر .. تلك هي طائفة رجال المال ، وكان
الرجل هو البارون « باتز » المالى الذى كانت تتعامل معه مارى
انطوانيت ايام مجدها ، وكان يقيم فى باريس ، وكلاب الصيد
تبحث عنه ، وتتعب كل خطوة من خطواته .. ولكنه كان
يتحرك فى هدوء وثقة ، لانه كمادة أبناء طائفته ، لا يحسن
التعامل مع الصفار والفقراء .. انه لا يتعامل الا مع الاقوياء
وذوى النفوذ

وقد لحظ باتز بعينه النفاذة ، ان الثورة الفرنسية تتعرض
لاكبر ما يدخره الزمان للشورات من مخاطر .. اعنى الفساد
انه الفساد ، والتكالب على المال ، والتنافس على السلطان ،
والقتال من أجل المناصب ، هو الذى يقتلع المبادئ ، ويطفىء
نورها ، هو الذى يوقع الفتنة بين الاخوة ، ويفرق صفوف
المقاتلين ، ويبعث على حب الراحة ، والفرار من تكاليف
الجهاد

وقد استطاعت الثورة أن تقضى على الملك ، وجيوشه ،
وعلى النبلاء والاشراف وأمراء الكنيسة .. استطاعت أن
تهز كتفيها غير مكترثة لتهديدات دوق برنزويك ولخطابات
الامبراطور ليوبولد وابنه فرانسوا من بعده ، ولمشروعات
ملك بروسيا وقيصر روسيا التهديدية .. فكل ذلك كان
اشبه شىء ببعوضة صغيرة ، تطن بعيدا عن أذن الاسد
اما الذى هز الثورة وكاد يقتلعها من جذورها فهو الفساد،

فقد أبى سوء حظ الثورة الفرنسية إلا أن يكون انهيار النظام القديم ، وفتح أبواب الحياة والاعمال والمناصب للجميع ، فرصة للوصوليين والباحثين عن المغانم ، والمتجرين بالمبادئ ، فطفوا على السطح .. واستطاع الكثيرون منهم أن يصلوا الى مناصب ذات شأن !

وكم كان خطر هؤلاء على الثورة عظيما .. ودورهم بشعا ! فقد كانت عليهم مسوح الثورة ، وعلى ألسنتهم شعاراتها ، وعلى وجوههم سمات الثوار ، وكان منهم من اشترك قبل الثورة في عمل ثورى ، وكان منهم من أتيح له أن يثبت ولاءه للثورة في موقف من المواقف .. هؤلاء جرى في أيديهم مال كثير هو مال الدولة .. هؤلاء اجتمع في أيديهم نفوذ كبير كان المفروض أن يستغل لحساب الثورة ومن أجل مبادئها ، ولكنهم أفادوا من المال ، وأفادوا من النفوذ .. تغيرت مساكنهم ، وتغيرت ملابسهم ، وامتلأت جيوب بعضهم حتى قاضت ، واتخمت بيوت بعضهم حتى ناءت بما حملت من رياش وأثاث

وفي هذه المعركة كان روبسبير أزهد زعماء الثورة وخاتم هؤلاء الزعماء ، يضرب بشدة ، مستعينا بالجيلوتين ، ولكن الفساد كان قد استشرى وغلب ، فلم يعد يصلح فى مقاتلته والقضاء عليه نصل المقصلة ، ولا نطع الجلاد

وهكذا عرف باتزكيف يشق طريقه فى هذا الجو الموبوء

وتعاقد أول ما تعاقد مع أعضاء الكومون - مجلس بلدى
باريس - قمة النفوذ ، ونذكر منهم ميشونيه ثم كورتى قائد
باريس العسكرى .. اعنى انه جمع بين حماية المدنيين
والعسكريين ، بينما كانت السلطات تبحث عنه جاهدة ..
وكانت لجنة الامن العام ، تقذف فى حقه حمما ، وتصفه بأنه
« باتز الملوث » .. ولكن ماذا يهم باتز من شتائم لجنة الامن
العام ، اذا كان تحت أصابعه زعماء ذوو خطر . والدليل على
ذلك ان باتز اجترأ بفضل هذه الحماية ، على أمور لا تخطر
على بال ، منها انه استطاع بعد أن تنكر باسم « فورجيه »
أن يكون أحد حراس سجن التامبل نفسه ، وان يرتدى ثياب
الحراس القدرة ، وان يحمل بندقية كأي واحد منهم ، حتى
ان من كان يراه فى هذه الثياب لا يصدق ان داخلها « مليونير »
مرفه ، تكفى اشارة من يده ليجرى نحوه عشرات من الخدم
يسألونه ماذا يطلب ، ثم يحضرون اليه ما يطلبه على صحاف
وموائد من ذهب وفضة

وكانت وسيلة باتز ذهباً وفضة أيضا .. مليوناً من
الجنيهات دفعة واحدة ! سال لها لعاب ميشونيه وكورتى !
وتستطيع ان تترك لخيالك العنان بعد ذلك ، فالام يصل
الخيال ؟ مهما تصورت فلا أحسب انك تتصور ان حراس
التامبل استطاعوا بقدرة هذا القادر « باتز » أن يتحولوا الى
ملكيين يؤمنون بالملكية ويهزءون بثورة فرنسا وبمبادئها ..
وكان على رأس هؤلاء الحراس باتز نفسه !!
وحينما اعتقد « باتز » أن الفرصة قد نضجت لانفاذ عزمه

الاخير ، رتب الامور فى صورتها الاخيرة ، وفى ذات ليلة ، بعد ان ساد الظلام ، تقدم كورتى - القائد العسكرى - على راس فصيلة من جنوده ، ومن بينهم « باتز » ووزع الجنود بحيث اصبحت ممرات الطرق فى السجن ، فى ايدى انصار باتز وفى نفس الوقت كان ميشونيه الذى قبض نصيبه من المليون جنيه المخصص للرشوة اللازمة لهذه العملية ، حتى اتخم ، كان هو صاحب النوبة فى حراسة السجن ، وكان قد زود الملكة ومدام اليزابث ، والاميرة الصغيرة بملابس رسمية ، وفى منتصف الليل كان هؤلاء الثلاثة قد ارتدوا قبعات عسكرية ، وحملوا فوق اكتافهم بنادق ، واستعدوا للخروج مع صفوف جنود الحرس الاخيرين الذين ارتشوا هم كذلك ، على ان يكون بينهم ولى العهد

ولكن بقدر ما كان فى المرحلة الاخيرة من حياة مارى انطوانيت ، من لمحات خاطفة من الامل ، بقدر ما كان فيها من مفاجآت مميتة من سوء الحظ ، ففى اللحظة الاخيرة ، اقبل « سيمون » عضو مجلس باريس ، وكان من غلاة الجيرونديين ، نما اليه نبأ المؤامرة ، فأفضى بما وصل الى علمه الى اعضاء المجلس ، فلم يصدقوا ما افضى به اليهم ، ولكنهم لم يجدوا بأسا من ان يقصد الى سجن التامبل ليرى بنفسه ان كان للخبر نصيب من الصحة ، وعلى باب السجن رأى الجنرال « كورتى » ، فقال له على الفور انه اطمأن اذ رآه ، وفى الحال سعد الى المواطن « ميشونيه » الذى كانت المفاجأة قد

صعقته ، ومع ذلك استطاع ان يجمع شتات نفسه ، وان يغير
الزى الذى كان قد تنكر فيه ، ليشارك فى عملية الفرار .. اما
« باتز » المليونير فقد حار فى امره ، ا يطلق على سيمون
رصاصة ويتخلص منه ، أم يستسلم للقدر ؟ وبعد تدبر
سريع تبين ان الرصاصة ستقضى حقا على سيمون ، ولكنها
ستجمع كل من فى السجن ممن لم يشترك فى المؤامرة فينكشف
امرهما ، فآثر أن يأخذ مكانه بين صفوف جنود الحرس الزائفين
الذين جمعهم الجنرال كورتى واخرجهم من السجن

وانتهت هذه المحاولة ، كما انتهت اثنتان من قبلها ، ولكن
هذه الاخيرة جرت المصاب الاكبر الذى انتهت معه مارى
انطوانيت فاستحالت حطاما .. ففى أول يولية عام ١٧٩٣
حضر الى السجن فى منتصف الساعة العاشرة مساء ، خمسة
من أعضاء « الكومين » وأنهوا الى الملكة النبأ الذى كان
أنجع ما سمعته أذناها منذ حالفها الحظ العاثر ، فقد ابلغت
ان ابنها سيؤخذ منها ليودع ويوضع تحت وصاية من يحسن
تعليمه « سيمون » عضو المجلس الذى قضى على المؤامرة ..
ولسنا فى حاجة الى ان نراجع شيئا مما كتبه التاريخ فى شأن
هذه المقابلة .. فان تعلق مارى انطوانيت بابنها ، كان اكبر
عواطفها ، كانت تحبه أكثر مما تحب اخته التى تكبره ، وكانت
حيويته وثرثرته وشدة ميله للحركة هى تسليتها الوحيدة
هل تضرعت مارى انطوانيت لاعضاء المجلس ليتركوا لها

ولدها ؟ هل بكت وانتحبت وصرخت ؟ .. لا احد يعرف ،
ولكن الثابت ان الولد اوقف من نومه ، وخرج في هذه
الليلة لكيلا تتصل به أمه بعد ذلك .. ولكنها كانت تراه ..
تراه من بعيد فقد اودع في منزل لا يبعد عن القلعة التي
سجنت فيها كثيرا .. وكان يلعب في ساحة السجن ، ومن
نافذة الدور الثالث من برج القلعة ، كان في وسع ماري
انطوانيت ان تراه في هذه الساحة ، ومنذ ذلك اليوم كانت
تقضي الساعات الطويلة على أمل أن يظهر في هذه الساحة وأن
تسمع صوته الصغير يأتي اليها من بعيد ، وهو ينشد أناشيد
الثورة التي علمها له مدرسه « سيمون » ، ولم تكن تملك
الا أن تفسل بدموعها قضبان نافذة السجن الحديدية

وألف الولد الحياة الجديدة وأحبها ، شأن كل صغير ينتقل
الى مجتمع جديد ، أما أمه فقد فقدت آخر صلاتها بالدنيا ،
ولم تكن تكثرث لشيء ولا لشخص

فلما جاء الامر بالانتقال الى سجن « الكونسيرجي »
ليحقق معها ثم تحاكم ، جمعت أشياءها ، وقبلت أن تفتش
ثيابها ، وحجرتها ، بلا اكتراث ، وسارت في خطى ثابتة ،
بعد ان ودعت ابنتها وشقيقة زوجها ، زميلتيها في رحلة
العربة ، وفي آخر درجات السجن ، اصطدم رأسها بأعلى
باب الخروج فسألها أحد الحراس : هل أصاب رأسها سوء ؟
فقلت في غير اكتراث :

« لا .. لم يعد هناك شيء يستطيع أن يصيبني بسوء »

الفصل الرابع عشر

فى « الكونسيرجى » السجن المظلم الرطب ، لم تكن سوى شبح ينتظر خاتمته بغير قلق ولا خوف ، وقد وصلت اليه فى الساعة الثالثة من الصباح ، وكانت مدام ريشار زوجة محافظ السجن قد أخطرت بأن الملكة ستنزل فى ضيافتها ، فأسقط فى يد السيدة التى مر عليها نبلاء وقساوسة ، بل أمراء ودوقات ، ومواطنون عاديون ، فلم يكن لها عهد حتى تلك الساعة بالملوك والملكات ، وكانت قد ولدت ونشأت فى ظل النظام القديم ، فعرفت ان اسم الملكة من المقدسات ، لذلك اندفعت الى مخازنها تبحث عن أفخر ما لديها لتقدمه الى الضيفة الجديدة ، فلم تجد سوى سرير حديدى وضعت عليه حشيتين ووسادتين ومسندين وغطاء رقيقا ، بعد أن اختارت أحسن « زنزانة » فى السجن ، كانت تستعمل فى الماضى لعقد جلسات فيها ، ودخلت الملكة الزنزانة الجديدة ، ومن خلفها كلبها الذى كان المخلوق الوحيد الذى سمح له بمصاحبته

وأسرعت خادمة لتعين الملكة على خلع ثوبها الاسود ، ثوب الحداد ، ولكن الملكة اعتذرت عن قبول المساعدة ، قائلة انها آلفت أن تخلع ثيابها بنفسها .. وخرج الجنود والضباط ومعهم مشاعلهم التى أضاءت لهم الطريق من التامبل الى الكونسيرجى ، وتضاءل صوت عجلات العربات التى حملتها فى آخر رحلاتها فى الحياة ، شيئا فشيئا ثم تلاشى ليسود سكون الليل العميق

ولكن هل تنتهى حياة ماري انطوانيت فى سجن « الكونسيرجى » اأتى السجون والذى لم يدخل فيه انسان، ثم خرج حيا ، والذى سمي لذلك « بغرفة انتظار الموت » دون ان تحدث محاولة أخيرة لانقاذها ؟ لو حدث ذلك لكان مخالفة لطبيعة الامور

وقد حدثت المحاولة الاخيرة ، ولكن هذه المحاولة عجلت بنهاية ماري انطوانيت المرتقبة .. فقد كان فرسن يهذى هذيان المجنون منذ علم ان ماري انطوانيت نقلت الى سجن الكونسيرجى ، اذ أحس أن البقية الباقية من حياتها أصبحت تعد على الاصابع فالكونسيرجى هو الطريق الى الابدية ، فانطلق هنا وهناك ، يطرق أبواب الملوك والامراء ، ويقابل وزراء الخارجية وأمراء الحرب ، وينتظر طويلا ليتفرغوا له ، ويستمعوا الى توسلاته وتضرعاته المشفوعة بالشروح السياسية .. ولكنه لم يجد الا أذنا صماء ، ولم يظفر الا بمقابلات مهذبة ، تفيض أدبا ، وتفيض فى الوقت نفسه برودة وتعاليا

فلم تعد ماري انطوانيت شيئا بعد أن عزلت عن العرش وأعدم زوجها ، وذاب نفوذها ، لتهم الملوك ، حتى ولا ابن أخيها امبراطور النمسا .. فقد كان شعار الجميع انه لا دخل للعواطف فى السياسة ، ولم يجد فرسن فى هذه الحيرة المطبقة ، سوى « مرسى » السفير السابق لماريا تريزا والدة ماري ، والذى كان لها طوال حياته ابان تبوئها العرش الناصح والمرشد والصديق ، والذى كان يحبها ويتمنى لها الخير ، على الرغم من انها لم تكن تصفى لنصحها

ولكن « مرسى » كان قد أسن وشاخ ، وصعب عليه أن

- ٢١١ - ١٤ - الملك والثوار فى مربة

يتابع هذه الحرارة المتدفقة من قلب فرسن الشاب ، فهل
يستسلم الحب ويدعن لواقع الامور ؟ .. انه ليكونن اذن شيئاً
آخر غير الحب ! .. ان فرسن لم يدع سبيلاً لتحريك همه
« مرسى » الا سلكه ، حتى انتقلت عدوى الحماسة والانفعال
اليه ، فكتب السفير خطاباً الى أحد أمراء النمسا ، الذى ارسل
بدوره خطاباً الى الامبراطور الذى اودعه بدوره فى « الارشيف »
ليعلوه تراب النسيان

فلم يبق الا سبيل الرشوة .. فتدفقت الاموال على بعض
زعماء باريس .. ويقول بعض المؤرخين انها وصلت الى جيب
« هيبير » الذى لم يكن يكف عن الصياح والسباب يوجهه الى
« البغى » اى مارى انطوانيت .. بل الى جيب دانتون

ولكن ليس ثمة دليل على ذلك الا ان حملات « هيبير »
ضد مارى انطوانيت توقفت فجأة فى صحيفة « الاب دوشين »
فلم يعد يطالب برأسها .. وعادت الآمال تتحرك فى صدر
أصدقاء مارى ، لولا هذه المحاولة الاخيرة

ففى ذات ليلة سمعت صوت المفاتيح تصطك بسلسلة
الحارس ، ثم سمعت صوت مفتاح الزنزانة يدور فى قفلها ،
والمزلاج يرفع ، والباب يفتح ، لترى نفسها وجها لوجه أمام
السيد « ميشونيه » الذى عرفناه بطلا من أبطال المحاولة
السابقة ، والذى استطاع بمهارته ان ينقذ عنقه .. ووظيفته
معا .. فأصبح المشرف العام على السجون ، ولم يكن
« ميشونيه » وحده هذه الليلة ، بل كان معه رجل ..
ونظرت مارى انطوانيت الى رفيق « ميشونيه » ولم تصدق
عينها .. انه النبيل « زوجفيل » .. ولم يكن مجرد نبيل ..
لقد رآته فى البلاط مئات المرات .. فى الحفلات والسهرات ..

فأى شيطان قذف به فى هذه الساعة أو قل أى ملاك ؟ وكيف استطاع الدخول الى « ممر الموت » ، ولأى سبب ؟

وشحب وجه مارى حتى حاكى الموتى ، من الخوف ، ثم عاد فامتلاً بالدم لفرط الانفعال .. ودارت الخواطر فى رأسها بسرعة دورة الدم نفسها ، أكون مجيئه مجرد فضول ؟ أم هو مظهر من مظاهر العطف ، أم تحية وداع من النظام القديم ، أم تكون هذه الزيارة ، طليعة محاولة جديدة ؟

لقد شبعت مارى انطوانيت من المحاولات ، فأخلدت آخر الامر الى اليأس ، وعاشت فى وحدتها الاخيرة المظلمة ، لايعزيها انها استطاعت فى هذا الجحيم ان تلحظ الاثر الباقي لسحر شخصيتها ، بعد أن ابيض شعرها ، وتجعده وجهها ، واحمرت عيناها من فرط البكاء ، وهزل بدنهما من الاسهال العنيف

فلقد أحبتها مدام ريشار حتى انها لم تكن تدخر وسيلة من وسائلها الضعيفة للترفيه عنها ، وتخفيف متاعب حياتها ، فان أمر للسجينة بدجاجة ، اختارت لها دجاجة سمينة ، وان اشترت لها فاكهة ، أخبرت بائعة الفاكهة المجاورة للسجن بأنها لمارى انطوانيت ، وكانت بائعة الفاكهة ، وهى من صميم الشعب ، قد نسيت لمارى انها كانت ملكة ، ونسيت كل ما قيل ضدها ، وذكرت شيئاً واحداً ، انها أم ، وانها تعاني الآن الوحشة والعزلة .. حتى الجنود ذوو اللحى المسترسلة ، والوجوه الخشنة ، تلتفوا معها ما وسعهم التلطف

وكانت تقضى سائر نهارها فى المطالعة .. المطالعة التى كثيرا ما أوصتها أمها بالمداومة عليها .. ولم تكن تطلب من الكتب ما ينطوى على مغامرات عاطفية ، ولا على قصص خيالية ، ولا على ادب من أى نوع ، بل طلبت قصص المغامرات الحقيقية ، مغامرات المستكشفين والرحالة ، ولعلها وجدت

فيما احتوته هذه الكتب من حركة ما يعوضها عن سكونها
وجمودها ، ومن حقائق الكشف ما يصرف ذهنها عن التأمل
في نفسها ، وفي الواقع الذي انتهت إليه

لكل هذا ، كانت زيارة « زوجفيل » اشبه شيء بهزة
حركت ميتا في أكفانه ، وبنور ساطع اندفق في مقبرة معتمة

ولكنها لم تستطع ان توجه للزائر كلمة واحدة ، بل انها
لم تستطع ان تطيل النظر اليه .. فقد خافت ان يكون
ميشونيه جاهلا شخصيته ، ولكن كيف يكون ذلك وهو
الذي رافقه وفتح له الباب .. باب الزنزانة

لقد تعطل ذهنها عن العمل ، فجاهدت جهادا عنيفا
لتستطيع ان تتبادل مع ميشونيه بعض العبارات ، وقد
تعودت ان تسأله كل يوم عن أخبار ابنها وابنتها ، وكان
يتعطف عليها بهذه الانباء ، منذ تلك المؤامرة المخففة التي قبض
عن دوره فيها مالا غير قليل .. وخرج ميشونيه بدعوى أنه
سيجرب تفتيشا على بقية الزنزانات ثم يعود

وخرج ، واغلق الباب ، واعيد المزلاج ، ومارى ذاهلة ..
وبعد قليل عادت المفاتيح تحدث صـوتها المعهود ، ورفع
المزلاج ، وفتح الباب .. وفي هذه المرة صدرت عن زوجفيل
حركة فهمت منها انه رمى شيئا وراء الموقد .. وخرج مع
ميشونيه فاندفعت تبحث وراء الموقد .. فماذا وجدت ؟
وجدت زهرة قرنفل فقط !!

وانهارت ماري انطوانيت ، فقد أدركت انها زيارة عطف
ومودة ، وتشجيع ! ولكن لم التسرع ؟ ان في داخل الزهرة
ورقة صغيرة .. انها تساوى آلاف الامتـسـار من الورق
ومجلدات من الكتب .. انها الامل كله .. ففي هذه الورقة
وعد من زوجفيل انه عائد في يوم الجمعة التالي ، ووعد بأنه

لن ينساها أبداً ، وسيواصل السعى ، ليظهر لها حماسه في خدمتها ، وأنه مستعد أن يزودها بثلاثمائة أو أربعمائة قطعة من العملة المعروفة في ذلك الوقت بـ « لوى »

الا تنتهى الآمال بما يصحبها من عذاب القلق والتوتر ، والترقب والخوف ؟ ولكن ما أجمل الآمال بالرغم من كل ذلك .. ما أجمل الآمال حتى لو عذبت وأشاعت القلق في النفس الهادئة .. ولم تصدق ماوسوس لها به خيالها من انه قد يكون من نصيبها يوماً ان تعود الى الحياة الطليقة ، وان ترى ابنها يكبر في عنايتها وتحت عينها ، وفي دفء حبها ، وان تستأنف الحياة بعد تجارب تجعل منها حكيمة ومديرة وعاقلة !

يا لهذه الاحلام الجميلة ، لاسيما اذا كانت في هذا القبر الرطب ، ومع ظلمة اليأس الذى تثلج معه قلبها ، وخمدت عواطفها !

وما اقوى الحياة !

لقد دبّت القوة في الهيكل البالى ، وعادت الارادة الى الميت الذى كان ينتظر جثمانه ساعة الدفن .. وفي الحال فتشت ماري انطوانيت على وسيلة تكتب بها ، فلم تجد الا ابرة وقطعة صغيرة من الورق ، فقد سحبت منها جميع وسائل الكتابة ، وبسن الابرة كتبت خطابا .. واتصلت في الحال بالحارس « جليبر » ووعدته بمكافأة سخية ، ان هو سلم الخطاب للضيف عند مجيئه للمرة الثانية ، وبذلك انتقلت عدوى القلق منها الى الحارس الطيب الذى احبها وكان يود أن يخدمها . فقد حار ، كيف يواجه هذه المشكلة التى لا عهد له بمثلها ، فان هو ابلغ السلطات فقد وشى بالمرأة التعسة التى كان يأسى لآلامها ، وان هو نفذ ما طلبته فقد يفقد

وظيفته ، ثم رقبته ، ولم ير بدا من أن يشرك معه مدام ريشار ، التي وقعت في نفس الحيرة .. ورات بدورها ان تعرض الامر على السيد « ميشونيه » وكانت تلحظ في مقابلاته للملكة عند تفتيشه لزنزانتها توددا وتلطفا .. وصفق ميشونيه ، لان امره كشف للمرة الثانية ، فلم ير مندوحة عن أن يبلغ رؤساءه ، فان وقوف اثنين على الخبر لا يضمن أبدا كتمانهم .. ولكنه قبل أن يبلغ السلطات ، أتلّف الخطاب الذي كتبته ماري انطوانيت بسن الابرة ، بأن أضاف اليه بسن ابرة اخرى جملا وحروفا ، جعلت قراءة هذا المستند التاريخي عسيرة على موظفي السلطات في تلك الايام .. وعلى المؤرخين حتى اليوم

وادعى ميشونيه ان النبيل الذي صحبه لزيارة السجن ، لم يكن سوى شخص عابر ، لا يعرف اسمه ولا وظيفته ، قابله في احدى السهرات ، وأبدى الرغبة في أن يزور معه السجن ، عن فضول ورغبة في المعرفة ، فوافقه مطمئنا الى ان هذه الزيارة لن تحقق أى شر ، لانها ستتم بمصاحبته وتحت اشرافه

وأجرى تحقيق ، كانت الغاية منه ، اسدال ستار على هذه الفضيحة . وانكرت ماري انطوانيت كل شيء ، وانتهى الامر في هذه المأساة ، بتجريد ماري حتى من خاتمها الذي اعطته لها أمها « ماريا تريزا » قبل مبارحة النمسا ، وعلبة صغيرة كانت بها خصلات من شعر اولادها ، والساعة الصغيرة التي كانت تعلقها على الحائط فتؤنس دقاتها وحشة السجن ولم يبق اذن بعد كل هذه المحاولات .. بعد هذه الآمال التي تورق وتونق وتذبل والتي تشرق وتغرب ، وتضئ وتنطفئ ، مع آلامها ومخاوفها .. لم تبق الا الخاتمة

الفصل الخامس عشر

مهد للخاتمة تحقيق أجراه معها النائب العام للثورة « فوكيه تنفيل » كانت فيه حاضرة الذهن ، رابطة الجأش ، حريصة لا يستدرجها الغضب الى ما يقيم الدليل ضدها .. ثم جاءت المحاكمة ، فحافظت فيها على ثباتها ، وقوة أعصابها وأخيرا .. وبعد كل هذا العناء جاء حكم الاعدام ، كمنقذ ومخلص !

وفي الساعة السابعة صباحا طرق الباب ، وكان الطارق الخادمة « روزالى » التى احسنت خدمة ماري انطوانيت منذ اللحظة الاولى .. دخلت روزالى ، وكانت ماري مستيقظة منذ الساعة الخامسة تكتب خطاب الوداع الاخير .. ولم تستطع روزالى أن تتبين فى ظلام الزنزانة أحدا ، فان الشمعتين اللتين كانتا تضيئانها وصلتا الى نهايتهما تقريبا ، فكان ضوءهما ضعيفا وكأنما يرمز الى الذبالة الباقية من حياة السجينة ، التى كانت مرتدية ثوبها الاسود ومتمددة على الفراش صامتة لا حراك بها ، بعد أن أنهك الاسهال المتكرر قواها .. وفي حنان عظيم ، امتلأ به قلب هذه الفتاة الريفية البسيطة ، اقتربت من السجينة وقالت لها :

« سيدتى ، انك لم تتناولى شيئا فى العشاء الليلة الماضية ، ولم تأكلى تقريبا طوال نهار أمس ، الا احضر لك شيئا هذا الصباح ؟ »

فأجابت ماري : « لا أريد شيئا ، لان كل شيء بالنسبة الى
قد انتهى »

ولم تياس روزالى ، فعادت تلح عليها لتتناول قليلا من
الحساء أعدته خصيصا لها

وقبلت ماري اكراما لروزالى هذا الرجاء ، وتجرعت بالفعل
ثلاثا أو أربع ملاعق

ان الانسان لينحنى أمام هذه العاطفة التى جمعت اثنتين
جد متناقضتين ، وجد متباعدتين ، خادمة وملكة . كان من
المفروض أن تجد الاولى فى السماتة بالثانية راحة وسرورا .
ولكن ليس هذا هو الاصل فى طبيعة الانسان . فى لحظات
الشدة تسقط الحواجز ، وتزول الفوارق ، ويبقى الانسان
المجرد ، الانسان الذى يتعذب مهما كان مركزه وماضيه
وجرائمه ، والانسان الذى يشفق ويأسى ويود أن يعين ويخفف
النائب ، مهما كانت بساطته وقلة حيلته . . وفى هذه اللحظات
ايضا ، ترتفع قيمة الكلمة الصغيرة ، والاشارة الخفيفة ، حتى
لتساوى الذهب النضار . . لا بل حتى لا يعادلها شيء فى الوجود
مهما بلغت قيمته

ولما فرغت السجينة من تجرع ماتجرعته من الحساء ،
جاءت خادمة لتعينها على لبس ثيابها ، فقد حرم على ماري
انطوانيت ان تذهب الى المقصلة وهى فى ثوب الحداد حتى
لا يكون فى هذا ما يعد تحديا لمشاعر الشعب

ولما كانت ماري قد قررت ان تذهب الى المقصلة فى ثياب

نظيفة ، وكانت ملابسها الداخلية قد تلوثت بالدم لقسوة
الاسهال الذى كانت تعاني منه ، فقد كان لابد أن تخلع كل
ملابسها ، وكان فى الحجرة حارس أمر ألا يرفع عينيه عن
السجينة حتى تخرج الى العربة التى ستحملها الى المقصلة ..
وقد أبى أن يخرج ، فلم يكن أمام مارى انطوانيت إلا أن تنزوى
فى أحد أركان الحجرة ، وأن تنحنى حتى لا تبدو عارية لعين
رجل ، فى اللحظات السابقة على الخلاص من هذا العالم ،
وبينما وقفت الخادمة بينها وبين الحارس ، جمعت مارى
انطوانيت ثيابها القذرة ، وكورتها ، وألقت بها خلف الموقد ،
ووضعت عليها الثوب النظيف الذى أعد لها ، وكأنما تلبس
ثوب زفاف ، فقد ارتدت هذا الثوب فى عناية ، فهى ستواجه
به الناس ، مئات الألوف من الناس ، بعد عام قضته بعيدا عن
الاعين ، ثم أنها كانت تحس بأنها مقدمة على خطوة استشعرت
لها القداسة .. انها ذاهبة الى أكثر خطواتها جدا .. انها
ذاهبة الى الموت !

وبنفس الروح ، روح الوقار والاهتمام ، وضعت مارى
حول رقبتها قطعة من الموسلين ، ثم لبست أحسن أحذيتها
وغطت شعر رأسها الذى رجلته وسرحته ، بقبعة أو قلنسوة
ذات جناحين

وفى الساعة الثامنة طرق الباب ، ولم يكن الطارق بعد هو
الجلاد .. انه قسيس جاء لتعترف له .. ولكنه كان
قسيسا من أتباع الثورة الذين أقسموا لها يمين الولاء ، فلم

تحفل به ، ولم تلق بالا اليه .. وفي العاشرة جاء سمسون الجلاد ، شاب ضخمة الجثة ، وبدأ مهمته بأن جز شعر رأسها دون مقاومة منها ، ودون حتى الشعور بالامتعاض ، ولم يبد أيضا على وجهها شيء من الامتعاض حينما قيد يديها من الخلف بحبل ، كانت نهايته في يد سمسون نفسه

وفي الساعة الحادية عشرة ، فتح باب السجن ، ونزلت ماري انطوانيت سلالم السجن في خطى ثابتة ، ولما خرجت للناس كان الناس كالعهد بهم دائما ، اذا ما تركوا لانفسهم ولم تتحرك في أعماقهم غرائز الحيوان القديم : يكرهون القسوة ، ويمقتون التمثيل بالضعفاء ، ولهذا كان ماري ماري انطوانيت مقيدة ، ومن خلفها حبل في يد رجل ضخم ، باعشا على الاشفاق والاحتجاج الصامت

وهمت السجينة بركوب العربية ، فمد جلادها يده اليها ليعينها ، فتقبلت المعونة في صمت ، وركبت العربية ، التي اشتهرت باسم « التمبريل » .. وسارت قدما نحو ميدان الثورة الذي عرف فيما بعد بميدان الكونكورد

الالوف يمينا ويسارا متراصون متزاحمون ، والجنود راكبو الخيول والمشاة ، رافعو السلاح شاكوه .. والعربة تخترق الشوارع .. فكيف استقبلت ماري انطوانيت عدوة الشعب ، من الشعب ؟ هل صرخ الناس في وجهها ؟ هل هتفوا ضدها ؟ هل رجموها بالطوب أو السباب ؟ هل تهكموا عليها ، وهي مهينة مقيدة بحبل ؟

كلا . . ان الناس دائما كما قلت مالم يشرهم مثير او يحرضهم
محرض ، طيبون ، يحترمون مصائب غيرهم ومتاعبهم ،
ويستنكرون أن يعيث أحد في جرح مفتوح
وبهذا مر الموكب في صمت عميق ، لم يقطعه الا لفترة
قصيرة جدا ، صياح رجل ركب حصانا ، وجرى خلفها ،
وهتف ضدها ، ثم انتهى كل شيء . . وعند زاوية كنيسة
« سان بروش » اجتمع النسوة وصرخن صرخات السخرية ،
ولم يتكرر ذلك من رجال ولا من نساء

وفي ميدان الثورة ، اجتمع الالوف منذ الصباح ينتظرون
وصول الملكة الى نهاية مطافها في هذه الدنيا ، وفي وسط
الميدان كانت الجيلوتين منتصبة ، يلمع نصلها الحاد ، لمعانا
رهيبا مخيفا

ووصلت العربة ومن حولها الفرسان ، ونزلت ماري
انطوانيت ، وفي قدميها أغلى حذاء عندها ، وعليها ثوبها
المسدل فوق قامتها التي زادت على المحن رشاقة ، وقفزت
على درجات السلم . . سلم المقصلة ، بهذه الاقدام السريعة ،
الخفيفة

والآن لم يبق شيء الا أن تنحني على ركبتيها ، وبحركة من
سمسون الجلاد اتقنها على مر الايام . . . وانحنت ، ثم وضعت
عنقها على نصف الدائرة السفلى للجيلوتين ، واعد العنق
ليستقبل سلاح المقصلة . . ولمع النصل وهو يهوى ، ثم
سمعت طريقة كئيبه . . رهيبه ، هي صوت ارتطام الراس

بقاع السلة المعدة لاستقبال الرءوس الطائرة

ويرفع سمسون الرأس ، ليوضع بعد ذلك بين ساقى
الجثة ، التى ألقيت فوق عربة يد ، لتنقل هذه الاشلاء كلها..
الى المقبرة

كانت هذه خاتمة مارى انطوانيت

أما شقيقة زوجها مدام اليزابث ، فقد بقيت بعدها سبعة
أشهر ، لم تدر خلالها أن مارى قد سبقتها الى الأبدية ..
وبقيت على هذا الجهل حتى سيقّت هى الأخرى الى المقصلة
فى نفس العربة التى حملت الملكة ، وفى التاسع من شهر
مايو عام ١٧٩٤ ، وكان رفيق مدام اليزابث فى هذه الرحلة
القصرة ، رحلة النهاية ، هى مدام سيزونان شقيقة الوزير
« مالرب » الذى دافع عن الملك لويس .. وفيما هما تخرجان
من باب السجن ، طلبت مدام اليزابث من زوجة محافظ
السجن مدام ريشار أن تبلغ الملكة تحياتها ..! فأجابتها
رفيقة الرحلة : « ياسيدتى ان اختك الملكة قد خضعت
لنفس القدر الذى ستخضعين له الآن »

وقبل أن تلقى مدام اليزابث حتفها ، نزعّت منها ابنة
أخيها التى عاشت حتى الى ما بعد عهد عمها لويس الثامن
عشر ، الدوق بروفانس ، الذى عمل كل ما فى وسعه ليقضى
على أمها وأبيها ليصل هو الى العرش .. أما ولى العهد
فقد اختفى فى طيات التاريخ ، كما يختفى الولد الصغير عن
انظار أهله فى زحام طريق حافل بالحركة ، أو فى موكب تتدافع

فيه جموع الناس .. هل قتله عمه الدوق بروفانس - الملك
لويس الثامن عشر فيما بعد - ؟ هل قتله بعض الثوار ؟ ..
هذا ما لا يعلمه أحد يقينا

اما بشيون ، الذى ارتفع نجمه حتى أصبح زعيما من زعماء
الثورة ذوى النفوذ والخطر ، فقد اجتاحت موجة الارهاب
التي نظمها ونفخ في نارها « مارا » ضد الجيرونديين وزعمائهم ،
فسقط عنقه على مقصلة الجيلوتين ، تماما كما سقط عنق
برناف وعنق مدام توريز الوصيصة

فهذه العربة التي عرفنا هنا قصتها تستحق بغير شك اسم
عربة الموت ، فقد قضت على الملكية ، وقضت على الثورة ،
وقضت على الذين ركبوها ، الا واحدة هي ابنة الملك ، ولعل
شحوب دورها ، وانطواءها على نفسها ، وبعدها عن الناس ،
كانت العوامل التي اتاحت لها أن تعيش ... وقد كان ذلك في
عهد الثورة عملا ضخما ، ونصيبا كبيرا



لكن من حقا ان تسأل ماذا أصاب اليكس فرسن ،
صاحب الدور الاكبر في صنع العربة واعدادها ، وفي تهيئة
الرحلة ، ورسم خطتها ، وتدبير كل ما اتصل بها ، وتعبئة كل
من ساهم فيها واشرف عليها

لقد نجا فرسن من الموت ، فقد كان خارج الحدود ، ليكابد
لسنوات طويلة آلاما ، ويتجرع غصصا ، منذ نقلت ماري
الطوائت الى الكونسيرجي ، لتسلم عنقها الجميل بعد ذلك

الى نصل المقصلة الحاد

وكان فرسن رجلا عنيقا ، فزادت ضراوته على الايام ، واصبح متجهما ، شرسا ، سريع الغضب ، ولكنه كان يعيش فكان لابد له ان يخضع لما تقتضيه الحياة ، كان لابد له ان يروح ويفدو ، لابد له ان يأكل ويعيش ويخاطب الناس ، فماذا يفعل ؟

كان يكتب لاخته الوحيدة من بين أفراد أسرته ، والناس جميعا ، التي يسكب في خطاباته اليها ، صرخات قلبه الذي كان يتمزق ، قال لها في أحد خطاباته :

« لقد انتهت تلك التي أحببتها باعتزاز لا حد له ، والتي من أجلها كنت أبذل حياتي رخيصة آلاف المرات .. فيارب لماذا سحقتني ؟ وماذا جنيت لاستحق نقمتك ؟ لقد استحلت عدما .. بلغ ألى قمته ، فكيف سأبقى حيا ، وكيف اصبر على آلامى الهائلة ، والتي لا يوجد ما يلطفها ، فهي لا تبرح مخيلتي ، وأنا لا أنفك أبكيها .. ياعزيزتى كم وددت أن أموت معها في ذلك اليوم .. العشرين من يونية .. »

لقد بحث عن كل ما يمكن أن يعزیه في حرقه آلامه ، فأرسل الى سماسرة التحف ، ومحلات العاديات والأشياء القديمة ليشترى له كل أثر لمارى انطوانيت .. فقد كان جمع هذه الأشياء تسليته الكبرى ، الا انه وجد سلوى أعظم ، فقد رأى لأول مرة ابنة مارى انطوانيت فى بلاط النمسا عام ١٧٩٦ بعد مصرع أمها بثلاث سنوات ، فخانتة شجاعته ، فاهتزت

رغبته وسالت دموعه مدرارا

الا ان العزاء الاكبر تحقق لفرسن ، فقد كان يرجو وهو
يصرخ من فرط الالم ، ان يلقي حتفه يوم ٢٠ يونية ، اى يوم
قبض على العربية التى اعدّها للرحلة الفاشلة ، وفى يوم ٢٠
يونية عام ١٨١٠ لقي حتفه بصورة أقرب ما تكون من الصورة
التى لقيت بها مارى انطوانيت مصرعها

فمع الايام ، كان مركز فرسن قد كبر حتى اصبح فيلد
مارشال فى جيش السويد ، ولكنه كان قد استحال لشدة
كراهيته للثورة الفرنسية ، مثلاً قبيحا من أمثلة الرجعية ،
لا فى بلاده وحدها ، بل فى كل أوروبا ، فكان عدوا لكل تقدم ،
ولكل ما يتصل بالشعب ، وبأبناء الشوارع

وكانت قد راجت اشاعة فى استوكهولم عاصمة السويد
مؤداها أن الفيلد مارشال فرسن ، يتهيأ للوثوب على عرش
بلاده ليقودها الى حرب ضد فرنسا ، انتقاما من البلدة التى
قتلت مارى انطوانيت ، وانه لهذا الغرض قد دس السم لاحد
الامراء ليتخلص من منافسته له ، ولم يكن الشعب مصدر
الاشاعة ، انما كانت دوائر الامراء الذين كانوا يخافون فرسن
ويخشون أطماعه

وتناقلت الالسن الاشاعة ، وصدقها الناس ، وفى يوم
تشييع جنازة الامير الذى زعمت الاشاعة انه مات قتيلا
بيد فرسن ، نصح اصدقاء فرسن له بالا يشترك فيها ،
فلم يحفل بتحذيراتهم ، وخرج ليكون بين المشيعين ،

فلم تكدر عربته تغادر قصره ، حتى أحاطت به جماعة نائرة من
الشعب انتزعته من العربة وألقت به في الطريق وما زالت به
حتى لفظ أنفاسه



لقد عرفنا خاتمة حياة جميع من كانوا في العربة .. ولكن
فاتنا ان نذكر مخلوقا منهم ، أشرنا اليه عرضا ، وهو لهذا
يستحق منا تكفيرا عن الخطأ واعتذارا ، وليس أبلغ في التكفير
عن هذا الخطأ ، ولا في التعبير عن الأسف ، من أن نذكره في
ختام هذه الصفحات

كان مع ماري انطوانيت دائما .. صاحبها في رحلتها ، وفي
تنقلاتها من فرساي الى التويلري الى اللوكسمبرج ، الى
التامبل ، الى الكونسيرجي .. فلم يتخلف عنها الا وهي تساق
الى المقصلة .. انه كلبها الوفي ، الذي ذهب يتجول في أنحاء
السجن بعد أن فارقه لتفارق الدنيا ، يشم كل اثر ، ويتطلع
الى كل انسان ، يبدو الاسى في نظراته ويفيض من نباحه ..
فلما عرف أنه أصبح وحيدا ، قبع في ركن بعيد ، وغامت عيناه
بحزن عميق فالتقطه محافظ السجن ، واصطفاه ، فعاش يذكر
سيدته في دعة وهدوء ...



وكلاء مجلات دار الهلال

- لبنان : وكالة دار الهلال - شارع فرنسا
والاقليم الشمالى : صندوق البريد ٣١٥٧ - بيروت
- العراق : السيد محمود حلمى - المكتبة العصرية -
بغداد
- اللاذقية : السيد نخلة سكاف
- جدة : السيد هاشم بن على نحاس - ص . ب ٤٩٣
- البحرين : السيد مؤيد احمد المؤيد - ص . ب ٢١
- البرازيل : Dr. Michel H. Tomé,
Paeto Do Colegio No. 3
3° Andar — Sala 9
SAO PAULO — BRASIL
- غانا : Mr Joseph Hassan,
The Cine Travel Co.,
P.O. Box 1883,
ACCRA, GHANA
- نيجيريا : Mr Mohammed Said Mansour,
P.O. Box 652,
LAGOS, NIGERIA
- سيراليون : Messrs. Allie Mustapha & Sons,
P.O. Box 410,
Freetown Sierra Leone
- سنغافورة : Mr. Ahmed Bin Mohamad Bin Samit,
Almaktab Attijari Asshargi,
P.O. Box 2205,
SINGAPORE

هذا الكتاب

كانت الثورة الفرنسية حدثا عالميا ضخما ،
وكانت ثورة دموية ، اهرقت فيها الدماء غزيرة
متدفقة ، وقد قضت على عهد الملكية والاقطاع ،
ولكنها كذلك اراقت دماء الالوف من الابرياء
ولقد تناول هذه الثورة كثير من المؤرخين
والادباء والروائيين ، غير أن الكتاب الذي نقدمه
هذا الشهر يتناولها من زوايا لم يسبق لكتاب
أن تناولها ، فهو يحدثنا عن الحالة النفسية التي
كان عليها أفراد الاسرة الملكية جميعا ، كما
يحدثنا عن حالة الثوار النفسية ، وكان اروع
ما في الكتاب ذلك الحوار البديع الذي دار
بين الملكة ماري انطوانيت وبين بعض الثوار
حول الحرية والنظام والفوضى والاخاء والمساواة
انه حوار رائع يكشف لنا عن مختلف وجهات
النظر ، وعن بواعث تلك الثورة التي اتت على
الاخضر واليابس

وفي هذا الكتاب توضيح لبعض ما غمض من
دوافع هذه الثورة وبواعثها ، فاماط المؤلف
اللثام عنها واوضحها بأسلوبه الشائق البديع
وصور الحياة في تلك الحقبة الرهيبة تصويرا
دقيقا بديعا